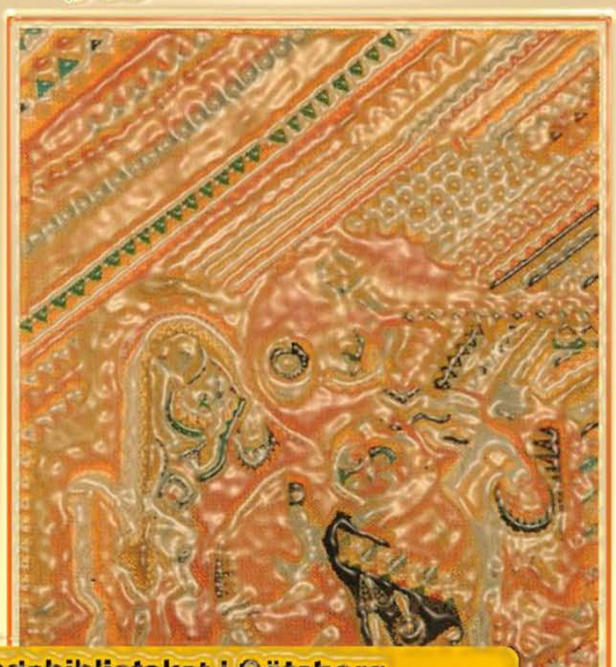
جيمس جويس

أهالي دبلن

رواية



أهالي دبلن

- جميس جويس:
- أهالي دبلن
- ترجمة: أسامة منزلجي

- الطبعة الثانية 2000
- الناشر: دار الحوار للنشر والتوزيع

سورية- اللاذقية ص.ب 1018 هاتف 422339

جميس جويس

أهالي دبلن

ترجمة أسامة منزلجي

دار الحوار

الأخوات

لم يعد هناك أمل في نجاته تلك المرة. كانت النوبة الثالثة. كنت أتردد ماراً من أمام البيت كل مساء (أثناء عطلتي) وأتفحّص مربَّع النافذة المضاء. وليلة بعد ليلة وجدته مضاء بالطريقة نفسها، خافتاً وهادئاً. وفكّرت: لو أنه مات لرأيت انعكاس شموع على الستارة المظلمة، لأنني كنت أعرف أنهم يجب أن يضعوا شمعتين عند رأس الجثة. ولطالما قال لي: "لن يطول مكوثي في هذا العالم" ولم أنصت إليه بجدية. الآن بتّ أعرف أن كلامه كان صحيحاً. وفي كل ليلة حين أحدق في النافذة أهمس لنفسي كلمة شلل. ودائماً أجد لها جرساً خاصاً في أذني، ككلمة gnomon[1] في الهندسة الإقليدية، وكلمة Simony[2] في كتاب التعاليم الدينية. أما الآن فأصبح لها جرس اسم لمخلوق مؤذ أثيم. كانت تملؤني بالخوف، ومع ذلك كنت أتوق لأقترب منها، لأراقب عملها المميت.

حين هبطت إلى الطابق السفلي لأتناول طعام العشاء، كان العجوز كوتر جالساً بالقرب من المدفأة يدخن. وبينما عمتي تسكب لي نصيبي من العصيدة قال، وكأنه يعود لملاحظة ألقاها:

"لا، لا أستطيع القول إنه كان هكذا... ولكن كان فيه شيء شاذ... شيء عجيب. سأقول لكم رأيي..."

بدأ ينفث دخان غليونه، محاولاً ولاشك أن ينظم رأيه في رأسه. يا له من عجوز مملّ! حين تعرّفنا إليه للمرة الأولى كان مسلّياً، يتحدث في أمور كثيرة متنوعة، لكني سرعان ما مللته ومللت حكاياه التي لا تنتهي عن معمل التقطير.

قال: "لديّ نظريتي الخاصة حول الأمر، أعتقد أنها كانت واحدة من تلك ... القضايا الخاصة .. ولكن يصعب القول..."

وشرع بخ الدخان من غليونه دون أن يفصح عن نظريته. ورآني عمي أحدّق، فقال:

"إذن فقد مات صديقك الحميم، ويسوءك أن تسمع النبأ"

قلت: "مَنْ؟"

"الأب فلين"

"هل مات؟"

"أخبرنا السيد كوتر بالنبأ لتوه. كان ماراً بمنزله"

وعرفت أني صرت مركز مراقبة فتابعت طعامي، كأن النبأ لا يهمني. وشرح عمي الوضع للعجوز كوتر:

"لقد كان الفتى والمرحوم صديقين حميمين. وقد علّمه العجوز الشيء الكثير. أؤكد لك. ويقال إنه كان شديد الولع به. "ليرحم الله روحه" قال عمي بورع.

نظر العجوز كوتر إليّ برهة. وشعرت أن عينيه الصغيرتين المستديرتين تتفحصاني لكني لم أُشبع فضوله برفع بصري عن الصحن. فعاد يدخن غليونه ثم بصق بفظاظة في منصب النار.

قال: "ما كنت لأرضى لأولادي أن يتبادلوا الكثير من الحديث مع رجل مثله".

سألت عمتي: "ماذا تقصد، يا مستر كوتر؟"

قال العجوز كوتر: "أقصد أنه أمر له أثره السيئ على الأولاد. وأنا أقول: دعوا أطفالكم يركضون ويمرحون مع أترابهم وأن لا .. ألستُ على حق، يا جاك؟"

قال عمي: "هذا مبدأي أيضاً. دع ابنك يلتفت لشؤونه. دائماً أقول لذاك الروزيكرشي[3] هناك: حرّك دمك. حين كنت طفلاً صغيراً كنت في كل صباح آخذ حماماً بارداً، صيفاً وشتاءً. وهذا ما يجعلني صامداً الآن. إن الثقافة رائعة وشاسعة ... ربما يرغب السيد كوتر أن يتذوق قطعة من "الفخذ" هكذا أضاف مخاطباً عمتي.

قال العجوز كوتر: "لا، لا ، لم أعد أستطيع".

أحضرت عمتي الصحن من الخزانة ووضعته على الطاولة. وسألت: "لماذا ترى أنه غير مناسب للأولاد، يا سيد كوتر؟"

قال: "إن أثره سيئ عليهم، لأن عقولهم شديدة التأثر. وحين يرى الأولاد أشياء كهذه، كما تعلمين، فإنها تترك أثراً ..."

حشوت فمي بالعصيدة خشية أن تصدر عني لفظة غضب. يا له من عجوز غبي مملّ أحمر الأنف!.

لم أذهب للنوم إلا في وقت متأخر. ورغم غضبي من العجوز كوتر لأنه أشار إليّ باعتباري طفلاً، أجهدت ذهني لأستخلص معنى من جُمَلِه الناقصة. وفي ظلام غرفتي تخيلتني أرى ثانية وجه الرجل المشلول الكالح المثقل. وسحبت الغطاء فوق رأسي، وحاولت أن أفكر في عيد الميلاد. غير أن الوجه الكالح ظل يلح عليّ. كان يغمغم بشيء، وفهمت أنه يريد الاعتراف بأمر. شعرت بروحي تتراجع إلى منطقة جميلة شريرة، وهناك وجدته من جديد بانتظاري. وأخذ يعترف لي بصوت هامس، وتساءلت عن سبب ابتسامته طول الوقت

وعن سبب تبلل شفتيه باللعاب. غير أني تذكرت أنه مات من الشلل وشعرت أني أنا أيضاً أبتسم قليلاً، وكأنما لأُحلّ السيمونيّ [4] من إثمه.

في صباح اليوم التالي ذهبت بعد الإفطار لألقي نظرة على المنزل الصغير الكائن في شارع بريطانيا العظمى. كان دكاناً متواضعاً، مُعنْوناً باسم غامض "محل أجواخ وملابس". كان المحل يحوي بشكل رئيسي أحذية ومظلات للأطفال، وفي الأيام العادية تُعلَّق يافطة على الواجهة، تقول: مظلات بقماش جديد. اليوم لم تعد تُرى لأن المصاريع موصدة. وقد رُبطت باقة من الكريب إلى أُكرة الباب بشريط، ووقفت امرأتان فقيرتان وصبي تلغراف يقرؤون البطاقة المثّبتة إلى قماش الكريب، واقتربتُ بدوري وقرأت:

<u>الأول من تموز، 1895</u>

المحترم جيمس فلين (التابع سابقاً لكنيسة القديسة كاترين، شارع ميث)، عمره يناهز الخامسة والستين.

رحمه الله

أقنعتني قراءة البطاقة بأنه قد مات، وانزعجت لأني وجدت نفسي على المحكّ. لو أنه لم يمت لدخلت الغرفة الصغيرة المظلمة الكائنة خلف المحل، ووجدته جالساً في كرسيه قرب المدفأة، يكاد يختنق داخل معطفه الهائل. وربما كانت عمتي أعطتني حزمة من الخبز المحمَّص الممتاز لأجله. وكانت هذه الهدية ستدفعه لينفض عنه نعاس المخدِّر. كنتُ دائماً أنا من يُفرغ الحزمة داخل علبة سعوطه السوداء، لأن يديه كانتا ترتجفان كثيراً بحيث تمنعانه من القيام بهذا العمل دون أن يريق نصف السعوط على الأرض. حتى حين كان يرفع يده

الضخمة إلى أنفه، كانت تتسرب سحب صغيرة من الغبار من بين أصابعه، وتتناثر على صدر معطفه. وربما كان نثار السعوط المستمر هذا هو الذي أضفى على أثوابه الكهنوتية العتيقة اخضرارها الباهت، فقد كان منديله الأحمر، المسوَّدّ دائماً، من أثر بقع سعوط أسبوع كامل -وكان يحاول به أن ينفض عنه الذرات المتساقطة- غير فعَّال إطلاقاً.

وَددْت لو أدخل وأنظر إليه، ولكن لم تسعفني الشجاعة لأطرق الباب. ابتعدت ببطء وأنا أمشي على الجانب المشمس من الشارع، أقرأ إعلانات المسارح المعلَّقة على واجهات المحلات أثناء سيري. واستغربت كيف أنه لا أنا ولا النهار يبدو علينا الحزن، بل وأحسست بالانزعاج لدى اكتشافي في نفسي إحساساً بالتحرر وكأنني قد تخلَّصت من قيد ما بموته. وتعجّبت لهذا الأمر لأنه، كما ذكر عمي في الليلة الفائتة، علّمني الشيء الكثير. كان قد درس في المعهد الأيرلندي في روما، وعلمني طريقة اللفظ الصحيح للُغة اللاتينية. وأخبرني قصصاً عن سراديب الموت وعن نابليون بونابرت. وشرح لي معنى المراسيم المختلفة للقداس والأردية المتنوعة التي يلبسها الكاهن. وأحياناً كان يسلّي نفسه بطرح أسئلة عليّ، فيسألني عما يجب عمله في ظروف معينة، أو ما إذا كانت الآثام كذا وكذا مميتة أو يمكن غفرانها أو إنها مجرد نقائص. كانت أسئلته تظهر لي مدى تعقيد وغموض بعض أعراف الكنيسة التي طالما اعتبرتها من أبسط الأعمال. لقد بدت لي واجبات الكاهن نحو القربان المقدس ونحو سرِّية الاعتراف للكاهن، في منتهى الجدية، حتى تعجبت كيف يمكن لأي إنسان أن يجد في نفسه الشجاعة لتوليّ هذه الأمور، ولم أُدهَش حين أخبرني أن آباء الكنيسة قد كتبوا كتباً بحجم "دليل مكتب البريد"

مطبوعة بأحرف متقاربة جداً، تشبه الإشعارات القانونية المنشورة في الصحف، يجيبون فيها عن كل هذه الأسئلة المعقّدة. وغالباً، بعد أن أفكر في هذا، لا أعطي جواباً، أو أكتفي بواحد يدل على غباء وبلادة شديدين، وكان يبتسم لدى سماعه ويهز رأسه مرتين أو ثلاث.

أحياناً كان يختبرني لإعطائه أجوبة حول القداس يكون قد جعلني أحفظها عن ظهر قلب، وبينما أنا أبتبت يبتسم هو مستغرقاً في أحلامه ويهز رأسه، وبين الحين والحين يدفع بذرات كبيرة من السعوط في كل منخر على التوالي. حين كان يبتسم تظهر أسنانه عديمة اللون، ويترك لسانه ليستقر على شفته العليا، وهذه عادة كانت تزعجني في أول تعرّفي إليه، قبل أن أعرفه جيداً.

بينما أتابع سيري تحت الشمس تذكرت كلمات كوتر العجوز، وحاولت أن أتذكر ما حدث بعدها في الحلم. تذكرت أني لمحت ستائر مخملية طويلة ومصباحاً عتيقاً يترنح. شعرت أني في مكان ناءٍ، في أرض عاداتها غريبة – هي فارس، على ما أعتقد –لكني لم أستطع تذكر نهاية الحلم.

في المساء أخذتني عمتي لنزور البيت المفجوع. كان ذلك بعد الغروب، لكن نوافذ البيوت المواجهة للغرب كانت تعكس اللون الذهبي الضارب للسمرة لجحافل السحب. استقبلتنا نافي في الصالة، ولما كان من غير المستحسن التحدث بصوت عالٍ، اكتفت عمتي بمصافحتها. أشارت العجوز إلى أعلى مستفهمة، ولما هزت عمتي رأسها، تقدمتنا لتكافح صاعدة الدرج الضيق، لا يكاد رأسها يعلو مستوى الحاجز. عند المصطبة الأولى توقفت وأومأت لنا مشجّعة نحو الباب المفتوح لغرفة الميت. دخلت عمتي، ولما رأت العجوز أني أتردد في الدخول عادت تومئ لي بيدها مراراً.

دخلت على رؤوس أصابعي. كانت الغرفة مغمورة بنور الغروب الذهبي الآتي من خلال نهاية تخريم الستارة، وقد بدت الشموع وسطه كلهيب رفيع سقيم. كان مكفَّناً. تقدمتنا نافي وركعنا نحن الثلاثة عند قدم السرير. تظاهرت بالصلاة لكني لم أتمكن من لملمة أفكاري لأن تمتمات العجوز بلبلتنا. ولاحظت كيف ربطت تنورتها بشكل أخرق عند الخلف، وكيف حُتَّ أسفل حذائها من جهة واحدة. وتخيّلت الكاهن العجوز يبتسم وهو مستلق في تابوته.

ولكن لا. حين نهضنا واقتربنا من رأس السرير رأيت أنه لم يكن يبتسم. كان مستلقياً، رصيناً ممتلئاً، يرتدي ثوباً كأنما يستعد للتوجه إلى المذبح، ويداه الكبيرتان تمسكان بارتخاء كأس القربان. وجهه وحشي جداً، شاحب وجامد، بمنخرين غائرين مظلمين، ومحاط بقليل من الفرو الأبيض. وغمر الغرفة عبق ثقيل - إنها الأزهار.

صلّبنا أنفسنا وابتعدنا. وفي الغرفة السفلي الصغيرة وجدنا آلا جالسة على كرسيه، وهي في حالة سيئة. تلمّست طريقي إلى مقعدي المعتاد في الزاوية، بينما توجهت نافي إلى الخزانة وأحضرت زجاجة أشيري وبعض كؤوس الخمر. وضعتها جميعاً على الطاولة ودعتنا لتناول القليل من الخمر، ثم ملأت، تلبية لطلب أختها، الكؤوس بالشيري ووزعتها علينا. وألحت عليَّ لأتناول بعض البسكويت بالكريم أيضاً، لكني امتنعت لأني رأيت أني سأثير الكثير من الضجيج عند مضغها. وبدت خائبة الأمل قليلاً لرفضي، وذهبت بهدوء إلى الصوف حيث جلست خلف أختها. لم يتكلم أحد، ورحنا جميعاً نحملق في المدفأة الخاوية.

انتظرت عمتي حتى تنهدت آلا وقالت:

"آه، لا بأس، لقد رحل إلى عالم أفضل".

تنهدت آلا ثانية وأومأت برأسها موافقة. مسّت عمتي عنق الكأس قبل أن ترشف منه قليلاً.

سألت: "هل ... بسلام؟"

قالت آلا: "آه، بسلام تام، يا سيدتي، ما كنتِ لتلاحظي وقت خرجت الروح منه. لقد نال موتاً جميلاً، ليتبارك اسم الرب".

"وهل كل شيء ...؟"

"كان الأب أوروك معه يوم الثلاثاء، وقد مسحه بالزيت وأعدَّ له كل شيء"

"إذن كان يعرف عندئذٍ؟"

"لقد كان مستسلماً تماماً"

قالت عمتي: "إنه يبدو مستسلماً تماماً"

"هذا ما قالته المرأة التي أحضرناها لتغسله. قالت: إنه بدا كأنه نائم، إلى ذاك الحد بدا مذعناً مستسلماً. لم يكن أحد يتوقع أن يكون جثة جميلة جداً".

قالت عمتي: "نعم، معك حق"

رشفت رشفة من كأسها وقالت:

"لا بأس، يا آنسة فلين، على أية حال لا بد أنه من دواعي ارتياحك أن تعلمي أنك فعلت ما بوسعك. لقد كنتما معاً في منتهى اللطف معه، يجب أن أقول".

مسَّدت إليزا ثوبها عند الركبتين.

قالت: "آه، مسكين جيمس، يعلم الله أننا فعلنا كل ما بوسعنا، رغم فقرنا المدقع. لقد عزَّ علينا أن نراه يفتقد أي شيء وهو في حالته".

أمالت نافي رأسها إلى وسادة الصوفا، وبدت كأنها تكاد تغوص في النوم.

قالت إليزا وهي تنظر إليها: "انظري إلى نـــافي المســكينة، لقــد انهارت. بسبب كل العمل الذي قمنا به، هي وأنا. أحضرنـــا المــرأة لتغسله ثم مددناه، ومن ثم الكفن، ثم أعددنا أمور القداس في الكنســية. ولولا الأب أورورك لا أعلم ماذا كنا سنفعل، فهو الذي جلب لنا كـــل تلك الأزهار والشمعدانين من الكنسية، وكتب لنا الإعلان في صحيفــة "عموم الرجل الحر" وتكفّل بـــإعداد جميــع الأوراق بشــأن الدفــن وبوليصة التأمين على حياة المسكين جميس".

قالت عمتي: "أليس هذا عملاً طيباً منه؟"

أغمضت إليزا عينيها وهزَّت رأسها ببطء.

قالت: "وليس ثمة أصدقاء غير الأصدقاء القدامى بعد كل شــــيء، ولا يبقى من يستحق الثقة".

قالت عمتي: "معك حق، كلامك صحيح، وأنا متأكدة أنه الآن وقــد رحل إلى نعيمه الأبدي لن ينساكما أبداً أو ينسى رفقتكما معه".

قالت إليزا: "آه، مسكين جيمس! لم يكن يشكل أي عـــبء علينـــا. وما كنت تسمعين صوته في البيت إلا بقدر ما تســـمعينه الآن. مــع ذلك، أعلم أنه قد رحل وبُتّ الأمر ...".

قالت عمتي: "لن تفتقديه إلا بعد أن يمر كل شيء".

قالت إليزا: "أعرف هذا، لن أحضر له بعد الآن كأس مـــرق لحم البقر، ولا أنت، يا سيدتي، سترسلين لــه ســعوطه. آه، يــا لجيمس المسكين!"

وسكتت، كأنما تتحاور مع الماضي، ثم قالت بقسوة:

"لا أخفي عليك، لقد لاحظت عليه سلوكاً غريباً في المدة الأخــيرة. فكلما كنت أحضر له حساءه أجده مسترخياً على كرسيه، فمه مفتـوح، وكتاب صلواته واقع على الأرض".

وضعت إحدى أصابعها على أنفها وعبست، وتابعت:

"ومع ذلك ظل يكرر قائلاً إنه سيخرج ذات يوم مشمس بالعربة وقبل انقضاء الصيف ليزور البيت القديم حيث ولدنا جميعاً في آيريشتاون، و يأخذنا أنا وناني. ليتنا استطعنا الحصول على واحدة من تلك العربات الجديدة التي لا تصدر ضجيجاً والتي أخبره عنها الأب أورورك، تلك ذات الدواليب الروماتزميَّة، لأن أجر اليوم الواحد – كما قال، في محل جوني رش الكائن عبر الشارع، رخيص، ولتنزهنا نحن الثلاثة في مساء يوم أحد. لقد كان مصمماً على هذا ... مسكين جيمس!".

قالت عمتي "يرحمه الله!"

أخرجت إليزا منديلها ومسحت عينيها به. ثم أعادته ثانية إلى جيبها وراحت تحملق في بيت النار الفارغ لبعض الوقت دون أن تتكلم.

ثم قالت: "لقد كان دائماً شديد الريبة. لقد كانت وطأة الواجبات الكهنوتية ثقيلة عليه، ثم يمكن القول إن حياته كانت مشوشة".

قالت عمتي: "نعم، كان خائب الأمل. كان واضحاً عليه".

احتل الصمت الغرفة وتقدمت، تحت غطائه، من المائدة، وتذوقت حصتي من الشيري، وعدت بهدوء إلى كرسيي القائم عند الزاوية. وبدت إليزا غارقة في حلم عميق. وانتظرناها من باب الاحترام أن تكسر الصمت. وبعد صمت طال قالت ببطء:

"كان كأس القربان الذي كسره ... هو بداية كل شيء. طبعاً، قالوا إن المسألة تافهة، أي إنه لم يكن يحوي شيئاً. ومع ذلك ... قالوا إنه خطأ الفتى. لكن المسكين جيمس بات عصبياً جداً. رحمة الله عليه!"

قالت عمتي: "أكان هذا هو كل شيء؟ لقد سمعت شيئاً ..."

أومأت إليزا.

قالت: "وهذا ما أثر على عقله، وبعد ذلك بدأ يستغرق في تفكير كئيب، ولا يتحدث إلى أحد ويتمشى وحيداً. وذات يوم احتاجوا إليه ليلبي طلباً معيناً لكنهم لم يجدوه في أي مكان. بحثوا في الأعلى والأسفل، ولم يعثروا له على أثر. ثم اقترح رجل دين أن يجربوا البحث في الكنيسة. وهكذا، أحضروا المفاتيح وفتحوا الكنيسة، وأحضر كل من رجل الدين والأب أورورك وكاهن آخر كان موجوداً، مشعلاً ليبحثوا عنه . . وماذا تظنين غير أن يكون هناك، جالساً وحده وسط الظلام، داخل صندوق الاعتراف، كامل اليقظة وكأنه يضحك لنفسه بخفوت؟"

وسكتت فجأة كأنما لتنصت. وأنصتُّ بدوري. ولكن لم يسمع أي صوت في المنزل، وكنت أعلم أن الكاهن العجوز لا يزال مستلقياً في تابوته كما رأيناه، رصيناً وضارباً في موته، وكأس قربان جامد على صدره.

وعادت إليزا تقول: "في كامل يقظته ويضحك لنفسه... وبعد ذلك، طبعاً، حين وجدوه هكذا، شكّوا في أن يكون قد أصابه مصاب..."

الهوامش:

(1) Gomon: هو بقية متوازي الأضلاع بعد اقتطاع متوازي أضلاع آخــــر مـــن إحدى زواياه.

(2) Simony: وتعني شراء وبيع المنصف الكهنوتي، و(السيمونية) نسبة إلى ســـيمون المجوسي.

(3) الروزيكرشي: هو عضو جميعة سرية اشتهرت في القرنين الـــــ 17 والــــ 18 وزعمت أنها تملك معرفة سرية للطبيعة والدين.

(4) راجع الهامش رقم (2)

لقاء

كان جو ديلون هو الذي عرّفنا بـ"براري الغرب". كان يملك مكتبة صغيرة تتألف من أعداد عتيقة من "عصابة جاك" و"الشجاع" و"أعجوبة بنصف بنس". وكل مساء بعد خروجنا من المدرسة كنا نتقابل في حديقة منزلهم الخلفية، ونشن معارك على الهنود. كان وأخوه الأصغر السمين ليو، البليد، يحتلان مخزن التبن في الإسطبل، ونحاول نحن أخذه بهجوم عاصف، أو نشن معركة عنيفة على العشب. ولكن مهما كان بلاؤنا حسناً فقد كنّا لا نربح حصاراً أو معركة، وكانت تنتهي كل مباراتنا برقصة انتصار جو ديلون في الحرب. كان أبواه يذهبان كل صباح إلى قداس الساعة الثامنة في شارع جاردينر، ويشيع عبق السيدة ديلون الهادئ في صالة البيت. غير أن لعبَهُ كان عنيفاً علينا نحن الأصغر سناً والأكثر خوفاً. كان، وهو يثب حول الحديقة يبدو مشابهاً لأحد الهنود بالغطاء العتيق للإبريق الذي يضعه على رأسه، ويقرع على قطعة تنك بقبضته زاعقاً "يا! ياكا! ياكا! ياكا!"

وقد ذهلنا حين أشيع أنه مؤهل للدخول في سلك الكهنوت. وكان هذا الكلام صحيحاً مع ذلك.

لقد سادت بيننا روح جامحة وامحت، تحت تأثيرها، فروق الثقافة والعرق. وتكتّلنا معاً، بعضنا بشجاعة والبعض الآخر مازحاً، بل وبعضنا بشيء من الخوف. وكنتُ واحداً من بين المجموعة الأخيرة، الهنود الكارهون الخائفون أن يبدوا مُجِدِّين في الدرس أو تنقصهم القوة. لقد كانت المغامرات التي تسردها قصص "براري الغرب" بعيدة عن طبيعتي، إلا أنها، على الأقل، فتحت لي منافذ للهرب. وأكثر ما أعجبني منها كان القصص البوليسية الأميركية التي كان يتخللها من وقت لآخر حوادث عنيفة وفتيات جميلات. ومع أنه لم يكن ثمة ما يُعَاب على هذه القصص، وكان هدفها أحياناً أدبياً، فقد كانت توزَّع في المدرسة سراً. وفي أحد الأيام بينما كان الأب بطلر يسمّع أربع صفحات من تاريخ الرومان، ضُبط ليو ديلون الغليظ ومعه نسخة من "أعجوبة بنصف بنس".

"هل وصلنا إلى هذه الصفحة أو تلك؟ هذه الصفحة؟ هيا ديلون، قف! "ما كاد النهار" ... أكمل! أيُ نهار؟ "ما كاد النهار يبزغ" ... هل راجعته في البيت؟ ماذا تحمل في جيبك؟"

وحين مدَّ ليو يده بالكتاب راح قَلْب كل منا يخفق وقد رسم البراءة على وجهه. وقلَّب الأب بطلر الكتاب عابساً.

قال: "ما هذه السخافة؟ "رئيس الأباتشي! أهذا ما تقرأ عوضاً عن قراءة درس التاريخ الروماني؟ لا أريد أن أجد أياً من هذا الشيء السيء في هذه المدرسة. أعتقد أن من كتبه هو شخص حقير ألَّفه من أجل الحصول على الخمر. يدهشني أن أولاداً مثلكم، مثقفين، يقرؤون شيئاً كهذا. كان يمكن أن أفهم السبب لو كنتم ... تلامذة المدرسة الوطنية. والآن يا ديلون، أنصحك بقوة: عُد إلى درسك وإلاّ ..."

هذا التوبيخ الذي حصل أثناء ساعات الدرس الرزينة أفقد قصص براري الغرب الكثير من فخامتها في نظري، وأيقظ وجه ديلون

المضطرب المنتفخ واحداً من ضمائري. ولكن حين كان ينأى تأثير المدرسة الكابح أعود فأتوق للمشاعر الجامحة، للهرب الذي لم تقدمه لي تواريخ الفوضى تلك. وأخيراً أصبحت محاكاة الحرب في المساء تسئمني كسأمي من رتابة الجور المدرسي في الصباح، لأنني أردت أن تحدث لي مغامرات حقيقية. لكنني فكرت أن المغامرات الحقيقية لا تحدث للناس الذين يبقون في بيوتهم، بل يجب أن يبحثوا عنها بعيداً.

كانت العطل الصيفية على الأبواب فقررت أن أخرق الملل الذي يكتنف حياة المدرسة ولو ليوم واحد على الأقل. وخطّطت مع ليو ديلون وصبي آخر يسمّى ماهوني كي نتهرب من المدرسة ليوم كامل. فوفّر كل منا ستة بنسات، واتفقنا على أن نتقابل في العاشرة صباحاً على جسر القنال. واتّفق ماهوني مع أخته الكبرى كي تكتب له عذراً خطيّاً، وأخبر ليو ديلون أخاه أن يقول إنه مريض. وقررنا أن نمشي على طول طريق وارْف حتى نصل إلى السفن، ثم نعبر بالمعدّية، وننتقل لنشاهد بيت الحمام. كان ليو ديلون يخشى أن نقابل الأب بطلر أو شخصاً آخر من الكلية، لكن ماهوني سأل بتعقل ما الذي سيأتي بالأب بطلر إلى بيت الحمام. واشتدت ثقتنا. وأنهيت أنا الإعداد للمرحلة الأولى بأن جمعت ستة بنسات من كلا الاثنين، وأنا أريهم في الوقت نفسه بنساتي الستة. عندما وصلنا إلى الترتيبات الأخيرة في تلك الأمسية شاع بيننا سرور غامض. فتصافحنا، وضحكنا، وقال ماهوني:

"إلى الغد، أيها الرفاق!"

في تلك الليلة نمت نوماً قلقاً. وفي الصباح كنت أول الواصلين إلى الجسر، بما أني أقطن بالقرب منه. وخبأت كتبي بين العشب

الطويل قرب حفرة الرماد عند نهاية الحديقة، حيث لم يطأ المكان أحد من قبل، وهرعت على طول ضفة القنال. كان صباحاً مشرقاً معتــدلاً في أول أسبوع من حزيران. جلست على الإفريز المائل للجسر أتأمل معجباً بحذائي المصنوع من القنَّب الرقيق، وكنت قد قضيـــت ليلــة كاملة أنظفه بإتقان برماد الغليون. ثم راقبت الأحصنة الطيّعة وهـــي تجر عربة ملآى بالناس إلى أعلى التل. كانت جميع أغصان الأشجار الباسقة التي حدّدت المنتزه المظلّل فرحة بأوراقها الخضر الرقيقـــة، وأشعة الشمس تتخللها لتستقر على الماء، وبـــدأت حجـــارة الجســـر الجرانيتية تسخن، ورحت أربت عليها بكلتا يديّ موقّعـــاً لحنـــاً فـــي رأسي. لقد كنت سعيداً.

بعد انقضاء خمس دقائق أو عشر على جلوسي رأيت بذلة ماهوني الرمادية تقترب. كان ينحدر من أعلى التل، مبتسماً، وتســـلق بجـــهد ليجلس قربي على الجسر. وبينما نحن بالانتظار أخرج "النّقيفة" التـــي كانت منتفخة في جيبه الداخلي، وشرح التحسينات التي أجراها عليها. ولما سألته لماذا أحضرها، قال إنه أحضرها ليثرثر مع العصـــافير. كان ماهوني يستخدم العامية بحرية، وقد أطلق على الأب بطلر اســـم بَنْسر العجوز. وامتد انتظارنا ربع ساعة أخرى، ولكن لم يظهر أثـــر لليو ديلون. وأخيراً قفز ماهوني هابطاً وقال:

"هيا بنا، أنا أعرف أن "التخين" سيخاف"

قلت: "وماذا عن بنساته الستّة ...؟"

قال ماهوني: "إنها غرامة، وهذا أفضل لنا، لكل منا شلن ونصـــف بدل الشلن"

ومشينا في شارع نورث ستراند حتى وصلنا إلى مصنع الزاج ثـــم انعطفنا يمنياً إلى شارع وارْف. وحالما صرنا بعيدين عن الأنظار بدأ

ماهوني يلعب دور الهندي. فلحق بجمع من الفتيات بثياب رثة، وراح يلوّح بالنّقيفة الفارغة مهدداً، وحين بدأ ولدان بثياب رثة يرمياننا بالحجارة، بدافع الشهامة، اقترح أن نهجم عليهما. واعترضت قائلاً إن الولدين صغيران جداً، وعلى هذا تابعنا طريقنا بينما المجموعة الرثة تصرخ خلفنا "مقمَّطين! مقمَّطين" ظناً منهم أننا بروتستانت، لأن ماهوني، ذا البشرة السمراء، كان يعلِّق شعاراً فضياً لنادي الكريكيت على قبعته. وحين وصلنا إلى المكواة نظمنا حصاراً، لكنه فشل، لأن الأمر كان يحتاج إلى ثلاثة أشخاص على الأقل. وانتقمنا لأنفسنا من ليو ديلون بالقول: كم كان جباناً، وخمَّنا مقدار ما سينال من مستر رايان عند الساعة الثالثة.

ثم اقتربنا من النهر. وقضينا وقتاً طويلاً نطوف الشوارع الصاخبة تحاصرنا جدران حجرية، نراقب عمل الرافعات والآلات، وكثيراً ما صرخ السائقون في وجهينا لوقوفنا في طريق السيارات الصارّة. وعندما وصلنا إلى أرصفة الميناء كان الظهر قد انتصف، ولما رأينا أن العمال جميعاً يتناولون غداءهم، ابتعنا كعكتين بالزبيب، وجلسنا على أنبوب معدني قرب النهر نأكلها. ومتَّعنا أنفسنا بمشاهدة حركة التجارة في دبلن: مراكب البضائع المتمايزة عن بعض بخصلات دخانها المنفوشة، وأسطول الصيد البني بعد خلف رينغسند، ومركب الإيجار الكبير الأبيض يفرغ على الرصيف المقابل. قال ماهوني إنه من المضحك أن نركب البحر فوق واحدة من تلك السفن الكبيرة، حتى أنا، وأنا أنظر إلى السواري، رأيت، أو تخيَّلت، الجغرافيا التي تجرعتها بصعوبة في المدرسة تتشكَّل بالتدريج تحت أنظاري. وأخذ خيال المدرسة والبيت يتراجع بعيداً عنا، وتأثيرهما يبهت.

عبرنا نهر ليفي على معدّية، ودفعنا رسم نقلنا بصحبة عاملين آخرين ويهودي قميء يحمل حقيبة. كنا جادّين في تصرفنا إلى حد الوقار، ولكن تقابلت عيوننا مرة واحدة أثناء الرحلة القصيرة فأخذنا نضحك. بعد أن رسونا رحنا نراقب عملية إفراغ المركب الثلاثي الأشرعة البهيّ الذي لمحناه من الرصيف الآخر. قال أحد الواقفين إنها سفينة نورويجية، وذهبت إلى مؤخرة السفينة وحاولت حلّ غموض النقش المرسوم عليها، ولما فشلت، عدت وتفحّصت البحارة الأجانب لأرى إن كان لأي منهم عيون خضر مطبّقاً معتقدي المشوش ... كانت عيون البحارة زرقاء، أو فاتحة، أو حتى سوداء. وكان البحار الوحيد الذي يمكن القول عن عينيه إنهما خضراوان، رجلاً طويلاً أخذ يسليّ الجمع على الرصيف عندما أخذ يصيح بمرح كلما سقط لوح خشب:

"جيد! جيد!"

حين مللنا هذا المشهد رحنا نتجول ببطء داخل رينغسند. وصار الجو شديد الحرارة والرطوبة. وتحوّل البسكويت العفن في نوافذ دكاكين البقالة حتى ابيضّ لونه. ابتعنا بعض البسكويت والشكولاته، أكلناه بمثابرة ونحن نتجول خلال الشوارع القذرة حيث تسكن عائلات الصيادين. ولم نعثر على دكان للألبان فدخلنا دكاناً لبائع متجول، واشترينا زجاجة ليمون مع التوت لكل منا. انتعش ماهوني بهذا الشراب فأخذ يلاحق قطة عبر الزقاق، لكن القطة هربت داخل حقل فسيح. وشعر كل منا بالتعب، لذا حين وصلنا الحقل، أخلدنا إلى ضفة منحدرة، وعبرها أطللنا على نهر الدودر.

تأخر الوقت واستولى علينا التعب، ولم نستطع متابعة مشروعنا في زيارة بيت الحمام. كان يجب أن نكون في البيت قبل الساعة الرابعة،

وإلا اكتشف أمر مغامرتنا. نظر ماهوني إلى نقّيفته بأسف، وكان عليّ أن أقترح العودة إلى البيت بالقطار قبل أن يستعيد إشراقه. واختفت الشمس خلف بعض السحب، وتركتنا لأفكارنا المنهكة ولبقايا مؤنتنا.

لم يكن هناك غيرنا في الحقل. بعد أن استلقينا على الضفة لبعض الوقت دون أن نتكلم، رأيت رجلاً يقترب من الطرف الأبعد للحقل. ورحت أراقبه بكسل وأنا أمضغ إحدى الأرومات الخضر التي تكشف عليها الفتيات الحظ. كان يسير على طول الضفة ببطء، وقد وضع إحدى يديه على وركه وحمل بالأخرى عصا راح يدق بها أرض الحقل بخفة. كان يرتدي بذلة رثة بلون أسود مخضر، ويعتمر ما كنّا نسميها بقبعة جيري ذات القمة العالية. بدا عجوزاً تماماً، وقد أصبح شاربه بلون الرماد. وحين مرّ عند موطئ أقدامنا ألقى علينا نظرة سريعة وتابع طريقه. تعقبناه بعيوننا، ووجدنا أنه بعد أن مشى حوالي خمسين خطوة استدار على عقبيه، وبدأ يعود أدراجه، واتجه نحونا ببطء شديد، وظل يدق الأرض بعصاه، بخطى بطيئة إلى حد أنني ظننت أنه يبحث عن شيء بين الأعشاب.

عندما وصل إلينا توقف وألقى علينا التحية. رددنا له التحية، فجلس قربنا على المنحدر بتمهل وبحذر شديد. وبدأ يتحدث عن الطقس قائلاً إنه سيكون صيفاً حاراً جداً، ومضيفاً أن الفصول قد تغيَّرت كثيراً عما كانت عليه وهو صبي، قبل زمن طويل جداً. قال: إن أسعد فترة في حياة المرء هي بلا شك أيام الدراسة، وإنه يهب أي شيء مقابل أن يعود شاباً من جديد. وبينما كان يعبِّر عن هذه العواطف وقد أسأمنا قليلاً، لُذنا نحن بالصمت. ثم بدأ يتكلم عن المدرسة والكتب، فسألنا إن كنا قد قرأنا شعر توماس مور أو أعمال سير والتر سكوت ولورد ليتون. ادَّعيت أنني قرأت كل كتاب ذكره

حتى إنه قال في آخر الأمر "آه، أنك دودة كتب مثلي" وأضاف مشيراً إلى ماهوني الذي كان ينظر إلينا بعينين مفتوحتين "أما هو فمختلف، إنه مندفع نحو الألعاب".

وقال إنه يقتني جميع كتب سير والتر سكوت وجميع أعمال لورد ليتون في بيته ولا يمل قراءتها. قال: طبعاً هناك من أعمال لورد ليتون مالا يستطيع الأولاد قراءته. وسأل ماهوني لماذا لا يستطيع الأولاد قراءتها، وكان سؤالاً آلمني وأربكني لأنني كنت أخشى أن يعتقد الرجل أنني أماثل ماهوني في الغباء. لكن الرجل اكتفى بالابتسام. ورأيت في فمه انفراجات بين أسنانه الصفراء. ثم سألنا أيُّنا لديه أكبر عدد من العشيقات. فذكر له ماهوني بلا مبالاة أن لديه ثلاث حبيبات. ولما سألنى كم لديًّ أجبت أنه ليس لدي ولا واحدة. فصمت.

قال ماهوني للرجل بشيء من الوقاحة: "قل لي، كم لديك أنت منهن؟"

ابتسم الرجل كما فعل من قبل وقال إنه حين كان في عمرنا كان عنده الكثير من العشيقات. قال "كل فتى لديه حبيبة صغيرة". صدمني موقفه من هذه النقطة كونه متحرراً بشكل غريب بالنسبة لرجل في سنه. ورأيت بيني وبين نفسي أن ما قاله عن الأولاد والعشيقات كان معقولاً. لكنني كرهت طريقة خروج الكلمات من فمه، وتساءلت لماذا ارتعد مرة أو مرتين، كأنه كان يخاف شيئاً أو شعر بقشعريرة مفاجئة.

وبينما تابع حديثه لاحظت أن لهجته كانت جيدة. بدأ يحدثنا عن الفتيات، عن شعورهن الناعمة الجميلة، وعن رقة أيديهن، وكيف أن الفتيات جميعاً لسن بالطيبة التي يبدين بها. قال إنه لم يكن هناك ما

يجاري لديه النظر إلى فتاة جميلة، إلى يديها الجميلتيـــن البيضـــاوين وشعرها الناعم الهفهاف. لقد ترك لديَّ انطباعاً بأنه يردد شيئاً تعلَّمـــه غيباً، أو أن ذهنه كان يحوم بطيئاً مرة بعد مرة في مـــدار بيضـــاوي واحد، وقد افتُتِن ببعض الكلمات من حديثه. أحياناً كان يتكلم وكأنـــه يلمح ببساطة إلى حقيقة يعرفها الجميع، وأحياناً يخفض مـــن صوتـــه ويتكلم بغموض، كأنه يفضي لنا بسر لا يريد لغيرنا أن يعرفه. كـــان يعيد عباراته ويكررها، ينوّعها ويحيطها بصوته الرتيـــب. وظللـــت على حملقتي بأسفل المنحدر، وأنا أنصت إليه.

بعد فترة طالت توقف حواره الإفرادي، اعتدل واقفاً ببـــطء وهـــو يقول إن عليه أن يغيب دقيقة أو بضع دقائق، ورأيته يمشـــي، دون أن أغيِّر جهة نظرتي، وراح يبتعد عنا على مهل متجهاً إلـــى الطـــرف القريب للحقل. وبقينا صامتين بعد ذهابه. وبعد صمت بضـــع دقـــائق سمعت ماهوني يهتف:

"أنظر! أنظر ماذا يفعل!"

ولما لم أُجِبْ أو أرفع عينيّ كرر ماهوني هاتفاً:

"أعتقد أنه ... عجوز شاذ!"

قلت: "إذا سألنا عن اسمينا قل له إن اسمك مورفي وأنـــا ســـميث" ولم نقل شيئاً آخر لبعضنا، وكنت لا أزال أفكر إن كنت سأذهب أم لا عندما سيعود الرجل ويجلس قربنا. وحالما جلس هبَّ ماهوني واقفـــاً وراح يطارد القطة التي هربت منه. وراقبت أنا والرجل المطـــاردة. وهربت القطة من جديد وبدأ ماهوني يرمي الحجارة علـــى الحـــائط الذي تسلَّقته. ولما كفَّ عن هذا أخذ يتجول حول الطرف النائي مـــن الحقل بلا هدف.

بعد فترة تكلم الرجل معي. قال: إن صديقي ولد خشن، وسأل إن كان يساط غالباً في المدرسة. وكدت أجيب ساخطاً بأننا لسنا من تلامذة المدرسة الوطنية حتى نساط، حسب تعبيره. لكنني حافظت على صمتي. وتابع حديثه في موضوع تأديب الأولاد. وبدا ذهنه، وقد تمغنط من جديد بتأثير حديثه، كأنه يحوم ويدور مرة تلو الأخرى بطيئاً حول محوره الجديد. قال إنه عندما يكون الأولاد من هذا النوع يجب أن يساطوا جيداً. فعندما يكون الولد خشناً طائشاً فلن يفيده شيء كالسيط المحكم. أما الضرب على الكف أو اللكم على الأذن فلا يفيد: إن ما يحتاجه هو أن ينال سيطاً جيداً ساخناً. ودهشت لهذا الانفعال، ونظرت إلى وجهه دون قصد، ولما فعلت قابلتني نظرة حادة من زوج العيون ذات الخضرة الزجاجية تحملق بي من تحت جبهة تنتفض. وأشحت بعينيّ ثانية.

وتابع الرجل مونولوجه. وبدا أنه نسي تحرريته الأخيرة. قال إنه إذا ما وجد ولداً يتكلم مع الفتيات أو متخذاً من فتياته حبيبة له فسوف يسوطه، وهذا سيعلّمه أن لا يتكلم مع الفتيات. وأنه إذا اتخذ صبي ما فتاة له كمحبوبة ونشر الأكاذيب عن علاقته فإنه سيذيقه من السيط ما لم يذقه صبي آخر في العالم. قال إنه لا يوجد شيء آخر في العالم يرغب بتنفيذه مثل هذا العمل، ووصف لي كيف سيسوط صبياً من هذا النوع، وكأنما كان ينيط اللثام عن سر ملغز معقّد. قال إنه سيحب هذا العمل أكثر من أي شيء في العالم، وكان صوته، وهو يقودني خلال سره الغامض، يكاد يصبح رقيقاً، وكأنه يناشدني كي أفهمه.

انتظرت حتى توقف حديثه الداخلي من جديد، وعجّلت بالاعتدال واقفاً. ولكي لا أخون ترددي تلكأت للحظات، متظاهراً بربط حذائي جيداً، ومن ثم تمنيت له يوماً سعيداً قائلاً إنني مضطر للذهاب.

ورحت أتسلق المنحدر بهدوء لكن قلبي كان يخفق مسرعاً خيفـــة أن يمسكني من كاحلي. وحين وصلت إلـــى قمـــة المنحـــدر اســـتدرت وصحت بصوت عال عبر الحقول ودون أن أنظر أليه:

"مورفي!"

كان في صوتي نبرة شجاعة مقحمة، وشعرت بالخجل من خدعتي الوضيعة. واضطررت للصياح ثانية قبل أن رآني ماهوني، وأجـــابني هاتفاً. أخذ قلبي يخفق وهو يهرع عابراً الحقل إليّ! كان يركض كأنما ليقدم لي عوناً. وغالبني الندم: ففي قرارتي طالما أضمرت له شـــيئاً من الاشمئزاز.

Smookting Iron (1)

سوق آرابي

بما أن شارع نورث ريشموند شارع مسدود فقد كان هادئاً عدا ساعة تَصرفُ مدرسة الإخوة المسيحيين أولادها. وعند الطرف المسدود منه قام بيت مهجور مؤلَّف من طابقين، منفصلاً عن بقية جيرانه مسافة مربع من الأرض. ولما كانت بقية البيوت في الشارع تعي طبيعة الحياة المحترمة داخلها، فقد راحت تحملق بعضها في وجوه بعض، كالحة هادئة.

كان الساكن السابق لـ (صاحبنا) البيت، الكاهن، قد مات في الغرفة الخلفية. وركد الهواء معلَّقاً، عتيقاً من طول الإغلاق، في جميع الغرف، وقد فُرِشَت غرفة العاديات الكائنة خلف المطبخ بأوراق عتيقة مهملة. ثمة عثرتُ على بعض كتب ورقية الغلاف صفحاتها مجعَّدة رطبة، مثل: "رئيس دير الرهبان" لـ سير والتر سكوت، و "المتناول الورع" و "مذكرات فيدوك". وأحببت هذا الأخير لأن أوراقه كانت صفراء. كان في الحديقة البرية الكائنة خلف البيت شجرة تقع وسطها، وبضع شجيرات أخرى شاردة، وجدت تحت إحداها منفاخ دراجة صدئ يخص الساكن المرحوم. لقد كان كاهناً محباً للخير، ترك في وصيته جميع نقوده للمؤسسات، وأثاث بيته لأخته.

بحلول أيام الشتاء القصيرة، كان الغروب يهبط قبل أن ننتهي من تناول غداءنا. حين نتقابل في الشارع تبدو البيوت كئيبة، والسماء من فوقنا بلون بنفسجي دائم التبدل، وقد رفَعت أعمدة نور الشارع فوانيسها الخافتة نحوها. كان الهواء البارد يلسعنا فنلعب حتى تتوهج أجسادنا، وترجِّع صدى صرخاتنا في الشارع الهادئ. وكان يقودنا مجرى لعبنا خلال الأزقة المعتمة الموحلة خلف الأبنية، حيث نتحدى القبائل المتوحشة كي تخرج إلينا من أكواخها، ونمضي إلى الأبواب الخلفية للحدائق المظلمة حيث نبعث الروائح من حُفَر الرماد، فإلى الاسطبلات الكريهة الرائحة المعتمة حيث يسرِّح سائق العربة الحصان ويمشّطه أو يصدر رنّة موسيقية من طقم الفرس المثبت. وحين نعود إلى الشارع تكون الأنوار المنبعثة من نوافذ المطابخ قد عمَّت المنطقة. فإذا رأينا عمي آتياً عند الزاوية، اختبأنا في الظل حتى يدخل البيت بسلام. أو إذا خرجت أخت مانجان إلى عتبة البيت لتنادي على أخيها ليتناول الشاي، نروح نراقبها من الظل وهي تنظر إلى جهتيّ الشارع. وكنا ننتظر لنرى إن كانت ستبقى أو تدخل، فإذا بقيت نترك الظل ونمشي نحو درج بيت مانجان بإذعان. كانت تنتظرنا، بقامتها التي يحدّدها الضوء المنبعث من الباب نصف المفتوح. كان أخوها يزعجها دائماً قبل أن يطيع، وأقف أنا قرب الدرابزين أنظر إليها، وكلما حرّكت جسمها يهتز ثوبها، وتقفز جديلة شعرها الناعمة من طرف إلى طرف.

كنت كل صباح أستلقي في الصالة الأمامية على الأرض أراقب بابها، وأسدل الستارة مسافة إنش من إطار النافذة حتى لا أكون مرئياً. وحين تخرج إلى عتبة البيت يقفز قلبي. أركض إلى القاعة حاملاً كتبي وأتبعها. لم أكن أدع قامتها السمراء تغيب عن ناظري

أبداً، حتى إذا وصلنا قرب النقطة التي يفترق عندها طريقانا أحث خطاي وأتخطاها. حدث هذا صباحاً بعد آخر. لم يصادف أبداً أن تكلمت معها، عدا بضع كلمات، ومع ذلك كان اسمها بمثابة استدعاء لدمي الأبله كله.

كانت صورتها ترافقني حتى في أكثر الأماكن عدائية للرومانتيكية. وفي أمسيات السبت حين كانت عمتي تذهب إلى السوق، كنت أذهب معها لأحمل لها بعض اللفائف. كنا نمشي في شوارع خافتة الضوء، نصطدم برجال سكارى ونساء بائعات وسط سباب العمال، ونداءات الصبية البائعين الحادة الذين وقفوا يحرسون براميل خدود الخنازير، والخنة الأنفية لمغنّي الشوارع الذين يجمعون الناس ليغنوا عن أودونوفان روسّا، أو قصيدة غنائية عن هموم وطننا الأم. قد تمركزت هذه الأصوات الصاخبة ضمن إحساس واحد بالحياة. بالنسبة لي تصورت أنني أحمل كأس قرباني بسلام خلال حشد من الأعداء. كان اسمها يقفز على شفتي أحياناً على شكل صلوات غريبة وإطراءات لم أفهمها أنا نفسي. كانت عيناي دائماً ممتلئتين بالدمع (ولم أفهم سببه)، وأحياناً يبدو أن فيضاً ما ينهمر من قلبي إلى أضلعي. لم أكن أفكر في المستقبل إلا نادراً. ولم أكن أدري إن كنت سأكلمها أم لا، أو كيف، إذا كلمتها، سأبوح لها بهيامي المضطرب. لكن جسدي كان كقيثارة، وكلماتها ولفتاتها كأصابع تنقر على أوتارها.

ذات أمسية ولجت غرفة الجلوس التي مات فيها الكاهن. كانت أمسية ممطرة حالكة والصمت يشمل البيت. وسمعت ــ خلال لوح زجاج مكسور ــ المطر يوقّع على الأرض، وإبر الماء الجميلة المتواصلة تلعب فوق أسرّتها المخضلّة. وكانت بعض المصابيح البعيدة

أو النوافذ المضاءة تومض تحتي. وكنت ممتّناً لأنني لم أكـــن أرى إلا قليلاً، وكأن جميع أحاسيسي قد رغبت في الاحتجاب. ولمـــا شـعرت أنني على وشك أن أنفصل عنها رحت أضغط كفَّيَ معاً حتى ارتجفـــا وأنا أهمهم: "آه من الحب! آه من الحـــب!" مــرات عديـدة. وأخـــيراً كلمتني، وكلماتها الأولى إليَّ أربكتني إلى حد أنني لم أعـــرف بمــاذا أجيب. سألتني إن كنت ذاهباً إلى سوق آرابي. لم أعد أذكر إن كنت قـد أجبت بلا أو نعم. قالت إنه يوم رائع للتسوُّق وإنها تود لو تذهب.

وسألت: "ولم لا تفعلين؟"

كانت وهي تتكلم تدير مدلاَّة فضية مرة بعد أخرى حول رســغها. قالت إنها لا تستطيع الذهاب لأنه سيقام اعتزال ذلك الأســبوع فــي ديرها. كان أخوها وصبيان يتشاجران من أجــل قبعاتــهم، ووقفـت وحدي عند الحاجز، وكانت هي تحمل إحدى السنابل وتميل برأســها نحوي. ولمس النور المنبعث من المصباح المقابل لبابنا انحناءة عنقها الأبيض. ولألأ شعرها المنساب هناك، ثم هبط وأضاء اليد المرتاحـــة على الحاجز. وسقط على جانب ثوبها ووصل حتى الطرف الأبيــض لتنورتها التي لم تكد تظهر وهي في وقفتها المرتاحة.

قالت: "أنت محظوظ".

قلت: "إذا ذهبت سأحضر لك شيئاً".

كم من حماقات وحماقات أفسدت عليّ أفكار يقظتي ونومي بعـــد تلك الليلة. وددت لو أبيد الأيام المتداخلة المملّة. وأنزلت جام غضبــي على العمل المدرسي. مساء في غرفة النوم ونهاراً في غرفة الصــف كانت صورتها تقف بيني وبين الصفحة التي أجاهد لأقرأهــا. كــانت مقاطع كلمة آرابي تتمثل أمامي في الصمت الذي أترفتني به روحــي وألقت عليّ سحراً شرقياً. واستأذنت للذهاب إلى السوق ليلة السبت.

ودُهِشَت عمتي من أن تكون لي علاقة بالماسونية. وفي الصف لم أجب إلا على بضعة أسئلة، وراقبت وجه الأستاذ وهو يتحـــول مـــن الود إلى التجهّم، وأبدى أمله في أن لا يكون هذا مني بداية للبـــــلادة. ولم أعد أقدر على جمع شتات أفكاري، ولم أعد أصبر علـــى القيـــام بأعمال الحياة الجادة، الحياة التي باتت تبدو لي، بعد أن وقفت حـــائلاً بيني وبين رغبتي، مجرد لعب أطفال، لعب أطفال رتيب بشع.

وفي صباح يوم السبت ذكّرت عمي برغبتي بالذهاب إلى الســـوق عند المساء. كان واقفاً عند الشماعة يثير ضجة في بحثه عن فرشـــاة القبعة. فأجابني باقتضاب:

"نعم يابني، أعرف"

ولما كان موجوداً في القاعة لم أتمكن من الذهاب إلـــى الصالـــة الأمامية لأكمن عند النافذة. فتركت البيت بمزاج عكر ومشيت متمهلاً إلى المدرسة. كان الهواء فظاً لا يرحم، وساورت قلبي الشكوك.

حين عدت إلى البيت وقت الغداء لم يكن عمي قد رجـــع. كـــان الوقت لا يزال مبكراً. جلست أحملق في الساعة لبعض الوقت حتـــى صارت دقاتها تثير أعصابي، فتركت الغرفة، وارتقيت الســـلم إلـــى القسم العلوي من المنزل، وحرّرتني الغرف الكئيبة العاليـــة الخاليـــة الباردة، وأخذت أتنقل من غرفة إلى أخرى وأنا أغني. ومن النـــافذة الأمامية رأيت رفاقي يلعبون في الشارع. وصلتني صيحاتهم الضعيفة غير واضحة، وألقيت نظرة إلى بيتها المظلم وأنا أميل بجبهتي علـــى الزجاج البارد. ربما أمضيت على هذه الحالة قرابـــة ســـاعة لا أرى سوى قوام يرتدي ثوباً غامقاً يرسله خيالي، يلامسه نـــور المصبـــاح بحذر عند انحناء العنق، وعلى اليد المستلقاة علـــى الحـــاجز وعلـــى الحافة السفلى للثوب.

حين هبطت الدرج ثانية وجدت السيدة مرسر جالسة قرب النـــار. كانت امرأة عجوزاً ثرثارة أرملة مُستر هِــن كــان يجمــع طوابــع مستعملة لأغراض دينية. وكان عليَّ أن أتحمل ثرثرة وقت العشـــاء. امتدت الوجبة لأكثر من ساعة ولم يأت عمـــي. واســتعدت المســز مرسر للذهاب معبِّرة عن أسفها لأنه ليس باستطاعتها أن تنتظر أكـثر من ذلك، لكن الوقت كان قد تجاوز الثامنة ولم تكن تريــد أن تتــأخر خارج المنزل، لأن هواء المساء يضر بصحتها. بعد ذهابــها رحــت أقطع الغرفة جيئة وذهاباً وأنا أضم قبضتيّ بإحكام، وقالت عمتي:

"أخشى أنك ستضطر لإبعاد فكرة السوق عنك هذه الليلة الخاصـــة برب البيت". عند الساعة التاسعة سمعت مفتاح مزلاج عمي في بــاب الصالة. سمعته يكلم نفسه، وسمعت الشماعة تهتز بعد أن أناخ عليــها ثقل معطفه. واستطعت أن أفسر هذه الحركات. وأثناء تناوله العشـــاء طلبت منه أن يعطيني نقوداً لأذهب إلى السوق. لقد كان قد نسي.

قال "إن الناس الآن قد لجأوا إلى أسرتهم وأوشكوا أن يغطّـــوا في النوم".

ولم أبتسم. فقالت له عمتي بنشاط:

"لم لا تعطه النقود وتدعه يذهب؟ لقد اضطررته للانتظار ما يكفي"

واعتذر عمي كثيراً لنسيانه، وقال إنه يؤمن بالمثل القديم القـــائل: "كثرة العمل وقلة اللعب يجعلان من جاك ولداً بليداً". وسألني إلى أيـن أنا ذاهب. وعندما أخبرته للمرة الثانية سألني إن كنت أعرف قصيــدة "وداع العربي لجواده". حين تركت المطبخ كان قد بدأ يلقـــي علـــى مسامع عمتي الأبيات الأولى.

قبضت على الفلوراين بقوة بيدي ومشيت بخطوات واســعة فـــي شارع بكنغهام متوجهاً إلى المحطة. وذكّرني مشهد الشوارع الغاصــة

بالمشترين والمتوهجة بلهب الغاز بهدف رحلتي. اتخذت مقعدي في عربة الدرجة الثالثة من قطار مقفر. وبعد تأخر لا يحتمل تحرك القطار خارجاً من المحطة بطيئاً. وراح يزحف مخترقاً بيوتاً متهدمة عابراً النهر المتلألئ. وعند محطة وستلاندرو احتشد الناس عند أبواب العربات، لكن الحمالين أبعدوهم قائلين إنه قطار خاص بالسوق. وبقيت وحيداً في العربة العارية. وبعد بعض دقائق رسا القطار عند رصيف خشبي مؤقت. خرجت إلى الطريق وعرفت من عقارب الساعة المضاءة أن الوقت قد تجاوز العاشرة بعشر دقائق. وأمامي نهض بناء ضخم يُبرِز الاسم السحري.

عجزت عن إيجاد مدخل بستة بنسات، وخشية أن يغلق السوق أبوابه مررت بسرعة خلال الباب الدوّار وأنا أسلّم شلناً إلى رجل بادي التعب والضجر. ووجدت نفسي في قاعة كبيرة محاطة حتى منتصف علوّها ببهو، وكانت جميع الأكشاك تقريباً مغلقة وقد غرق الجزء الأعظم من القاعة بالظلام. وهيمن صمت شبيه بذاك الذي يشمل الكنيسة بعد أداء طقس الصلاة. مشيت داخلاً مركز السوق يمسّني الخوف.

كان هناك بعض الناس قد تجمعوا حول الأكشاك التي كانت لا تزال مفتوحة، وأمام ستارة مكتوب عليها بأنوار ملّونة عبارة "مقهى موسيقي" وقف رجلان يعدّان نقوداً على صينية. وأنصتُّ لسقوط القطع النقدية.

تذكرت بصعوبة سبب مجيئي فتقدمت من أحد الأكشاك ورحت أنعم النظر بمزهريات الصيني وأطقم الشاي المزينة بالزهور. وعند باب الكشك كانت سيدة شابة تتحدث وتضحك مع شابين. وميّزتُ لكنتهم الإنكليزية ورحت أنصت بإبهام إلى حديثهم.

"أوه، أنا لم أقل أبداً شيئاً من هذا"

"أوه، بل قلت!"

"أوه، بل لم أقلْ!"

"ألمْ تقل هذا؟"

"نعم، أنا سمعتها"

"أوه، إن في الأمر ... أكذوبة!"

ولما رأتني السيدة تقدمت مني وسألتني إن كنت أرغب في شراء شيء. لم تكن نبرة صوتها مشجِّعة. بدت كأنها تتكلم معي بدافع الواجب. نظرت بمذلّة إلى المرطبانات الكبيرة الواقفة كالحرس الشرقي عند كِلا جانبي المدخل المعتم للكشك وغمغمت قائلاً:

"لا، شكراً"

بدّلت السيدة موضع إحدى المزهريات وعادت إلى الشابين. وعادوا يتكلمون في الموضوع نفسه. نظرت السيدة مرة أو اثنتين عبر كتفيها. واتكأت أمام كشكها مع علمي أنه لا فائدة من بقائي، كي أجعل من اهتمامي بسلعها أكثر حقيقة. ثم استدرت ببطء وانحدرت أخترق منتصف السوق. وسمحت للبنسين بالسقوط فوق الستة بنسات الأولى في جيبي. وسمعت صوتاً ينادي من أحد أطراف القاعة معلناً أن الأضواء ستُطفأ، وصار الجزء الأعلى من القاعة غارقاً تماماً بالظلمة.

وبينما أنا أُحدّق في الظلام ألفيتُ نفسي مخلوقاً تجذبه التفاهة وتهزأ به، والتهبتْ عيناي كرباً وغضباً.

إيفلاين

جلست عند النافذة تراقب المساء يغير على الطريق. رأسها محني على ستائر النافذة، وفي خياشيمها عبق الكريتون المغبرّ. كانت مرهقة.

مرّ بعض الناس. مر الرجل الذي يسكن البيت الأخير متجهاً إليه، سمعت وقع خطاه تقرع على الرصيف الإسمنتي، ومن ثم تسحق الدرب الترابي المار من أمام البيوت الجديدة الحمراء التي كان مكانها ذات يوم حقل يلعبون فيه كل مساء مع بقية الأطفال، ثم اشترى الحقل رجل مناسب من بلفاست، وبنى بيوتاً فيه ليست كبيوتهم الصغيرة السمراء، بل بيوتاً آجرية مشرقة ذات سقوف لامعة. كان أولاد الشارع يلعبون في ذلك الحقل – أولاد عائلة ديفان وواتر ودَنْ، وكيو الصغير الأعرج، وهي وإخوتها وأخواتها. أما إرنست فلم يكن يلعب أبداً. كان كبيراً جداً. وكان والدها يجمعهم من الحقل مستعيناً بعصاه ذات النتوء، إلا أن كيو الصغير كان عادة يحفظ عبارة تحذير، حتى إذا رأى والدها آت يُطْلقها، مع ذلك كانوا سعداء آنئذٍ. في ذلك الحين لم يكن والدها بهذا السوء، ثم إن والدتها كانت لا تزال حية. كان هذا منذ زمن طويل، وقد كبروا جميعاً، هي وإخوتها وأخواتها، وماتت أمها. تيزي دن ماتت أيضاً، وعاد آل واتر إلى إنكلترا. كان شيء قد تغيِّر. والآن هي على وشك أن ترحل كالآخرين، ستترك بيتها.

البيت! وجالت بنظرها في الغرفة، تستعرض جميع أغراضها المألوفة التي كانت تنفض عنها الغبار كل أسبوع طوال سنوات، وتتعجب من أين يأتي كل ذاك الغبار.

ربما لن ترى هذه الأغراض بعد الآن التي لم تحلم مرة بأن تفارقها. ومع ذلك فخلال كل تلك السنين لم تعرف أبداً اسم الكاهن المعلقة صورته المصفّرة على الحافظ فوق الهارمونيوم ميري ألكوك. كان صديق أبيها في المدرسة. وكان كلما عرض والدها الصورة على أحد أرفقها بعبارة يكررها:

"إنه الآن في ملبورن".

لقد وافقت على الرحيل، على ترك البيت. هل تصرّفت بحكمة؟ حاولت أن تزن كل جوانب السؤال. مهما يكن، فقد توفّر لها في بيتها المأوى، والطعام. كان حولها مَنْ عرفتهم طوال حياتها. وطبعاً كان عليها أن تقوم بعمل شاق، في البيت ومقر العمل. ماذا سيقولون عنها في المخازن حين سيكتشفون رحيلها مع شاب؟ ربما سيقولون إنها بلهاء وسيشغلون مكانها عن طريق الإعلان. ستفرح الآنسة غافن، فلطالما كانت متشددة معها، خاصة على مسمع من الناس.

"آنسة هيل، آلا ترين أن أولاء السيدات ينتظرن؟."

"كوني نشطة يا آنسة هيل، أرجوك".

إنها لن تذرف الكثير من الدمع لتركها المخازن.

ولكن في بيتها الجديد، في بلدٍ ناءٍ مجهول، لن يكون الأمر مشابهاً. عندئذٍ ستكون متزوجة – هيٍ، إيفلاين. عندئذٍ سيعاملها الناس باحترام. لن تعامل كما كانت تعامل أمها. إنها لا تزال تشعر حتى الآن، وقد تجاوزت التاسعة عشرة من عمرها، بأنها أحياناً معرّضة لخطر قسوة والدها. كانت تعرف أن هذا هو الذي يسبب لها خفقان

قلبها. في سنوات نموها لم يكن يبدي ولعه بها، كما اعتاد أن يبديه لهاري وارنست، لأنها فتاة، إلا أنه بدأ فيما بعد يهددها قائلاً إن ما يفعله لأجلها هو إكراماً للمرحومة أمها. والآن ليس لديها من يحميها. مات إرنست، أما هاري، الذي كان في الكنيسة للقيام ببعض أعمال الزخرفة، فهو دائماً في مكان ما من البلد. ثم إن الشجار الذي لا يتغيّر حول النقود في أمسيات أيام السبت قد بدأ يسئمها دون أن تتفوه بكلمة. كانت دائماً تتخلى عن أجرها كاملاً – سبع شلنات– ويرسل هاري كل ما تيسر، أما المشكلة فهي الحصول على أي مبلغ من والدها. فقد قال إنها تبدّد النقود، وإنه لا عقل لها، وإنه لن يعطيها نقوده التي يكسبها بالكد لتبددها في الشوارع، بل أكثر من ذلك، كان مزاجه يغدو في أسوأ حالاته ليلة السبت. وفي النهاية يعطيها النقود ويسألها إن كانت تنوي شراء غداء يوم الأحد. ثم كان عليها أن تندفع خارجة بأسرع ما يمكنها لتقوم بالمشتريات وهي تمسك بإحكام كيساً جلدياً أسود، وتقتحم طريقها خلال الحشود، ثم تعود إلى البيت مثقلة بأحمالها من المؤن. لقد كان عليها أن تقوم بعمل شاق للمحافظة على ترتيب البيت، ولتطمئن إلى أن الولدين اللذين تُركا في رعايتها يذهبان إلى المدرسة في الوقت المحدد، ويتناولان إفطارهما بانتظام. كان عملاً شاقاً – حياة شاقة – أما الآن وهي على وشك الرحيل فلم تعد ترى أنها حياة مقيتة تماماً.

إنها على أبواب اكتشاف حياة أخرى مع فرانك. فرانك الفائق اللطف، الشجاع، المنفتح القلب، سترافقه في السفينة المسائية لتصبح زوجة وتعيش معه في بوينس آيرس، حيث لديه بيت ينتظرها. إنها تتذكر جيداً أول لقاء لهما، كان يقطن بيتاً في الشارع الرئيسي، وكانت هي تقوم بزيارة. واتضح الأمر بعد بضعة أسابيع. كان يقف

عند البوابة، بقبعته المدببة المتراجعة على رأسه وشعره المتبعثر يظلّل وجهه البرونزي. وبعدئذٍ تعرّفا إلى بعضهما. كان يقابلها بعيداً عن المخازن كل مساء ويوصلها إلى منزلها. أخذها لتشاهد رواية "الفتاة البوهيمية"، وشعر بالابتهاج وهي تجلس معه في القسم غير العادي من المسرح. كان شديد الوله بالموسيقى ويغني عن حسناء تحب بحاراً. كانت تشعر دائماً باضطراب لذيذ. كان يطلق عليها اسم بوبنز على سبيل المزاح. في أول الأمر فرحت لأن لديها صديقاً، ومن ثم بدأت تحبه. كان يحفظ حكايا عن بلدان بعيدة. وقد بدأ حياته كصبي عامل على سفينة مقابل جنيه في الشهر، على سفينة من خط آلان الذاهبة إلى كندا. وسرد عليها أسماء السفن التي عمل على متنها وتفاصيل خدماته المختلفة. وأبحر خلال مضائق ماجلان، وأخبرها قصصاً عن أهالي باتاغونيا المرعبين. قال لها إنه داس بقدميه أرض بوينس أيريس، ومرّ على البلد القديم لقضاء العطلة. وطبعاً اكتشف أبوها الأمر ومنعها من التحدث إليه.

قال: "أنا أعرف أي نوع من الشبان هؤلاء البحارة".

ومرة تشاجر مع فرانك. وبعدها صارت تقابل حبيبها خفية.

وتكثّفت الظلمة في الجادة. وازداد بياض الرسالتين المستقرتين في حجرها: إحداهما موجهة إلى هاري، والأخرى لوالدها. إرنست هو المفضل لديها، لكنها تحب هاري أيضاً. لاحظت مؤخراً أن والدها صار يبدو عليه الكِبرَ، وسوف يفتقدها. أحياناً يمكنه أن يكون طيباً. فمنذ فترة ليست بعيدة، وحين مرضت ذات يوم، راح يقرأ لها قصة عن الأشباح، وصنع لها خبزاً محمصاً على النار. وفي يوم آخر، وكانت الأم لا تزال حية، ذهبوا جميعاً في نزهة إلى هضبة هوث. تذكرت كيف وضع والدها على رأسه قبعة أمها ليضحك الأطفال.

كان الوقت يمر على حسابها لكنها ظلت جالسة قرب النافذة، تميل برأسها على الستارة، تستنشق عبق الكريتون المغبرّ. وسمعت عبر الجادة عن بعد أورغناً يعزف في الشارع. وميّزت اللحن. غريب أن تسمعه هذه الليلة بالذات ليذكّرها بوعدها لأمها، وعدها بأن تجمع شمل البيت أطول مدة ممكنة. تذكرت آخر ليلة من مرض أمها، كأنها عادت إلى الغرفة الضيقة المظلمة الواقعة في الطرف الآخر من الصالة، ومن الخارج تناهي إليها اللحن الإيطالي الحزين. وأمر أحدهم عازف الأرغن أن يذهب وأعطاه ستة بنسات. تذكرت قامة والدها المنتصبة في غرفة المريضة يقول:

"اللعنة على الإيطاليين! وعلى مجيئهم إلى هنا!"

بينما هي تتفكّر ألقى التجليٍّ المحزن لحياة أمها سحره على صميم كيانها – تلك الحياة الملأى بالتضحيات المبتذلة وهي تنتهي بجنون ختامي. ارتعشت حين سمعت من جديد صوت أمها يردد بإصرار أبله [1]Derepaun Seraun! Derepaun Seraun.

نهضت فجأة أثر نوبة رعب. الهرب! يجب أن تهرب! سوف ينقذها فرانك، سوف يهبها الحياة، وربما الحب أيضاً. لكنها أرادت أن تعيش. لماذا تكون تعيسة؟ يحق لها أن تكون سعيدة. سوف يأخذها فرانك بين ذراعيه، سوف يضمها بين ذراعيه. سوف ينقذها.

وقفت وسط الحشد المتلاطم في المحطة في نورث وول. أمسك بيدها وعرفت أنه كان يكلمها، يقول لها شيئاً عن الرحلة مراراً وتكراراً. المحطة ملأى بالجنود بأمتعتهم البنيّة. ولمعت من خلال أبواب السقيفات الواسعة كتلة القارب السوداء واقفة عند جدار الرصيف مضاءة الكوى. ولم تجب. شعرت بشحوب وبرودة وجنتيها إثر ذهول أليم، وصلّت لله كي يهديها، كي يرشدها لما يجب عمله.

وأطلق القارب صفرة طويلة آنّة في الضباب. إذا ذهبت ستكون غــداً وسط البحر مع فرانك متجهة إلى بوينــــس آيــرس. لقــد تقــررت رحلتهما. هل تستطيع التراجع بعد كل ما فعله لأجلها؟ وأثار الغم فــي جسدها غثياناً، وظلت تحرك شفتيها في صلاة صامتة متّقدة.

ورنّ جرس في قلبها. أحسّت به يمسك بيدها:

"تعالي!"

واصطخبت جميع بحار العالم في قلبها. كان يجرّها إلى خضمِّــها. سوف يغرقها. وشدّت قبضتها على الدرابزين الحديدي.

"تعالي!"

لا!لا!لا! مستحيل. وتشبثت يداها بالحديد في هياج. ووسط هـــذه البحار أرسلت صرخة ألم.

"إيفلاين! إيف ... يف!"

واندفع متخبطاً وناداها لتتبعه. ونادوا عليه ليعجـــل، لكنــه ظــل يناديها. وواجهته بوجهها الأبيض، السلبي، كحيوان عاجز. ولم ترسل له عيناها إشارة حب أو وداع أو تعرُّف.

(1) هذا الهتاف الغامض، يقول باتريك هينتشي،إنه تعبير مشوّه عن اللغة الألمانية يعني "الألم هو نهاية المتعة".

بعد السباق

اخترقت السيارات دبلن مندفعة، تسرع بانتظام ككرات صغيرة في أخدود شارع "ناس". وعند قمة التل في أنتشيكور تجمهر المتكهنون في مجموعات ليراقبوا السيارات تنطلق نحو غايتها، بينما حثّت القارة خطاها خلال نفق الفقر والعطالة هذا نحو الثروة والتصنيع. وبين الحين والآخر كانت جموع الناس ترفع عقيرتها بتهليل المضطهدين الممتنّين. على أية حال كان تعاطفهم يميل للسيارات الزرقاء – سيارات أصدقائهم، الفرنسيين.

ثم إن الفرنسيين كانوا المنتصرين الفعليين. أنهى فريقهم السباق بصمود، واحتلوا المرتبتين الثانية والثالثة، وقيل إن سائق السيارة الألمانية الفائزة كان بلجيكياً. لذا، تلقت كل سيارة زرقاء تهليلاً مضاعفاً لدى اعتلائهما قمة التل، وكل صيحة تهليل قابلها سائقو السيارات بابتسامات وإيماءات بالرأس. وفي إحدى تلك السيارات الأنيقات اجتمع فريق من أربعة شبان بدوا متمتعين بروح ترتقي بمستواها في هذا الزمن إلى نزعة غاليّة ناجحة. والواقع أن هؤلاء الشبان الأربعة كانوا في حالة مرح صاخب. كانوا على التوالي شارل سيغوان مالك السيارة، أندره ريفيير، كهربائي شاب كندي الأصل، وهنغاري ضخم يدعى فيلونا، وشاب مصقول بأناقة شديدة

إسمه دويل. كان سيغوان في مزاج حسن لأنه حصل بشكل مفاجئ على أوامر مسبقة (فقد كان على وشك البدء بمشروع مؤسسة موتورات في باريس) وكان ريفيير في مزاج حسن لأنه سيعيّن مديراً لهذه المؤسسة، هذان الشابان (وكانا أبناء عم أيضاً) كانا في مزاج حسن أيضاً بسبب نجاح السيارات الفرنسية، وكان فيلونا في مزاج حسن لأنه تناول غداء دسماً، ثم أنه كان متفائلاً بالفطرة. أما الفرد الرابع من المجموعة فكان أكثر هياجاً من أن يكون سعيداً حقاً.

كان في حوالي السادسة والعشرين من العمر، بشارب رقيق ذي لون بني خفيف وعينين فاتحتين تحملان نظرة بريئة. وكان والده، الذي بدأ حياته كوطني تقدمي، قد كوّن لنفسه آراء في وقت مبكر. كسب نقوده من عمله كلحّام في كينغستاون، ومن ثم ضاعف من أرباحه مرات عديدة بافتتاح فروع له في دبلن والضواحي. وحالفه الحظ أيضاً بحيث ضمن عقد بعض الاتفاقيات مع البوليس، وأخيراً أصبح من الثراء بحيث أشارت إليه صحيفة دبلن باعتباره أمير التجارة. وأرسل ابنه إلى إنكلترا ليتثقف في كلية كاثوليكية كبيرة، ثم أرسله فيما بعد إلى جامعة دبلن ليدرس القانون. لم يدرس جيمي بشكل جدي، بل انخرط في مسالك سيئة لبعض الوقت. لقد كان يملك النقود وكان معروفاً، وقسَّم وقته وياللغرابة بين أوساط موسيقية وأخرى مهتمة بالسيارات. ومن ثم أُرسل ليدرس سنة في كامبريدج للتعرف على القليل من الحياة. وسدّد له والده ــ مبدياً احتجاجه، مخفياً فخَاره بالتبذير ــ ديونه وأعاده إلى بيته. وفي كامبريدج قابل سيغوان. عندئذٍ لم يكونا أكثر من معارف، إلا أن جيمي وجد متعة كبرى في مرافقة شخص رأى بقاعاً كثيرة في أرجاء العالم، ومعروف بامتلاكه بعضاً من أكبر فنادق فرنسا. إن شخصاً كهذا (بموافقة والده) كان يستحق

المعرفة تماماً، حتى ولو لم يكن رقيقاً ساحراً مثله هو. وكـــان فيلونـــا مسلياً أيضاً – لكنه، لسوء الحظ، فقير جداً.

تابعت السيارة سيرها بمرح مع حمولتها من الشباب الصـــاخب. جلس أبناء العم في المقعد الأمامي، وجلس جيمي وصديقه الـــهنغاري في الخلف، ولا شك أن فيلونا كان في حالة ممتازة، وظـــل طـــوال أميال من الطريق يهمهم لحنـــاً بنـــبرة القـــرار، ووزّع الفرنســـيون ضحكهم وكلماتهم المرحة عبر أكتافهم، وغالباً ما كان جيمي يتقـــدّم بجسمه إلى الأمام ليلتقط العبارة السريعة. لم يكن هذا يســـليه بشـــكل عام، فقد كان عليه دائماً تقريباً أن يخمّن برشاقة المعنى المقصـــود، ويطلق جواباً مناسباً في وجه الريح العاتية. ثم إن همهمة فيلونا كانت جديرة بالتشويش على أي إنسان، وكذا ضجيج السيارة.

إن الاندفاع السريع في المسافة الممتدّة تبهج المرء، وكذا يفعل ســـوء السمعة، وكنز المال. وهذه هي الأسباب الثلاثة لمرح جيمـــي. لقـــد رآه كثير من أصدقائه في ذاك النهار بصحبة أولئك القـــاريّين، ومـــن مقعـــد القيادة قدَّمه سيغوان إلى أحد المتسابقين الفرنسيين، وإجابةً على غمغمتـــه المضطربة تذمراً كشف وجه السائق الداكن عن صـــف مـــن الأســـنان البراقة البيضاء. كان من الممتع بعد الحصـــول علـــى ذلك الشـــرف أن يعودوا إلى عالم المشاهدين الدنيويّ وسط نظرات واكزة ذات معنى. أمـــا المال، فقد كان هناك مبلغ ضخم حقاً تحت تصرُّفه. ربما لم ير ســـيغوان أنه مبلغ ضخم، أما جيمي، الذي كان في أعماقه وريث غرائـــز متينـــة، ورغم أخطائه المؤقتة، فهو يعلم جيداً مدى صعوبة جمعه. وقد ســـاعدته معرفته هذه من قبل على الحدّ من عدد فواتيره ضمـــن نطـــاق التـــهوّر المعقول، ولو كان واعياً تماماً للجهد الكامن في المال، في وقت لم يكـــن هناك مجال لجمعه إلا لبعض العباقرة ذوي الذكاء الفائق، فكم كان ســـيحدُّ

منها وهو الآن على وشك أن يخاطر بالجزء الأكبر من ثروته. لقد كان ذلك يشكّل مشكلة جدّية له.

إن توظيف المال شيء جيد طبعاً، وقد نجح سيغوان بالإيحاء بأنه سيضم المبلغ الإيرلندي الضئيل، إكراماً للصداقة، إلى رأس مال المؤسسة. وكان جيمي يكنُّ احتراماً لصرامة والده في مسائل الأعمال، وكان والده هو الذي بادر بتقديم اقتراح التوظيف في هذه المرة، توظيف المال في مجال الموتورات، الكثير الكثير من المال. أكثر من ذلك، كانت تبدو على سيغوان علائم الثراء بشكل لا يخطئ. وانطلق جيمي يترجم هذه السيارة الفخمة التي يجلس فيها إلى أيام من الكدّ. ما أنعم سيرها! ما أروع الأسلوب الذي راحوا ينسابون به على الطريق الريفية! لقد مسَّت الرحلة نبض الحياة الأصيل بإصبع سحري، وجاهدت مجموعة الأعصاب الإنسانية بنبل للإجابة على قفزات الحيوان الأزرق السريع.

اخترقوا شارع ديم، وكان يغصُّ بحركة مرورية غير عادية، تضج بأصوات المزامير العالية للسيارات وأجراس سائقي الحافلات النافذي الصبر. اقترب سيغوان بسيارته من البنك وترجّل جيمي مع صديقه. وتجمَّع حشد صغير من الناس عند العتبة ليؤدوا واجب الإجلال للموتور الهادر. كانت الحفلة ستقام في تلك الليلة في فندق سيغوان، وفي تلك الأثناء، كان جيمي وصديقه سيذهبان إلى المنزل لارتداء ملابسهما. وجرت السيارة ببطء تبغي شارع غرافتن بينما شق الشابان طريقهما خلال الحشد المحدّق. اتجها شمالاً يتملّكهما شعور خيبة الأمل لأنهما راجلان، بينما تدلّي المدينة كرات الضوء الشاحب من فوقهما وسط ضبابة الأمسية الصيفية.

في منزل جيمي أعلن هذا العشاء مناسبة خاصة. هذا الجو كـــان، على الأقل، موجوداً في كبرياء معيَّنة ممزوجة بذعر والديـــه، مـــع بعض اللهفة، أيضاً، لممارسة المكر باسم مدن أجنبية عظيمة. وجيمي أيضاً بدا في أحسن حال بعد أن تهندم. وبينما هو واقف في الصالـــة، يقوم باللمسات الأخيرة على طيات ربطة العنق، لعل والده كان يشـعر بالرضى التجاري لأنه نجح بأن وفَّر لابنه منزلة رفيعـــة غالبـــاً مـــا يعجز المرء عن شرائها. لذا كنت ترى والده ودوداً بشكل غير عادي مع فيلونا، وقد عبَّر مظهره عن احترام حقيقي للمؤسسات الأجنبيـــة، غير أن رقَّة مضيفه كانت تسفح كلها على الهنغاري، الذي بدا شـــديد الرغبة بتناول عشاءه.

كان العشاء رائعاً، بل ممتازاً. وقرر جيمي أن لسيغوان ذوقاً فائق الرهافة. وازداد أعضاء الحفلة بحضور شاب إنكليزي يدعـــى روث، كان جيمي قد رآه برفقة سيغوان فـــي كـــامبريدج. تنـــاول الشـــبان المشارب في غرفة مريحة دافئة تنيرها مصابيح كهربائية على شـــكل شموع، وراحوا يتحدثون مع كثير من المزاح وقليل مـــن التحفُّـــظ. وفهم جيمي، صاحب المخيلة المتقِّـــدة، فتّـــوّة الفرنســـيين الحيويـــة بوجودهما الأنيق ضمن الإطار المحكم لسلوك الإنكليزي. ورأى أنـــها صورة بديعة منه وعادلة. وأعجب بالبراعة التي أدار بـــها مضيفـــه الحديث. كانوا خمسة شبان ذوي أذواق مختلفة وقد انطلقت ألســـنتهم بلا قيد. بدأ فيلونا، وباحترام جم، يكشف للإنكليزي المندهش بـــاعتدال جماليات قصيدة غزلية إنكليزية قصيرة، راثياً غياب الأدوات الشعرية القديمة. وتولَّى ريفيير، ليس ببراعة كافيـــة، الشـــرح لجيمـــي عـــن انتصار المهندسين الفرنسيين. وكاد صوت الهنغاري الرنّان يطغـــي ساخراً من القيثارات الزائفة التي رسمها الرســـامون، حيـــن حـــوّل

سيغوان مجرى الحديث الجماعي إلى السياسة. هنا توفَّر أساس ملائم للجميع. وشعر جيمي، تحت ضغط تأثيرات وافرة، أن حماسة أبيه الدفينة تعود إلى الحياة داخله: أخيراً نجح بإثارة روث المخدَّر. وتضاعفت حرارة الغرفة وازدادت مهمة سيغوان صعوبة كل دقيقة: بل كان هناك خطر من احتقاره لنفسه. ورفع المضيف المنتعش كأسه للهنغاري إحياء لمناسبة ما، وبعد شرب النخب فتح النافذة على مصراعيها.

في تلك الليلة لبست المدينة قناع عاصمة. وتمشى الشبان الخمسة على طول شارع ستيفن غرين وسط غمامة حقيقية من الدخان العطريّ. تحدثوا بصوت عالٍ وبمرح، وأرديتهم تتدلى على أكتافهم. وأفسح الناس لهم الطريق. وعند الركن في شارع غرافتن كان رجل سمين قصير يودع سيدتين أنيقتين داخل سيارة بمعيَّة رجل سمين آخر. انطلقت السيارة مبتعدة ولمح الرجل السمين جميع شباب الحفلة.

"أندره!"

"إنه فارلي!"

تَبعَ ذلك سيل من الأحاديث. كان فارلي أميركياً. لم يعرف أحد عما دار الحديث. كان فيلونا وريفيير هما الأكثر صخباً. لكن الجميع كان مُثاراً. استقلوا إحدى السيارات وانحشروا معاً وسط الضحك. انطلقوا وسط الحشد، وقد امتزجوا الآن بألوان هادئة، وتناغموا كأجراس مرحة. استقلوا القطار من محطة ويستلاندرو وبعد ثوانٍ، كما بدت لجيمي، كانوا خارجين من محطة كينغستن. سلّم جامع التذاكر على جيمي، وكان رجلاً عجوزاً.

"ليلة رائعة، يا سيدي!"

كانت أمسية صيفية صافية، يرقد فيها الميناء كمرآة مظلمة عند أقدامهم. وتقدَّموا نحوه معقودي الأذرع، يغنون "كاديت روسل"، في جوقة، ويضربون أرجلهم على الأرض عند كل:

"هو! هو! هوّه! حقاً!"

وصلوا إلى قارب الجذف عند المنزلق، وجذفوا إلى اليخت الأمريكي. هناك كان متوقعاً أن يمدَّ العشاء، وتصدح الموسيقى، ثم يلعبون الورق. وقال فيلونا باقتناع:

"شيء ممتع!"

في المقصورة كان يوجد جهاز بيانو خاص باليخت. عزف فيلونا فالساً لفارلي وريفيير، فمثَّل فارلي دور الفارس وقام ريفيير بدور السيدة. ثم عزف رقصة رباعية مرتجلة، وابتكر الشبان شخصيات أصيلة. ياله من مرح! قام جيمي بدوره حباً وكرامة، فهذه هي الحياة، على الأقل. ثم انقطع نفس فارلي وهتف "يكفي!" وأحضر رجل عشاءً خفيفاً، وجلس الشبان لتناوله من قبيل المجاملة، وشربوا، على أية حال. لقد كانت ليلة بوهيمية. شربوا نخب ايرلندا، وانكلترا، وفرنسا، وهنغاريا، والولايات المتحدة الأميركية. وألقى جيمي كلمة، خطاباً طويلاً، وعند كل توقف كان فيلونا يقول "اسمعوا! اسمعوا!". وتصاعد تصفيق عظيم بالأيدي حين جلس. لابد أنه كان خطاباً جيداً. ربت فارلي على كتفه وضحك بصوت عال. يا لهم من صحب مرحين! كم كانوا رفاقاً طيبين!

الورق! الورق! ونظَّفوا المائدة. عاد فيلونا بهدوء إلى البيانو وعزف مقطوعات من اختياره. ولعب الآخرون دوراً بعد دور، مندفعين ببسالة للمغامرة. وشربوا نخب صحة ملكة القلوب وملكة الجواهر. وشعر جيمي بشكل غامض بغياب دور النظَّارة: فقد كان

الظُرفُ يومض. واحتدم جو اللعب كثيراً، ووزّعت الأوراق. لم يعرف جيمي تماماً من الذي كان يربح، لكنه علم أنه كان يخسر. غير أنها غلطته، لأنه كان يخطئ في أوراقه، وكان على الآخرين أن يجمعوا له ديونه. كانوا رفاقاً عظيمين، لكنه تمنى لو يتوقفوا: لقد تأخر الوقت. ووزّع أحدهم نخب اليخت (حسناء نيوبورت)، ومن ثم اقترح أحدهم لعبة كبرى كمسك للختام.

كفَّ البيانو عن العزف، فلا بد أن فيلونا قد صعد إلى سطح اليخت. كانت لعبة فظيعة. كفّوا عنها قبل انتهائها ليشربوا نخب الحظ. وعلم جيمي أن اللعب انحصر بين روث وسيغوان. أية إثارة! وجيمي أيضاً كان منتعشاً، وهو سيخسر طبعاً. كم واحداً سجّل؟ ونهض الشبان على أقدامهم ليلعبوا خدعهم الأخيرة، وهم يتحدثون ويومئون. وربح روث. واهتزت المقصورة من هتافات الشبان وجُمعت الأوراق. ثم أخذوا يجمعون ما ربحوا. وكان فارلي وجيمي هما أكبر الخاسرين.

كان يعلم أنه سوف يندم في الصباح، أما الآن فهو سعيد بما تبقّى، سعيد بالخَدَر المظلم الذي سيغطي على حماقته. مال بمرفقيه على المائدة وأراح رأسه بين يديه، وراح يعدُّ نبض صدغيه. فتح باب المقصورة ورأى الهنغاري واقفاً في ممر الضوء الشاحب:

"وطلع الفجر، يا سادة!".

متأنقان

حطَّ المساء الحار الشاحب من آب على المدينة، وحام هواء دافئ معتدل، هو ذكرى الصيف، في الشوارع. وعجَّت الشوارع المغلقة استعداداً ليوم راحة الأحد، بحشد مرح مبهرج الألوان. وشعَّت المصابيح كلآلئ منيرة من ذرى أعمدتها الطويلة على النسيج الحي من تحتها، الذي أرسل، بأشكاله المتغيِّرة وألوانه المتبدِّلة أبداً، همهمة رتيبة، لا تتوقف في هواء المساء الدافئ المغبّر.

هبط شابان تلة رونلاند سكوير. أحدهما كان على وشك إنهاء حديث إفرادي. الآخر، الذي كان يسير على طرف الطريق ويضطر أحياناً للنزول إلى السكة بسبب فظاظة رفيقه، رسم على وجهه سيماء الاستماع والإنصات. كان قصيراً جسيماً ومتورداً. وقد أزاح إلى مؤخر جبينه قبعة بحرية، بينما أخذ الراوي الذي كان ينصت إليه يلوِّح باستمرار معبِّراً عن معاني كانت تغزو وجهة عند زاويتيّ أنفه وعينيه وفمه. وتوالت نوبات قصيرة من الضحك الآزّ، تتتابع منطلقة من جسده المهتز بتشنّج. وكانت عيناه البراقتان باستمتاع ماكر، توزّعان النظرات في كل لحظة إلى وجه رفيقه. ومرة أو مرتين أعاد ترتيب وضع معطف المطر الخفيف الذي كان يدلّيه من إحدى كتفيه على طريقة مصارع الثيران. ودلَّ بنطاله، وحذاؤه المطاطي الأبيض

ومعطفه المدليّ بخفّة على فتوتّه. لكن شكله كان يميل إلى الامتلاء عند الخصر، وكان شعره خفيفاً أشيب، ووجهه، حين تجتاحه أمواج التعابير، ترتسم عليه هيئة هَرِمة.

حين تأكد أن الراوي أنهى حديثه ضحك بصوت مكتوم طوال دقيقة كاملة. ثم قال:

"حسن ... إنها تستحق الحلاوة!"

بدا صوته نقيّاً خالياً من الحياة، ولكي يقوّي من أثر كلماته أضاف بفكاهة:

"تستحق الحلاوة، الفريدة، ولو أستطيع لقلت الـ !recherché"

بعد أن قال هذا أصبح جدّياً واجماً. لقد تعب لسانه، فقد ظل طوال بعد الظهر يتكلم في حانة من شارع دورست. كان معظم الناس يعتبرون لينيهام علَقة، ولكن، رغم سمعته هذه، طالما منعت براعته وطلاقة لسانه أصدقاءه من اتخاذ أية سياسة عامة ضده. كان يتحلى بالشجاعة التي تجعله ينضم إلى حفل يضمهم في بار، وأن يتصرَّف بدهاء، وهو يقترب من الجمع إلى أن يغدو مركز الاهتمام. كان صعلوكاً ساخراً يتسلَّح بمجموعة هائلة من القصص، والقصائد الفكاهية، والألغاز. كان محصّناً ضد كل أنواع الفظاظات. ولم يكن أحد يعلم كيف كان ينجح في إنجاز مهمة العيش القاسية، لكن اسمه كان يقترن بصورة غامضة بنشرات السباق.

وسأل "وأين وقعت عليها، يا كورلي؟"

مرَّر كورلي لسانه على طول شفته العليا بسرعة.

قال: "ذات ليلة، يارجل، كنت متوجهاً إلى شارع دورست فرأيت فجأة قرص حلوى شهي واقف تحت ساعة ووترهاوس، وكما تعلم،

قلت: مساء الخير. وهكذا تمشينا سوية قرب القنال، وقالت لي إنها تعمل خادمة في بيت في شارع باغوت. أحطتها بذراعي وضغطتها قليلاً في تلك الليلة. ثم، يا صاحبي، في يوم الأحد التالي قابلتها حسب موعد محدَّد. خرجنا إلى دوني بر ووك وأخذتها إلى حقل هناك. وأخبرتني بأنها كانت ترافق بائع ألبان ... كان شيئاً رائعاً، يا رجل. كل ليلة كانت تحضر لي سجائر وتدفع أجرة الترام جيئة وذهاباً. وذات أمسية أحضرت لي سيجارين لعينين رائعين – آه، من ذاك النوع الأصلي، كما تعلم، الذي يدخنه سيدها العجوز ... وخفْتُ، يارجل، من أن تحدثني عن تكوين عائلة، ولكن انطلت عليها الخدعة".

قال لينيهان: "ربما تظن أنك ستتزوجها".

قال كورلي: "قلت لها إني عاطل عن العمل. قلت لها: إني أعمل في القوادة. إنها لا تعرف اسمي. كنت أدهى من أن أقول لها. لكنها تعتقد أني من الأكابر، أنت تعلم".

عاد لينيهان يضحك من جديد، بصوت مكتوم.

قال: "من بين كل الجيدات اللواتي سمعت عنهن، هذه أفضلهن حتماً".

عبّرت خطوة كورلي عن فهمه لهذا الاستحسان. وجعله اهتزاز جسم صديقه الضخم يقوم ببعض الوثبات الخفيفة من الرصيف إلى الشارع وبالعكس. كان كورلي ابن مفتش بوليس، وقد ورث بنية أبيه ومشيته. يمشي ويداه إلى جنبيه، وينتصب ويهز رأسه من طرف إلى طرف. رأسه كبير، كروي، ومزيَّت، يتعرَّق في كل الأجواء، وقد بدت قبعته المستديرة الكبيرة الموضوعة عليه مائلة، كأنها بصلة نباتية نبتت من أخرى. كان دائماً يتفرَّس أمامه وكأنه في عرض عسكري، وحين يريد أن ينظر إلى أحد في الشارع، يضطر لتحريك

جسمه من الوركين. في الوقت الحالي هو يجوب البلدة. وكلما توفر له عمل يجد صديقاً دائماً يعطيه كلمة نصوحاً. كان غالباً ما يُرى يمشي مع رجال البوليس بملابس بسيطة، يتحدث برصانة. كان على علم بالجوانب الخفيَّة لكل القضايا، وكان مولعاً بإطلاق الأحكام النهائية. يتكلم دون أن ينصت لمحدثيه. وكان حديثه يدور أساساً حول نفسه: عما قاله للشخص الفلاني وماقاله الشخص الفلاني له، وما قاله هو أخيراً كحسم للمسألة. وحين ينقل هذه الحوارات كان يلفظ الحرف الأول من اسمه على طريقة الفلورنسيين.

قدَّم لينيهان سيجارة لصديقه. وبينما كان الشابان يمشيان وسط الحشد، كان كورلي يتلفت أحياناً ليبتسم لبعض الفتيات المارات. أما نظرة لينيهان فكانت مثّبتة على القمر الكبير الباهت المحاط بهالة مزدوجة. وراقب برصانة مرور نسيج الغسق القاتم عبر استدارته، وأخيراً قال:

"حسن .. قل لي يا كورلي، أظنك ستتدبر أمرك على أحسن مايرام، هه؟".

أغلق كورلي إحدى عينيه بصورة معبِّرة كإجابة.

سأل لينيهان بارتياب "أتظن أنها تخفي لعبة ما؟ إن المرء لا يمكنه فهم النساء".

قال كورلي: "إنها على مايرام، أعرف كيف أسيطر عليها، يا رجل. وهي متعلقة بي قليلاً".

قال لينيهان: "إنك من النوع الذي أسميه لوثاريو المرح، ونوع جيد من اللوثاريو، أيضاً".

خفَّف ظل من السخرية مظهره الخنوع. ولينقذ نفسه كانت لديه عادة ترك إطراءه مفتوحاً للتأويل المازح. لكن كورلي لم يكن يتمتع بذهن حاد.

أكد "لاشيء يؤثر بخادمة جيدة، خذ مني هذه الكلام".

قال لينيهان: "كلام رجل جرَّبهن جميعاً".

قال كورلي، كاشفاً سرّه: "أولاً كنت أرافق فتيات من النوع الـــذي تعرفه، فتيات من الضاحية الجنوبية. كنت أتنزَّه معهن، يا رجل، فـــي الترام في مكان ما وأدفع أجرة الترام أو آخذهـــن لمشـــاهدة فرقـــة موسيقية أو رواية في المسرح. أو أشتري لهن شوكولاه وحلويـات أو شيئاً من هذا القبيل. كنت أنفق النقود عليهن بشكل كاف".

أضاف هذا بنبرة مقنعة، وكأنه كان متأكداً من أن كلامه لا يُصدَّق.

لكن لينيهان صدَّقه تماماً، وأومأ بجدِّية.

قال: "أعرف هذه اللعبة، و هي لعبة مغفَّلة".

قال كورلي: "يلعنني الله إن كنتُ خرجت منها بشيء".

قال لينيهان: "هنا أنا معك".

قال كورلي: "لم أخرج إلا بواحدة منهن".

بلَّل شفته العليا بتمرير لسانه عليـــها. وجعلـــت الذكـــرى عينيـــه تبرقان. هو أيضاً، حدَّق في قرص القمر الشاحب، وقد كاد يحتجـــب، وكأنه يتأمله.

قال متأسفاً: "لقد كانت ... قطعة جيدة".

صمت ثانية، ثم أضاف:

"صارت أعمالها كثيرة الآن. رأيتها تقود سيارة في شارع ايـــرل ذات مساء مع شابين".

قال لينيهان: "وأعتقد أنك السبب".

قال كورلي متفلسفاً: "لقد مرَّ عليها آخرون قبلي".

هذه المرة مال لينيهان إلى عدم التصديق، فهزَّ رأسه أماماً وخلفاً وابتسم.

قال: "أنت تعلم أنك لا تستطيع خداعي، يا كورلي".

قال كورلي: "لا وشرف الله! أتظن أنها لم تخبرني بنفسها؟".

وأومأ لينيهان إيماءة تراجيدية.

قال: "مخادِعَة وضيعة".

وبينما هما يمران من أمام سور كلية ترينيتي، قفز لينيهان إلى الشارع وألقى نظرة إلى الساعة.

قال: "وعشرون دقيقة".

قال كورلي: "مايزال هناك متسع، ستأتي في موعدها. إنني دائماً أتركها لتنتظر قليلاً."

ضحك لينيهان بهدوء.

قال: "جيد، ياكورلي، إنني أعرف كل خدعهن الحقيرة".

قال لينيهان ثانية: "ولكن قل لي، هل أنت واثق أنك تستطيع أن تتدَّبر أمرك كما يجب؟ أنت تعرف كم هي مهمة متعبة. وهن متشابهات بشكل لعين في هذه النقطة، هه؟ .. ما رأيك؟".

بحثت عيناه الصغيرتان البراقتان في وجه رفيقه للتأكد. هزَّ كورلي رأسه أماماً وخلفاً كأنما يعمل على إبعاد حشرة ملحاحة، وتقارب حاجباه.

قال: "سأنهي الأمر بنفسي، ألا تدعني وشأني؟".

لم يضف لينيهان شيئاً. لم يشأ أن يكدِّر صفو مزاج صديقه، كيلا يقال له اذهب إلى الشيطان. إن نصيحتك غير مرغوب فيها. قليل من اللباقة مطلوب. ولكن سرعان ما انبسط جبين كورلي ثانية. لقد كانت

أفكاره تجري في مسار آخر.

قال باستحسان: "إنها تورتة رائعة فخمة. هي كذلك حقاً".

تابعا سيرهما في شارع ناس ثم انعطفا إلى شارع كيلدير. وليس بعيداً عن رواق النادي وقف عازف قيثارة على الرصيف. يعزف لحلقة من المستمعين. كان ينقر على الأوتار بإهمال، ويلقي نظرات سريعة أيضاً على وجه كل قادم جديد، وفي حين آخر يلقي بنظرات ضجرة إلى السماء. وقيثارته أيضاً، المهملة بحيث سقط غطاؤها عنها إلى ركبتيها، بدت ضجرة بدورها من عيون الغرباء ومن يدي سيدها. كانت إحدى اليدين تعزف قرار لحن (صمتاً ياموبل)، بينما أخذت اليد الأخرى تمرُّ على الوتر الثلاثي بعد كل مجموعة من الأنغام. وبدت أنغام الجو عميقة وغنية.

مشى الشابان في الشارع دون كلام، تتبعهم الموسيقى الحزينة. وحين وصلا إلى موقع ستيفن غرين عبرا الشارع. هنا حرَّرهما ضجيج الحافلات والأضواء والحشد من صمتهما.

قال كورلي: "ها هي!".

عند زاوية شارع هيوم وقفت امرأة شابة. كانت ترتدي ثوباً أزرق وتعتمر قبعة بحرية بيضاء، وقد وقفت على حجر حافة الرصيف، تهز مظلة بيد. ودبَّت الحيوية في لينيهان.

قال: "دعنا نلقي نظرة عليها، يا كورلي".

ألقى كورلي نظرة جانبيه على صديقه وظهرت على وجهه تكشيرة كريهة.

سأل "أتنوي خداعي؟".

قال لينيهان بوقاحة: "اللعنة! لا أريد أن تقدمني إليها. كل ما أريد هو أن ألقي عليها نظرة. لن آكلها".

قال كورلي بودّ أكثر: "آه ... مجرد نظرة؟ حسن ... سأقول لك ماذا تفعل سأتقدم وأحدّثها ويمكنك أن تمر".

قال لينيهان: "عظيم!".

وما كاد كورلي يضع رِجْلاً عبر حاجز السلاسل حتى هتف له لينيهان:

"وبعد ذلك؟ أين سنتقابل؟"

أجاب كورلي، ماداًّ ساقه الأخرى: "في العاشرة والنصف".

"أين؟"

"عند زاوية شارع مريون. سنكون عائدَيْن"

"قُم بعملك كما يجب الآن" قالها لينيهان مودّعاً.

لم يجب كورلي. ومشى بخطى وئيدة عابراً الشارع هازّاً رأسه من جنب إلى جنب. كان في جذعه، وفي خطوته المتمهّلة، وفي صوت حذائه القوي، شيء يذكر بغازٍ منتصر. اقترب من الصبيّة، وبدأ على الفور، ودون أن يحيّيها، حديثه معها. هزّت مظلتها بسرعة أكبر وقامت بنصف استدارة على عقبيها. وبينما هو يحدثها من مسافة قريبة ضحكت مرة أو مرتين وأحنت رأسها.

راقبهما لينيهان لبضع دقائق، ثم أسرع خطاه متابعاً على طول السلاسل، وعلى بعد مسافة منهما قطع الشارع منحرفاً. حين اقترب من زاوية شارع هيوم وجد أن الهواء مثقل برائحة قوية، وقامت عيناه بتفحّصٍ قلق سريع لمظهر الفتاة الشابة. كانت ترتدي ملابس يوم الأحد المبهرجة، وتنورتها السميكة الزرقاء مشدودة عند الخصر بحزام من الجلد الأسود. بدا إبزيم حزامها الفضي الكبير كأنه يعصرها من منتصفها، قابضاً على قماش بلوزتها الخفيف الأبيض كمشبك. كانت ترتدي جاكيتاً قصيراً أسود ذا أزرار من اللآلئ، مع لفاع طويل من جلد الأفعى الأسود. وكانت ياقة حرير التول مشوّشة

الأطراف بدّقة، وقد شبَكت باقة من الزهور الحمراء إلى صدرها وجّهت سيقانها إلى أعلى. ولاحظت عينا لينيهان باستحسان جسمها المفتول القصير الممتلئ. وتوهَّجت صحتها الخام الصريحة في وجهها، وتبدَّت على وجنتيها الممتلئتين الحمراوين وفي عينيها الزرقاوين الوقحتين. كانت قسماتها بليدة، فتحتا منخريها كبيرتان، وفمها الشارد مفتوح بطريقة خبيثة مسرورة، برز منه سنّان نانئتان. حين مر بهما رفع لينيهان قبعته، وبعد مضّي حوالي عشر ثوانٍ ردَّ كورلي التحية في الهواء. فعل ذلك بأن رفع يده بصورة غامضة وبدّل زاوية وضع قبعته وهو مستغرق في التفكير.

مشى لينيهان حتى فندق شيلبورن، وهناك توقف وراح ينتظر. بعد أن انتظر بعض الوقت رآهما آتيان صوبه، وحين انعطفا جهة اليمين تبعهما، وهو يمشي بخطى خفيفة بحذائه الأبيض، على أحد أطراف ساحة مريون. وبينما تابع سيره البطئ، موقّعاً خطوته على خطاهما، راح يراقب رأس كورلي الذي كان يستدير كل برهة إلى وجه المرأة الشابة ككرة ضخمة تدور حول محور. وعمل على أن يظل الثنائي ضمن مجال بصره إلى أن رآهما يصعدان درج حافلة دوني برووك، ثم استدار على عقبيه وعاد من حيث أتى.

حين بقي وحيداً بدا وجهه أكبر سناً، وتخلى مرحه عنه. وحين اقترب من ديوكزلوْن ترك يده تمر على سوره. وبدأ اللحن الذي عزفه عازف القيثارة يسيطر على حركاته. ووقّعت قدماه اللحن بهدوء، بينما أخذت أصابعه تربت تنويعات متمهّلة على طول السور بعد كل مجموعة من الأنغام.

مشى بتوانٍ حول موقع ستيفن غرين، ثم انحدر إلى شارع غرافتن. ورغمَ أن عينيه سجلتا كثيراً من عناصر الحشد الذي كان

يمر خلاله، إلا أنهما فعلتا ذلك بكآبة. ووجد في ما كان مفروضاً أن يفتنه أشياء تافهة، ولم يتجاوب مع النظرات التي شجّعته. كان يعرف أنه سيضطر لأن يتكلم كثيراً، ويلفّق ويسليّ، وكان ذهنه وحنجرته من الجفاف بحيث يعجز عن أداء المهمة. وأزعجه قليلاً التفكير في كيفية قضاء الساعات المتبقّية ليقابل كورلي مرة أخرى. ولم تخطر على باله طريقة لتمضيتها بها إلا بمتابعة المشي. استدار إلى اليسار حين أتى زاوية ساحة روتلاند، وشعر بارتياح أكبر في الشارع المظلم الهادئ الذي ناسب مظهره مزاجه. أخيراً توقف أمام واجهة محل بائس المظهر، طبعت فوقه الكلمتان "حانة مرطبات" بحروف بيضاء. وعلى زجاج الواجهة كُتبت عبارتان. "بيرة الزنجبيل" و"جعة الزنجبيل". وعُرِضَت شرائح لحم الخنزير في صحن أزرق كبير الحجم، بينما استلقى مقطع من كعكة الخوخ الخفيفة في صينية إلى جانبها. رمق هذا الطعام برصانة لبعض الوقت، ثم، بعد أن ألقى نظرة حذرة إلى جهتيّ الشارع، دخل المحل مسرعاً.

كان جائعاً، فعدا بعض البسكويت التي استجداها من قسّين متذمرين، لم يتناول أي شيء منذ الإفطار. جلس إلى مائدة خشبية مكشوفة تقابل فتاتين عاملتين وميكانيكي. وأتت فتاة فاسقة الهيئة تخدمه.

سألها: "كم يكلف صحن الفاصولياء؟".

قالت الفتاة "ثلاثة أنصاف البنس، ياسيدي".

قال: "أحضري لي صحن فاصولياء، وقنينة من بيرة الزنجبيل".

كلّمها بلهجة خشنة كي يلفّق حوله جواً من الكياسة، فقد رافق دخوله صمت عن الحديث. احمرّ وجهه. ولكي يبدو طبيعياً أرجع قبعته إلى الخلف من رأسه وزرع مرفقيه على المائدة. تفحّصه

الميكانيكي والفتاتان العاملتان قطعة قطعة قبـل أن يتـابعوا حديثـهم بصوت ملطّف. أحضرت له الفتاة صحناً مـن الفاصوليـاء المعلّبـة الحارة، متبَّلة بالفلفل والخل، مع شوكة وما طلبه من بيرة الزنجبيـل. ازدرد طعامه بشراهة، ووجده جيداً جداً حتى أنه علّـم المحـل فـي ذهنه. بعد أن أتى على كل الفاصولياء رشف بيرة الزنجبيل وجلـس لبعض الوقت يفكر في مغامرة كورلي. وبعين خياله رأى العاشـقين يسيران على طول طريق مظلم، وسمع صوت كورلي عميقـاً يفـوه بتودداته الفعَّالة، ورأى من جديد ارتخاء فم المرأة. هذه الرؤية جعلتـه يشعر بحدَّة بفقر جيبه وروحه.

لقد ملَّ التسكع، و العبث بذيل الشيطان، والانتقالات والمكائد. فـي تشرين الثاني سيبلغ الحادية والثلاثين. ألن يحصل أبداً علـى عمـل طيِّب؟ ألن يكون له بيت خاص به أبداً؟ فكَّر كم سـيكون ممتعـاً أن يكون لديه نار دافئة يجلس بالقرب منها، وعشاء لذيذ يتناولـه. لقـد جاب بما يكفي الشوارع مع أصدقاء وفتيات. وعـرف مـا يسـاويه أولئك الأصدقاء، وقيمة الفتيات أيضاً. لقد قسَّمت التجربة قلبـه فـي وجه العالم. لكنه لم يتخلّ عن كل الأمل. شعر بتحسُّن بعد الأكل لـم يشعر به قبله، بات أقل ضجراً من حياته، وروحـه أقـل إحباطـاً. لاتزال أمامه فرصة ليستقر في ركن مستكن ويعيش سعيداً لو صادف فتاة بلهاء طيبة مع قليل من المال الجاهز.

دفع بنسين ونصف للفتاة الفاسقة، وغادر المحل ليبدأ تجواله مـن جديد. دخل شارع كيبل وتابع نحو قاعة المدينة. ثـم انعطـف إلـى شارع ديم. عند زاوية شارع جورج قابل اثنين من أصدقائه، ووقـف ليتحدث معهما. وأسعده أن يرتاح من كل ذاك المشي. سأل صديقـاه إن كان قد رأى كورلي وعن آخر أخباره. وأجاب بأنه قضى يومـه

مع كورلي. تحدث صديقاه قليلاً. راحا ينظران نظرات فارغة إلـــى قامات وسط الحشد، وألقيا بعض الملاحظات الانتقادية. قال أحدهمـــا إنه قابل ماك قبل ساعة في شارع ويستمورلاند. وأجاب لينيهان علـى هذا بالقول إنه كان مع ماك في الليلة الفائتة في محل إيغان. وســـأل الشاب الذي رأى ماك في شارع ويستمورلاند إن كـــان صحيحـــاً أن ماك ربح في لعبة البليارد. لينيهان لا يعـــرف: قـــال إن هيولوهـــان استوقفهما لشرب شيء في حانة إيغان.

ترك صديقيه عند الساعة العاشرة إلا ربع، وتوجه إلى شـــارع جورج. انعطف إلى اليسار عند منطقة أسواق المدينة، وتابع سيره إلى شارع غرافتن. خفَّ احتشاد الشباب والشابات، وسمع وهو في طريقه إلى الشارع المذكور مجموعات كثيرة وأزواجاً يتبـــادلون تحيات الوداع. ظل يمشي حتى ساعة كلية الجراحين: كانت تـــدق الدقة الأخيرة من العاشرة. وانطلق بخفّة علـــى طـــول الجـــانب الشمالي من شارع غرين، مسرعاً مخافة أن يعود كورلي مبكـــراً. حين وصل إلى زاوية شارع مريون اتخذ لـــه موقفـــاً فـــي ظـــل المصباح، وأخرج إحدى السجائر التي كان قد وفَّرهـــا وأشـــعلها. مال على عمود النور وثَّبت نظرته على الجزء الذي توقّع أن يرى منه كورلي والصبية عائدَين.

نشط عقله من جديد، وتساءل إن كان كورلي قد نجح في مســـعاه. وتساءل إن كان قد طلب منها مايريد أم إنه سيترك هذا إلـــى آخـــر الأمر. وعانى كل نبضات وإثارات وضع صديقه إلـــى جـــانب كـــل معاناته هو. لكن ذكرى رأس كورلي الدائر ببطء أسكن من غلوائـــه قليلاً. لقد كان واثقاً من أن كورلي سيحسن التصرف. وفجأة خطر لـــه أن يكون كورلي قد أوصلها إلى بيتها من طريق أخرى وفرّ هاربـــاً

منه. فتشت عيناه الشارع: لا أثر لهما. ولكن مما لاشك فيه أنه مرت نصف ساعة على رؤيته ساعة كلية الجراحين. أيفعل كورلي شيئاً كهذا؟ أشعل آخر سيجارة بحوزته وأخذ يدخن بعصبية. وكان كلما توقفت حافلة يستنفر عينيه جهة الزاوية القصوى للساحة. لابد أنهما ذهبا إلى البيت من طريق أخرى. انفلشت ورقة السيجارة، فرماها إلى الطريق وهو يسب.

فجأة رآهما قادمين نحوه. فطفر من البهجة، وحاول أن يقرأ النتيجة من مشيته وهو ملتصق بعمود الكهرباء. كانا مسرعين، المرأة بخطاها القصيرة السريعة، بينما تابع كورلي مشيته إلى جانبها بخطوته الواسعة. لم يبد أنهما كانا يتكلمان. ووخزته معرفته بالنتيجة كآلة حادة: كان يعرف أن كورلي سيفشل، كان يعلم أن العملية لن تنجح.

انحدرا إلى شارع باغوت، وتبعهما من فوره، متخذاً الطرف الآخر من الطريق. وحين توقفا توقف هو أيضاً. تحدثا لبعض لحظات ومن ثم هبطت المرأة درجاً إلى ساحة أحد البيوت. ظل كورلي واقفاً عند طرف الطريق، على بعد غير قليل من الدرج الأمامي. ومرت بضع دقائق. ثم فتح باب الصالة ببطء وحذر. وأتت امرأة مسرعة تهبط الدرج الأمامي وسعلت. استدار كورلي واتجه صوبها. وأخفت قامته العريضة قامتها عن مجال الرؤية لبضع لحظات ثم عادت للظهور وهي تهرع صاعدة الدرج. وانغلق الباب خلفها، وبدأ كورلي يمشي مسرعاً نحو ساعة ستيفن غرين.

استعجل لينيهان بالاتجاه نفسه. سقطت بعض قطرات من المطر اعتبرها كعلامة تحذير، وبعد أن ألقى نظرة سريعة خلفه باتجاه البيت الذي دخلته المرأة ليرى إن كان أحد يراقبه، هرع بشوق يعبر الشارع. وبفعل القلق والركض السريع أخذ يلهث. وهتف:

"هالو، كورلي!".

أدار كورلي رأسه ليرى من ينادي عليه، ومن ثم تابع سيره كما كـــان. ركض لينيهان خلفه، معدّلاً وضع معطف المطر على كتفه بيد واحدة.

هتف من جديد "هالو، كورليّ"

وأصبح بموازاة صديقه ونظر إلى وجهه بحدّة. ولم يتمكـــن مـــن رؤية شيء.

قال: "حسن؟ هل نجحت؟"

وصلا إلى زاوية حارة إيلي، ودون أن يعطيه جواباً التوى كورلي إلى اليسار ودخل الشارع الجانبي. كانت قسماته متماسكة في هـــدوء رصين. وتابع لينيهان صديقه، وهو يلهث من الإنزعاج. إنه محتـــار، وخرقت صوته نبرة تهديد.

قال: "ألا تقول لنا؟ هل جرّبتها؟"

توقف كورلي عند أول مصباح وحدّق بعبوس أمامـــه. وبإيمـــاءة جادّة مدَّ يداً نحو النور ثم، ابتسم، وفتحها ببطء أمام تحديـــق تلميـــذه. وفي كفِّه لمعت قطعة نقود صغيرة ذهبية.

[1] لوثاريو المرح: صفة للفاسق اللعوب، قاسي القلب. وردت في أكثر من عمل أدبي، في "دون كيخوته"، وفي "فيلهلم مايستر" لـــ غوته.

المثوى العام

كانت السيدة موني ابنة لحَّام، امرأة قادرة تماماً على إدارة أمورها بنفسها: امرأة عازمة. كانت قد تزوجت كبير عمال أبيها، وافتتحت محل لحامة بالقرب من حدائق سبرينغ. ولكن ما إن توفي حموه حتى بدأ السيد موني يعاشر الشيطان. صار يعاقر الخمر، وسلب درج النقود، وغرق حتى رأسه في الديون. ولم يكن من المفيد أخذ تعهُّد منه بعدم الاقتراب من الخمر، إذ إنه كان حتماً سيخرق قَسَمه من جديد بعد أيام قليلة. وأفسد أعماله بمشاجرة زوجته في حضور الزبائن وبشراء اللحم الفاسد. وذات ليلة دخل على زوجته وهدَّدها بساطور، واضطرَّت للمبيت عند الجيران.

بعد ذلك انفصلا. ذهبت إلى الكاهن وحصلت منه على إذْن بالانفصال، مع الاحتفاظ بالأولاد. ولم تدفع له نقوداً ولا تكفَّلت بتقديم أي طعام له ورفضت أن تؤويه، وأُجبِرَ على أن يصبح طريداً من الشرطة. لقد كان سكيراً حقيراً رثّاً محدودب الظهر ذا وجه شاحب وشارب أبيض وحاجبين أبيضين، مرسومين فوق عينيه الصغيرتين المعروفتين باللون القرمزي والقاسيتين، يجلس طوال النهار في غرفة الشريف، بانتظار أن يجد له عملاً. وأخذت السيدة موني ما بقي لها من نقود مهنة اللحامة، وأنشأت مثوى عاماً في شارع هارديك. لقد

كانت امرأة ضخمة مهيبة. وكان نزلاء المثوى من العابرين، يتألفون من السياح القادمين من ليفربول وجزيرة مَانْ، وأحياناً من فناني الإاستعراضات الموسيقية. أما النزلاء المستقرون فكانوا من موظفي المدينة. وقد أدارت المنزل بمهارة وحزم، عارفة متى تمنح ثقتها، ومتى تتشدَّد ومتى تترك الأمور تسير. وكل النزلاء الشبان كانوا ينادونها بـ المدام.

كان شبان السيدة موني يدفعون خمسة عشر شلناً للأسبوع مقابل الوجبة والمبيت (باستثناء البيرة أو جعة الستوت عند العشاء). كانوا يشتركون في الأذواق والمهن، ولهذا السبب كانوا متآلفين جداً مع بعضهم. كانوا يتناقشون معاً حول الفرص المتاحة للمفضَّلين والغرباء. وكان لجاك موني، ابن المدام، والموظف في وكالة عامة في شارع فليت، سمعة تقول إنه حالة صعبة. كان مولعاً بنكات الجنود البذيئة، وكان يعود عادة في الساعات الأولى من الصباح. وحين يقابل أصدقاءه تكون لديه دائماً واحدة يلقيها عليهم، وكان يحرص دائماً على أن تكون حول شيء جيد – أي أن تدور حول حصان أو فنان. كان دائماً حاضر البديهة في إلقاء القفشات وغناء الأغاني الفكاهية.

وفي أمسيات أيام الآحاد يلتئم الشمل في مثوى السيدة موني في قاعة الاستقبال الأمامية. ويتنازل فنانو الاستعراض الموسيقي بالحضور، ويعزف شيريدان الفالسان والبولكا وأشياء أخرى مغرية. وتشارك بولي موني، ابنة المدام، الغناء، فتقول:

أنا ... فتاة سيئة.

لا داعي للخجل:

أنت تعرف أني كذلك.

وبولي فتاة نحيلة في التاسعة عشرة، شعرها خفيف ناعم وفمها ممتلئ صغير. عيناها، الرماديتان مع القليل من الاخضرار، لهما عادة النظر إلى أعلى حين تتحدث إلى أي إنسان، مما يجعلها تبدو نسخة مصغّرة عن مريم عذراء فاسقة. في أول الأمر أرسلت السيدة موني ابنتها لتتعلّم الضرب على الآلة الكاتبة في مكتب معمل للذرة، ولكن حين صار أحد رجال الشريف السيئي السمعة يتردد على المكتب، ويتعلّل لمقابلة الفتاة بأنه يريد أن يقول لها كلمة يوماً بعد يوم، أخرجتها أمها وأعادتها إلى البيت لتقوم بأعمال المنزل. ولما كانت بولي مفعمة بالحياة قررت أن تولّيها أمر تلبية شؤون الشبان، لكن السيدة موني، الخبيرة الداهية، كانت تعرف أن الشبان إنما يبغون تزجية الوقت. لا أحد منهم كان ذا نيّة جدّية. واستمر الحال هكذا لبعض الوقت، وبدأت السيدة موني تفكر في إرسال بولي مرة أخرى لتتعلم الضرب على الآلة الكاتبة، لكنها لاحظت أنها على علاقة بأحد الشبان. فراحت تراقبها وبيّتت خطة ما في نفسها.

عرفت بولي أنها مراقبة، لكنها مع ذلك لم تكن غافلة عن أن وراء صمت أمها المستمر شيئاً. ولم تكن هناك مشاركة صريحة بين الأم وابنتها، ولا تفاهم صريح، ورغم أن نزلاء المثوى كانوا قد بدأوا يتكلمون حول العلاقة الغرامية، إلا أن السيدة موني ظلت بعيدة عن أي تدخل, وبدأ شكل بولي يغدو غريباً، وبدا القلق واضحاً على الشاب. وأخيراً، حين رأت أن اللحظة الحاسمة قد أزفت تدخّلت السيدة موني. تناولت المشاكل الأخلاقية كما يتعامل الساطور مع اللحم. وقرّ قرارها حول هذه القضية.

كان صباحاً باكراً برّاقاً من يوم أحد صيفيّ، ينبئ بالحر، ولكن مع بعض النسمات المنعشة. كانت جميع نوافذ المثوى مشرّعة،

والستائر المخرّمة تنتفخ برقّة نحـو الشـارع تحـت أُطُـر النوافـذ المرتفعة. وأرسل برج كنيسة جورج جلجلة أجراس متواصلة، وعَـبَر مصلّون، أفراداً وجماعات، المساحة الدائرية الصغيرة أمام الكنيسـة، كاشفين عن هدفهم بسلوكهم المنضبط فضلاً، عما توحي بـه الكتـب الصغيرة التي تحملها أيديهم ذات القفازات. كان وقت الإفطـار قـد انتهى في المثوى، والمائدة في غرفة الإفطار مملوءة بصحون فيـها قطع البيض الصفراء مع لقيمات من دهن البيكون وقشوره. وجلسـت السيدة موني على كرسي القش وراحت تراقب الخادمة وهي تزيـل بقايا الإفطار. وأمرت ماري أن تجمع قطع وكسرات بقايا الخبز مـن أجل استخدامها في صنع فطيرة الخبز ليوم الثلاثاء. وبعـد تنظيـف المائدة، وجمع فتات الخبز، والإغلاق على السـكر والزبـد بـالقفل والمفتاح، بدأت تعيد تركيب الاستجواب الذي أجرته في الليلة الفائتـة مع بولي. لقد كان الوضع كما تصوّرته. كانت هـي صريحـة فـي أسئلتها وكانت بولي صريحة في إعطاء أجوبتـها. وكلاهمـا كانتـا مرتبكتين، طبعاً. كانت هي مرتبكة بسبب عدم رغبتها باستقبال النبـأ بطريقة شهمة جداً أو بأن تبدو متواطئة، وكانت بولي مرتبكة ليـس فقط لأن أوهاماً من هذا النوع دائماً تربكها، بل أيضاً لأنها لا تريد أن يُظن أنها وهي البريئة العاقلة قد خمّنت ما تخفيه أمها خلف تسامحها.

ألقت السيدة موني نظرة غريزية على الساعة الصغـيرة المذهّبـة الموضوعة على رفّ المدفأة حالما بدأت تعي من خلال شـرودها أن أجراس كنيسة جورج قد توقفت عن القرع. كان الوقت هـو الحاديـة عشرة وسبع عشرة دقيقة، سيكون لديها متسع كبير من الوقت لتسـوّي المسألة مع السيد دوران، ومن ثم تسرع إلى شـارع مـارلبورو فـي الوقت المتبقّي قبل الثانية عشرة. كانت متأكدة من النجاح، فقبـل كـل

شيء ثمة إلى جانبها كل ثقل الرأي العام: إنها أم غاضبة. لقد سمحت له بالدخول تحت سقف بيتها مفترضة أنه رجل شريف، وهو ببساطة أساء استغلال حسن ضيافتها. كان في الرابعة أو الخامسة والثلاثين من عمره، لذا لا يمكن أن تقبل كونه شاباً صغيراً كعذر، ولا الجهل أيضاً، فهو رجل جرّب العالم. إنه ببساطة استغل شباب بولي وتجربتها، هذا واضح. والسؤال المطروح هو: ماذا يفعل ليصلح الأمر؟

لابد أن توجد وسيلة لإصلاح الأمر في هذه الحال. إن الأمر سيان بالنسبة للرجل. فهو يستطيع متابعة حياته وكأن شيئاً لم يكن، طالما حصل على برهة المتعة التي يريد، أما الفتاة فعليها أن تحمل الوزر الأعظم. بعض الأمهات قد يرضين لتسوية القضية بمبلغ من المال، وهي تعرف حالات كهذه. ولكنها ليست مِمَّن يفعلن هذا. بالنسبة لها ليس هناك سوى حل واحد يعوّض عن ضياع شرف ابنتها: الزواج.

عدَّت جميع أوراقها مرة أخرى قبل أن ترسل ماري إلى السيد دوران في الطابق العلوي لتقول له إنها تريد أن تتحدث إليه. كانت واثقة من النجاح. إنه شاب جاد، وليس خليعاً عالي الصوت كالآخرين. لو كانت المشكلة وقعت مع السيد شيريدان أو السيد ميد أو بانتام ليونز، لكانت مهمتها أصعب. لم تكن تظن أنه سيعمل على مواجهة الرأي العام. إن كل نزلاء المثوى يعرفون شيئاً عن القضية، وبعضهم اخترع تفاصيل لها. ثم إنه موظف في مكتب كاثوليكي لتجارة الخمور منذ ثلاث عشرة سنة، والتعرض للرأي العام بالنسبة له قد يعني فقدان عمله. أما إذا وافق فكل شيء سيسير على أحسن مايرام. كانت تعلم أن مقدار راتبه جيد، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى خمَّنت أنه يدَّخر مبلغاً صغيراً للمستقبل.

بلغت الساعة منتصفها! وقفتْ وأَجْرت مسحاً لنفسها في مرآة الحائط. وأعجبها التعبير الحازم المرتسم على وجهها الضخم

المتورد، وراحت تفكر بأمهات تعرفهن لم يعرفـــن كيــف يصرّفــن بناتهن من بين أيديهن.

كان السيد دوران شديد القلق حقاً في هذا الصباح الأحــديّ. قــام بمحاولتين للحلاقة، لكن يد ه كانت شديدة الاضطراب حتى اضطـــر للتخلي عنها. لحية الثلاثة أيام المائلة للاحمرار تـــبرز علـــى طـــول فكّيه، وكل دقيقتين أو ثلاث يتشكل البخار علــــى نظارتيـــه بحيـــث يضطر لخلعهما وتنظيفهما بمنديل الجيب. إن ذكرى اعتراف الليلـــــة الفائتة كانت تسبب له ألماً مبرحاً. لقد انتزع الكاهن منه كل تفصيــــل سخيف حول القضية، وفي النهاية عظّم له إثمه حتى شكر ربه لأنـــه مُنِحَ منفذاً للتكفير. إن المحظور قد وقع. ماذا عساه أن يفعل غـــير أن يتزوجها أو يهرب؟ لم يستطع مواجهة الأمر بتحدٍ. ســـينفضح أمـــره ويتحدثون عنه، وحتماً سيسمع مخدومه عنه. دبلن مدينة صغيرة جداً، وكل إنسان يعرف عمل كل إنسان آخر. شعر بقلبه يطفر من الإنفعال إلى حنجرته وهو ينصت في مخيلته إلى العجـــوز ليونـــارد ينـــادي بصوته المزعج:

"أرسل لي السيد دوران إلى هنا، من فضلك".

كل سنوات خدمته الطويلة ذهبت هباء! كل كدّه وعرقه ضـــاع! لا يستطيع أن ينكر أنه وهو شاب صغير زرع بنفسه بذور الشر. لقـــد تفاخر بتفكيره الحر، وأنكر وجود الله جـــهاراً أمـــام أصدقائـــه فـــي الحانات. لكن كل هذا قد مضى واندثر ... تقريباً. إنه ما يزال يشتري نسخة من صحيفة رينولدز كل أسبوع، لكنه ملتزم بواجباته الدينيـــة، وهو يعيش تسعة أعشار عامه حياة نظامية. إن لديه ما يكفـــي مـــن المال ليستقر، ولكن ليست هذه هي المشكلة. سوف تحتقرها العائلـــة. فأولاً هناك أبوها سيء السمعة، ثم أمها ومثواها قد بـــدءآ يكتســـبان

سمعة معينة. إنه يشعر بأنه قد استُغِل. يتخيل أصدقاءه وهم يتحدثون عن قضيته ويضحكون. إنها ولا شك سوقية قليلاً، وأحياناً تقول: "أنا راثية" و "لو أني قد أرى'"، ولكن ماذا تهمّ القواعد اللغوية إذا كان يحبها حقاً؟ لم يستطع أن يقرر هل يحبها أو يحتقرها بسبب ما فعلت معه. وطبعاً هو مشارك فيما حدث أيضاً. ألحّت عليه غريزته كي يبقى حراً، ولا يتزوج. فقد قيل: إذا تزوج المرء فقد انتهى.

وبينما هو جالس بلا حول ولا قوة على طرف السرير بالقميص والبنطال، طرقت على الباب برقة ثم دخلت. أخبرته بكل شيء، بأنها أفضت بكل شيء إلى أمها، وأن أمها تريد أن تتحدث إليه في ذلك الصباح. وبكت وطوّقته بذراعيها، قائلة:

"آه، بوب! بوب! ماذا سأفعل؟ ماذا يسعني أن أفعل؟"

وقالت إنها ستضع حداً لحياتها.

وواساها بوهن، قائلاً لها أن لا تبكي، وبأن كل شيء سيكون على مايرام، وأن لا تخشى شيئاً. وشعر بخفقان صدرها على قميصه.

إن ماحدث لم يكن كله خطأه. إنه يتذكر تماماً، بذاكرة العازب الفضولية الصبورة، أول مداعبات عابرة من ثوبها، وأنفاسها، وأصابعها له. وفي وقت متأخر من ذات أمسية بينما كان يخلع ثيابه استعداداً للإيواء إلى السرير، دقت عليه بابه، بخوف. أرادت أن تعيد إضاءة شمعتها من شمعته، لأن شمعتها انطفأت من هبة هواء. كانت تستعد لحمامها المسائي. وكانت ترتدي جاكيتاً للتسريح من الفانيلا المطبوعة دون أن تحزمه. ومشْط قدمها الأبيض يلمع من فتحة خِفِّها الفرو، والدم يتوهج حاراً من تحت بشرتها المعطَّرة. ومن يديها ورسغيها أيضاً فاح عطر خفيف وهي تشعل وتثبِّت شمعتها.

في الليالي التي كان يأتي فيها متأخراً كانت هي التي تسخّن له عشاءه، ولا يكاد يعرف ماذا يأكل وهو يشعر بها إلى جانبه وحدهما، ليلاً، في المنامة. ويا لعمق تفكيرها! إذا كان المساء بارداً أو رطباً أو كثير الرياح فسيجد حتماً قليلاً من شراب البنش معدًّا. ربما بوسعهما أن يسعدا معاً...

كانا يرتقيان الدرج معاً على رؤوس أصابعهما، وكل منهما يحمل شمعة، وعلى مسطبة الدرج الثالثة يتبادلان تحية المساء كارهين. كانا يتهادلان القبلات. يتذكر جيداً عينيها، ولمسة يدها واهتياجه ...

لكن الهياج يمضي. وتردد صدى عبارتها، ووجّهها إلى نفسه: "ماذا عساي أفعل؟" وأنذرته غريزة العازب بأن يتراجع. لكن الإثم كان حاضراً، حتى حين أبلغه الحسّ بالشرف بأنه سيضطر للتكفير عن ذاك الإثم.

وبينما كان جالساً معها على السرير دخلت ماري لتخبره بأن الست تريد أن تراه في الصالون. وقف ليرتدي معطفه وجاكيتته، وهو أكثر ما يكون بؤساً. بعد أن أنهى ارتداء ملابسه تقدّم منها ليواسيها. كل شيء سيكون على مايرام، ولا داعي للخوف. تركها تبكي وهي على السرير وتئن بضعف "آه، ياربي!"

حين كان يهبط الدرج ازداد بخار نظارتيه بحيث اضطر لخلعهما وتلميعهما. ودّ لو ينفذ من خلال السقف ويطير إلى بلد آخر حيث لا يعود يسمع مرة أخرى عن مشكلته، ومع ذلك دفعته قوة ما ليهبط درجة فدرجة. وحدّقت وجوه مستخدمه والمدام، تشهد على هزيمته. على المصطبة الأخيرة من الدرج مرَّ بجاك موني، الذي كان صاعداً من حجرة المؤن محتضناً زجاجتين من الباس. تبادلا التحية ببرود، واستقرَّت عينا العاشق للحظة أو اثنتين على الوجه الكلبيّ الضخم والذارعين الثخينتين القصيرتين.

حين وصل إلى عتبة الدرج ألقى نظرة إلى أعلى ورأى جاك يتأمله من باب غرفة العودة.

فجأة تذكر ليلةَ لمَّح أحد فناني صالة الموسيقى، اللندني الأشقر الضئيل، بحركة واضحة المعنى إلى بولي. يومها انفرط شملهم بسبب العنف الذي سبَّبه جاك بالتحديد. وحاول الجميع تهدئته. وظل أحد فناني صالة الموسيقى، وكان أكثر شحوباً قليلاً مما هو معروف، يبتسم ويقول بأنه لم يكن هناك أي قصد للأذى، ولكن جاك ظل يصرخ في وجهه قائلاً بأنه إذا حاول أي كان تكرار ذاك النوع من العبث مع أخته، فسوف يجعله يبتلع أسنانه، واللعنه إن لم يفعل.

بقيت بولي جالسة بعض الوقت على طرف السرير، تبكي. ومن ثم جفَّفت عينيها ومشت إلى المرآة. غمست طرف المنشفة في وعاء الماء وأنعشت عينيها بالماء البارد. نظرت إلى جانب وجهها وعدَّلت وضع دبوس الشعر فوق أذنها. بعد ذلك عادت إلى السرير من جديد وجلست عند موضع القدمين. تأملت الوسادة وقتاً طويلاً، وأيقظ مرآها في عقلها ذكريات سريَّة، محبَّبة. أراحت مؤخر عنقها على حاجز السرير الحديدي البارد، وغرقت في تأملها الحالم. ولم يعد هناك أي أثر للقلق بادٍ على وجهها.

انتظرت بصبر، بلّ ببهجة، بلا خوف، وقد أخذت ذكرياتها تفسح المجال تدريجياً للآمال ولرؤى المستقبل. كانت آمالها ورؤاها من التعقيد حتى أنها لم تعد ترى الوسائد البيضاء التي كانت تحدِّق بها، ولا تذكرت أنها كانت تنتظر أي شيء. أخيراً سمعت أمها تنادي. وقفت على قدميها مجفلة وهرعت إلى الدرابزين.

"بولي! بولي!"

"نعم، ماما؟"

"إنزلي، يا عزيزتي. السيد دوران يريد أن يتحدث إليك"

عندئذٍ تذكرت ما كانت تنتظر.

[1] المقصود أنها كانت تتكلم العامية السوقية دون أيـــة مراعـــاة للقواعـــد اللغويـــة -المترجم-.

سحابة صغيرة

قبل ثماني سنوات رأى صديقه ينطلق من محطة نورث وول وتمنى له رحلة موفّقة. لقد نجح غالاهر. يمكن التنبؤ بذلك من سيماء الارتحال عليه، وبذلته الجوخ الجيدة الصنع، ولهجته الجريئة. قليلون هم الذي يتمتعون بموهبة كموهبته، وأقل منهم من لا يفسدهم هذا النجاح. لقد وضع غالاهر قلبه في المكان المناسب واستحق أن يفوز بالنجاح. إنه لعمري شيء عظيم أن يكون للمرء صديق مثله.

ظلت أفكار تشاندلر الصغير تدور منذ وقت الغداء حول مقابلته لغالاهر، ودعوة غالاهر، والمدينة الكبرى لندن حيث عاش غالاهر. لقد سُمِّي بشاندلر الصغير لأنه، رغم أن حجمه لا يقل إلا قليلاً عن المعتاد، يوحي للناظر بأنه رجل صغير. فيداه صغيرتان بيضاوان، وهيكله العام هش، وصوته هادئ وسلوكه مهذّب. وهو يعتني كبير عناية بشعره الأشقر الحريري وشاربه، ويستعمل العطر بحذر على منديله. أظافره الهلالية مثالية، وحين يبتسم تلمح بريق صفِ الأسنان الطفولية البيضاء.

بينما هو جالس إلى طاولته في مكتب الكينغز إنْ، راح يفكر فيما يمكن أن تكون ثماني سنوات قد أحدثت من تغييرات. لقد أصبح الصديق الذي عرفه بمظهره الرث الدال على الفاقة شخصية لامعة

في أوساط الصحافة اللندنية. واستدار مراراً عن عمله الكتابيّ الممل ليرسل بصره خارج نافذة المكتب. وهجُ شمس آخر الخريف يغطي مساحات العشب والممرات؛ إنه يرش رذاذاً من الغبار الذهبي اللطيف على الممرضات المهملات والرجال العجائز المتداعين الناعسين على مقاعدهم، ويتلألأ على كل الأشكال المتحركة، على الأطفال الذين يركضون زاعقين على طول الممرات المحصّاة، وعلى كل من عبر الحدائق. راقب المشهد وفكر في الحياة، وغلبه الحزن (كما يحدث له دائماً حين يفكر في الحياة). تملّكته كآبة رقيقة، وشعر بعقم مقاومة القدر، إنه عبء الحكمة الذي أورثته له العصور.

تذكر دواوين الشعر الموضوعة على رفوفه في البيت. كان قد اشتراها أيام العزوبية. كم من أمسية، وهو جالس في الغرفة الكائنة في أقصى الصالة، هفت نفسه إلى تناول أحدها من الرف ليقرأ منها أبياتاً لزوجته. لكن الخجل كان يثنيه دائماً، وهكذا بقيت الكتب على رفوفها، فيما كان أحياناً يردد بعض الأبيات لنفسه مما يعزّيه قليلاً.

حين دقت ساعة انصرافه قام واستأذن من طاولته ورفاقه من الموظفين بشكل يعكس تمسُّكه بالشكليات. وطلع من تحت الكينغز إنْ الإقطاعي، بقامته المتوسطة الأنيقة، ومشى مسرعاً في شارع هنرييتا. كانت شمس الغروب الذهبية تضمحل والهواء تزداد حِدَّته. وشغل الشارع مجموعة من الأطفال الوسخين. كانوا بين واقف أو راكض في عرض الطريق، أو زاحف على درج أمام الأبواب فاغرة الأفواه، أو قابع على العتبات كالفئران. لم يولهم تشاندلر الصغير أدنى اهتمام. وطرق سبيله برشاقة خلال كل تلك الحياة التافهة الطفيلية وظلال البيوت الكالحة الشبحية التي عربدت فيها يوماً الطبقة

النبيلة في دبلن. لم تؤثر فيه أية ذكرى من الماضي، لأن رأسه كان مملوءاً بنشوة الحاضر.

لم يسبق له أن ارتاد محل كورلس، لكنه يعرف قيمة اسمه، يعرف أن الناس يذهبون إليه بعد خروجهم من دار المسرح لتناول الأصداف وشربْ السوائل، وسمع أن النُدُل هناك يتكلمون الفرنسية والألمانية. وأثناء عبوره مسرعاً من هناك ليلاً يرى السيارات تتوقف أمام الباب وتترجل منها سيدات بأثواب فخمة، بمرافقة فرسانهن، ويدخلن بسرعة. كنَّ يرتدين ثياباً تحدث الكثير من الضجيج ودثارات عديدة. وجوههنّ مضمَّخة بالبودرة وقد رفعن فساتينهن، حين لمسن الأرض، كأنهن أتالانتات[1] فزعات. كان دائماً يمرُّ دون أن يلتفت لينظر. كانت عادته أن يمشي بسرعة في الشارع حتى في النهار، وكلما وجد نفسه في المدينة ليلاً يسرع في مشيه بقلق وتوتر. أحياناً يحاول اكتساب أسباب لخوفه. فيختار أشد زوايا الشوارع ظلمة، وبينما هو يتقدم بجرأة، يقلقه الصمت المنتشر حول خطاه، تقلقه القامات المتنقّلة الصامتة، وأحياناً تجعله رنَّة ضحكة مكبوتة هاربة يرتجف كورقة.

انعطف يساراً إلى شارع كيبل. إغناتيوس غالاهر في الصحافة اللندنية! من كان يصدق أن هذا كان ممكناً قبل ثماني سنوات؟ مع ذلك، الآن وقد استعرض الماضي، بوسع تشاندلر الصغير أن يتذكر علائم كثيرة تدل على عظمة صديقه المستقبلية. كان الناس يقولون إن أغناتيوس غالاهر عنيف. ولا شك أنه في ذلك الزمان انضم إلى مجموعة فاسقة من الأصحاب، شرب بإسراف واقترض مالاً من كل جهة. وفي النهاية تورَّط في قضية مشبوهة، في مسألة مالية؛ على الأقل، كان ذلك أحد أسباب هروبه. ولكن لا أحد أنكر عليه موهبته. فهناك دائماً شيء خاص ... شيء في إغناتيوس غالاهر يؤثر بك

رغماً عنك. حتى حين كان رث الثياب وفي أمس الحاجة للنقود ظل يحمل وجهاً جريئاً. تذكر تشاندلر الصغير (والذكرى أعادت قليلاً من صبغة الفخر إلى خديه) أحد أقوال إغناتيوس وهو في إحدى محنه، كان يقول جذلاً:

"هيا يا شباب، حان وقت العمل النصفي. أين قبعتي المعتبرة؟ هذا هو إغناتيوس غالاهر برمّته، واللعنة، لا يسعك إلا أن تعجب به. إذا أردت أن تنجح عليك أن ترحل. لا يمكنك أن تفعل شيئاً في دبلن".

وحين عبر جسر غالاتا ألقى نظرة إلى النهر على الأرصفة السفلى، ورثى البيوت الفقيرة الكئيبة.

بدت له عصبة من المتشردين قد تكوَّمت على طول ضفاف النهر، وقد تغطَّت معاطفهم بالغبار والسخام، مذهولة بمشهد الغروب البانورامي، تنتظر أول بوادر صقيع المساء لتدعوها للنهوض، وتهز نفسها وتنطلق. وتساءل إن كان يمكنه أن يكتب قصيدة يعبر فيها عن هذه الفكرة. ربما استطاع غالاهر أن ينشرها له في إحدى الصحف اللندنية. هل يمكنه أن يكتب شيئاً أصيلاً؟ إنه ليس متأكداً من الفكرة التي يودُّ التعبير عنها، غير أن التفكير في اللحظة الشعرية التي مسَّته حرَّك الحياة في داخله كأمل طفولي. وخطا متقدماً بشجاعة.

كانت كل خطوة تقربه من لندن، وتبعده عن حياته الحاليّة الرصينة المفتقرة للفن. وبدأ شعاع من النور يرتعش عند أفق عقله. إنه ليس كبيراً جداً – في الثانية والثلاثين. ويمكن القول إن حساسيته قد بلغت نقطة النضوج. ثمة حالات نفسيه وانطباعات كثيرة مختلفة يرغب بالتعبير عنها شعراً. إنه يشعر بها داخله. حاول أن يقيّم روحه ليرى إن كانت روح شاعر. ورأى أن الكآبة هي السمة الغالبة على مزاجه، إلا أنها كآبة مدعومة بدورات متكررة من الإيمان

والاستسلام والبهجة البسيطة. لو يستطيع التعبير عنها في ديوان من الشعر فربما وجد من ينصت إليه. لن يصبح شعبياً؛ كان متأكداً. لن يستطيع الإطاحة بذوق العامة، ولكن قد يجد هوى لدى حلقة صغيرة من العقول القريبة منه. قد يلتفت إليه النقاد الإنكليز ويرون فيه أحد أعضاء المدرسية السلْتية بسبب نغمة الكآبة المسيطرة على أشعاره. ثم إنه سيضيف بعض التضمينات الرمزية. وبدأ يخترع جملاً وعبارات مأخوذة من الملاحظة التي سيحصل عليها كتابه. "إن للسيد تشاندلر موهبة كتابة الشعر السهل الجميل" .. "إن حزناً توّاقاً يسود هذه القصائد" ... "إنها النبرة السلتية". من المؤسف أن اسمه ليس ايرلندياً كثيراً. لعل من الأفضل إقحام اسم أمه قبل الكنية ليصبح: توماس تشاندلر. سيحدّث غالاهر عن هذا.

تابع أفكاره الحالمة بكثير من الحماسة، حتى أنه مرَّ بالشارع الذي يخصه واضطر للرجوع. حين اقترب من محل كورلس بدأ تردده السابق يسيطر عليه، ووقف أمام الباب محتاراً. وأخيراً فتح الباب ودخل.

جعله النور والضجيج يتلكأ قليلاً عند الممر. نظر حوله، لكن بصره تشوّش ببريق العديد من كؤوس النبيذ الحمراء والخضراء. بدا له البار مملوءاً بالناس، وشعر أن الناس يراقبونه بفضول. ألقى نظرة سريعة إلى اليمين واليسار (عابساً قليلاً ليضفي الجدية على مهمته)، ولكن حين توضّح بصره قليلاً وجد أنه لا أحد التفت لينظر إليه. ورأى، بلا أدنى شك، إغناتيوس غالاهر مائلاً على ظهره إلى المنضدة وقدماه مزروعتان ومنفرجتان.

"هاللو، تومي، يا بطلي القديم، ها قد أتيت! ماذا تريد، ماذا تطلب؟ إنني أشرب الويسكي. هذا النوع أفضل من الذي نتناوله مع الماء.

صودا؟ ماء الليثية؟ لا تريد ماء معدنياً؟ وأنا أيضاً. إنه يفسد النكهة ... إسمع، يا غرسون، أحضر لنا نصفين من ويسكي المَلْت، وكن ولداً طيباً ... حسن، وكيف كنت تدبِّر أمورك منذ أن شاهدتك آخر مرة؟ يا الله، كم نكبر بسرعة! هل تلاحظ عليّ أية علائم للكبر - هه، ماذا؟ ازداد الشيب قليلاً وخفّ الشعر من الأعلى- ماذا؟

خلع إغناتيوس غالاهر قبعته وكشف عن رأس كبير وشعر مقصوص قصير جداً. كان وجهه مثقلاً، شاحباً وحسن الحلاقة. عيناه، الاردوازيتان مع زرقة، خففتا من شحوبة المرض وشعَّتا بوضوح من فوق ربطة العنق البرتقالية الفاقعة التي يضعها. وبين هذه القسمات المتزاحمة ظهرت شفتاه طويلتين جداً ولا شكل لهما ولا لون. أحنى رأسه وتحسَّس بإصبعين متعاطفتين الشعر الخفيف عند التاج. هز تشاندلر الصغير رأسه علامة الاستنكار. واعتمر إغناتيوس قبعته ثانية.

"شيء يحبط العزيمة. حياة قاهرة. تعدو وتعدو بلا توقف، تبحث عمَّن تحتذي به ولا تجد، ثم، عليك أن تنتظر دائماً عملاً جديداً. اللعنة على البروفات وعمال المطابع، ولو لبضعة أيام، هكذا أقول لنفسي. إنني سعيد كالشيطان، أؤكد لك، لأني عدت إلى بلدي القديم. إن المرء ليشعر بتحسن، كأنك في عطلة. أشعر أني أفضل بمقدار طن منذ أن رسوت ثانية على شاطئ العزيزة، القذرة دبلن ... ها أنت هنا، يا تومي، ماء؟"

"قُلْ حين تعوز."

وسمح تشاندلر الصغير بأن يُرقِّق كثيراً.

قال إغناتيوس غالاهر: "أنت لا تعرف أين مصلحتك، ياصديقي. إنني أشرب مشروبي نظيفاً".

وقال تشاندلر الصغير باحتشام: "إنني لا أشرب إلا قليلاً، كمبدأ. أحياناً أشرب نصف كأس أو نحوه حين أقابل أياً من الأصدقاء القدامى. هذا كل شيء".

قال إغناتيوس غالاهر، مبتهجاً: "آه، حسناً، في صحتنا وصحة الأيام الخوالي والأصدقاء القدامى".

تقارعا الكؤوس وشربا النخب ...

قال إغناتيوس غالاهر: "لقد قابلت بعضاً من أعضاء المجموعة القديمة اليوم، بدا لي أوهارا في وضع سيء. ماذا يعمل؟".

قال تشاندلر الصغير: "لا شيء، ذهب إلى الكلاب".

"لكن هوغان لديه مركز جيد، أليس كذلك؟"

"نعم، إنه في مجال سمسرة الأراضي".

"قابلته ذات مساء في لندن وبدا لي منتعشاً جداً ... مسكين أوهارا! أظنه سكير، أليس كذلك؟".

قال تشاندلر الصغير مختصراً: "وأشياء أخرى، أيضاً".

ضحك إغناتيوس غالاهر.

قال تومي: "أرى أنك لم تتغير قيد أنملة. إنك ذات الشخص الجاد الذي كان يلقي عليّ المحاضرات كل أحد صباحاً حين يكون رأسي يؤلمني ولساني مطلي. لعلك ترغب في الترحال قليلاً في العالم. ألم تذهب مرة إلى أي مكان في رحلة؟"

قال تشاندلر الصغير: "ذهبت إلى آيل أوف مان ..."

وضحك إغناتيوس غالاهر.

قال "آيل أوف مان! اذهب إلى لندن أو باريس، أنا أختار لك باريس: ستنفعك".

"وهل رأيت باريس؟"

"لقد فعلت حقاً! طفت فيها قليلاً".

قال تشاندلر الصغير: "وهل هي جميلة حقاً كما يقال؟"

رشف قليلاً من شرابه بينما أنهى إغناتيوس غالاهر مشروبه بجراءة.

قال إغناتيوس غالاهر: "أتقول جميلة؟" متوقفاً عند الكلمة وعند نكهة مشروبه.

"إنها ليست جميلة جداً، في الحقيقة. هي جميلة بلا شك ... ولكن الشيء المهم هو الحياة الباريسية. آه، لا توجد مدينة تشبه باريس في مرحها، وحركتها وإثارتها ...".

أنهى تشاندلر الصغير كأسه من الويسكي واستطاع، بعد شيء من الصعوبة، أن يجعل النادل يراه وأمر بطلب آخر.

"ذهبت إلى ملهى المولان روج" تابع اغناتيوس غالاهر بعد أن أخذ النادل كأسيهما "ذهبت إلى المقاهي البوهيمية. مراتع حمراء! ليست لشاب ورع مثلك. يا تومي".

لم يزد تشاندلر شيئاً إلى أن عاد النادل مع كأسين. ثم قرع كأس صديقه بخفة وردّ النخب السابق. كان قد بدأ يشعر بشيء من خيبة الأمل. لم تعجبه نبرة طريقة تعبيره عن نفسه. ثمة في صديقه شيء سوقيّ لم يلاحظه عليه من قبل. ولكن لعله كان مجرد نتيجة عيشه في لندن وسط الروح الصاخبة المتنافسة المسيطرة على مجال الصحافة. لا يزال السحر الشخصي موجود فيه تحت هذا المظهر الجدي المبهرج. ثم، بعد كل شيء، إن غالاهر عاش ورأى العالم. ونظر تشاندلر الصغير إلى صديقه بعصبية.

قال إغناتيوس غالاهر " كل شيء في باريس فرح. إنهم يؤمنون بالاستمتاع بالحياة ــ ألا تظن أنهم على حق؟ إذا أردت أن تستمتع كما يجب فعليك بباريس. وأُلْفتُ انتباهك هنا، إلى أن

تعاطفهم عظيم مع الأيرلنديين هناك. حين سمعوا أني من ايرلنـــدا كادوا يأكلونني، يارجل".

تناول تشاندلر الصغير أربع أو خمس رشفات من كأسه.

قال: "قل لي: هل صحيح أن باريس مغرقة في... اللاأخلاقيـــة كما يقولون؟"

قام أغناتيوس غالاهر بإيماءة كاثوليكية بذراعه الأيمن.

قال: "إن كل مكان غير أخلاقي، ولا شك أنك تجد فـــي بـــاريس أماكن بذيئة. اذهب مثلاً إلى إحدى حفلات الطـــلاب. هـــذه أمـــاكن حيوية، إذا أحببت، وذلك حين تبـــدأ المغناجـــات بـــالتصرف علـــى حريتهن, وأظنك تعرف أي نوع هن؟"

قال تشاندلر الصغير: "سمعت عنهن".

وجرع إغناتيوس غالاهر كأسه دفعة واحدة وهز رأسه.

قال: "آه، يمكنك أن تقول ماتريد. ليـــس هنـــاك امـــرأة تجـــاري الباريسية – في أسلوبها، في حيوتها"

"إذن فهي مدينة لا أخلاقية" قال تشاندلر الصغير بإلحاح رعديـــد" أقصد، بالمقارنة مع لندن ودبلن؟"

قال إغناتيوس غالاهر: "لندن! إنها تشكل ستة من الأولى ونصـــف دزينة من الأخرى. اسأل هوغان، يا صاحبي، لقد أريته جـــزءاً مـــن لندن حين ذهب إلى هناك. سوف يفتح عينيك ... أقول لك، يا تومـــي، "لا تشرب هذا الويسكي كأنه بنش، اجرعه جرعاً"

"لا، لا يمكن ..."

"أوه، هيا، كأساً أخرى لن يؤذيك. ما هـــذا؟ لا أظنـــك ستشـــربها كالسابقة؟"

"حسن ... لابأس"

"يافرانسوا، أحضر طلباً آخر ... هل تدخن، تومي؟"

قدَّم إغناتيوس غالاهر علبه سجائره. أشعل الصديقان سيجارتيهما وراحا ينفخانهما في صمت إلى أن أتيا على مشروبهما.

"سأقول لك رأيي "قال اغناتيوس غالاهر، وقد ظهر بعد بعض الوقت من بين سحب الدخان التي التجأ إليها" إنه عالم الخمر. أنت تتحدث عن اللاأخلاقية، لقد سمعت عن حالات - ماذا أقول؟ إنني عرفتها: هذه الحالات من ... اللاأخلاقية ..."

بخَّ اغناتيوس غالاهر دخان سيجارة مفكراً، ومن ثم، وبنبرة المؤرخ الهادئة، تابع يرسم لصديقه بعض صور الفساد المتفشّي في الخارج. لخَّص آثام عواصم عديدة، وبدا ميَّالاً لإعطاء الجائزة الأولى إلى برلين. ثمة أمور لا يستطيع البرهنة على صحتها (فقد سردها عليه أصدقاؤه)، ولكن هناك حوداث أخرى لديه عنها تجربة شخصية.

لم يوفّر سمعة ولا طبقة اجتماعية. كشف العديد من أسرار بيوت الدين في القارة، ووصف بعض الممارسات المعروفة في المجتمع الراقي، وانتهى بسرد قصة، مفصَّلة، حول دوقة انكليزية - قصة يعرف أنها حقيقية. وذهل تشاندلر الصغير.

قال إغناتيوس غالاهر: "آه، حسن، ها نحن في دبلن العجوز المتحركة أبداً حيث لا تجد شيئاً من تلك الأمور".

قال تشاندلر الصغير: "كم صرت تجدها مملة، بعد كل تلك الأماكن التي شاهدتها!"

قال إغناتيوس غالاهر: "لابأس، إن مجيئي إلى هنا هو مجرد فترة استرخاء، في الحقيقة. ثم، بعد كل شيء، هي البلد الأم، كما يقولون، أليس كذلك؟ لا يمكنك إلا أن تكنَّ لها مشاعر خاصة. إنها الطبيعة

البشرية ... ولكن قل لي شيئاً عنك. أخبرني هوغان بأنك ... تذوقــتَ مباهج النعيم الزيجي. حدث هذا قبل سنتين، أليس كذلك؟"

احمرَّ تشاندلر الصغير خجلاً وابتسم.

قال: "نعم، تزوجت في أيار الفائت أي منذ اثني عشر شهراً"

قال إغناتيوس غالاهر: "آمل أن لا يكون الوقت قد فات لأقدِّم لــك أخلص تمنياتي. لم أكن أعرف عنوانك وإلا لقمت بالواجب في حينه".

ومد يده، وتناولها تشاندلر الصغير.

قال: "حسن يا تومي، أتمنى لك ولزوجك كل متعة فـــي الحيـــاة، ياصديقي العزيز، والأطنان من النقود، وإن شاء الله لا تموت إلـــى أن أطلق عليك الرصاص. هذه هي دعوة الصديق الوفي. ألا تعرفها؟"

قال تشاندلر الصغير: "أعرفها".

قال إغناتيوس غالاهر: "أي أولاد؟"

احمرّ تشاندلر الصغير ثانية.

قال: "لدينا ولد واحد".

"ذكر أم أنثى؟"

"صبي صغير"

صفع إغناتيوس غالاهر صديقه على ظهره بقوة.

قال: "برافو، لا أشك في هذا، يا تومي".

ابتسم تشاندلر الصغير، ونظر باضطراب إلى كأسه وعض علـــى شفته السفلى بأسنانه الثلاث الأمامية البيضاء الطفولية.

قال: "آمل أن تقضي أمسية معنا قبل عودتك. سيسعد زوجتـــي أن تقابلك. يمكن أن نستمع إلى بعض الموسيقى و ..."

قال إغناتيوس غالاهر: "شكراً جزيلاً، يا صاحبي القديم، يؤســفني أننا لم نتقابل في وقت مبكر. ولكن يجب أن أرحل غداً مساءً".

"ولماذا لا تأتي اليوم مساء ...؟"

"إنني شديد الأسف، يا صاحبي العزيز، في الواقع إنني هنا مع صديق آخر، وهو شاب حاذق أيضاً، وقد اتفقنا أن نذهب إلى سهرة لعب ورق. لهذا السبب فقط ..."

"أوه، في هذه الحال ..."

"ولكن من يعلم؟ "قال إغناتيوس غالاهر متأملاً "قد آتي إلى هنا في العام المقبل في زيارة خاطفة بعد أن عملت هذه المرة على كسر حاجز الثلج بيننا. إنها مجرد متعة مؤجلة".

قال تشاندلر الصغير: "حسن جداً، في المرة المقبلة سنقضي أمسية معاً. أليس هذا اتفاقاً؟"

قال إغناتيوس غالاهر: "نعم، نعم اتفقنا. في العام المقبل إذا أتيت PAROLE d'honneur قال تشاندلر الصغير "ولكي نثّبت الإتفاقية سنشرب نخباً آخر الآن".

أخرج إغناتيوس غالاهر ساعة ذهبية ونظر إليها.

قال: "أتسمح أن يكون الأخير؟ لأني في الواقع مرتبط بموعد".

قال تشاندلر الصغير: "أوه، نعم، بلا شك".

قال إغناتيوس غالاهر: "حسن جداً، إذن، فلنتناول كأساً آخر بمثابة deoc an doruis قولٌ عاميّ جيد يناسب كأساً صغيراً من الويسكي، كما أظن"

طلب تشاندلر الصغير المشروب، واحمرار الخجل الذي هبَّ في وجهه قبل لحظات قد استقر الآن. إن أي شيء تافه جدير بصبغ وجهه في أي وقت. والآن شعر بالدفء والإثارة. لقد صعدت ثلاثة كؤوس صغيرة إلى رأسه، وشوّش سيجار غالاهر القوي دماغه. فقد كان إنساناً رقيقاً متقشفاً. وأن يدخل في مغامرة مقابلة غالاهر بعد

مرور ثماني سنوات، وأن يجد نفسه مع غالاهر في حانة كورلس محاطاً بالأضواء والضجيج، والإنصات إلى قصص غالاهر ومشاركة غالاهر حياته المتشردة السكرى بالانتصار ولو لفترة قصيرة من الوقت، أما ذلك كله فقد قلب توزان طبيعته الحساسة. وشعر بحدَّة بالتناقض القائم بين حياته هو وحياة صديقه، وبدا له الوضع جائراً. إن غالاهر دونه في المنشأ والثقافة. وهو متأكد أن بإمكانه أن يفعل أفضل مما فعل صديقه إطلاقاً، أو كل ما يمكن أن يقوم به أبداً، أن ينجز شيئاً أرقى من مجرد كتابة المقالات الصحفية المزوقة، فقط لو أتيحت له الفرصة. ما الذي يقف عائقاً في طريقه؟ إنه جبنه المشؤوم! ودَّ لو يثبت نفسه بطريقة ما، لو يؤكد رجولته. لقد قرأ شيئاً خلف رفض غالاهر دعوته. إن غالاهر يراعيه فقط بإظهار ودّه تماماً كما كان يُظاهر ايرلندا فقط بنفحها زيارة.

أحضر النادل مشروبهما. دفع تشاندلر الصغير بمشروب إلى صديقه وأخذ هو الكأس الأخرى بجرأة.

قال وهما يرفعان كأسيهما: "من يعرف؟ حين تأتي في العام المقبل قد أنال شرف تمنّي السعادة والحياة المديدة للسيد و السيدة إغناتيوس غالاهر"

وبينما كان إغناتيوس غالاهر يقوم بحركة الشرب، أغلق إحدى عينيه في حركة معبرّة عبر حافة كأسه. وبعد أن شرب، تلمظ بشفتيه بشكل حاسم، ووضع كأسه وقال:

"لا خوف. أتوقع هذا، يا صاحبي، وقبل أن أضع رأسي في الكيس سأقضي وطري من الملذات وأرى شيئاً من متع الحياة – هذا إذا تزوجت أبداً".

قال تشاندلر الصغير بهدوء "ستفعل ذات يوم".

أدار إغناتيوس غالاهر ربطة عنقه البرتقالية، وعيناه الاردوازيتان الزرقاوان مفتوحتان إلى صديقه.

قال: "أتظن هذا؟"

كرّر تشاندلر الصغير كلامه بعناد: "ستضع رأسك في الكيس كغيرك إذا وجدت الفتاة المناسبة".

وشدّد قليلاً على نبرة صوته، وكان يعرف أنه يخدع نفسه، ورغم أن الاحمرار علا وجنتيه، لم يتهرب من تحديقة صديقه. وراقبه إغناتيوس غالاهر لبعض الوقت وقال:

"إذا ظهرت ولابد، فيمكنك أن تراهن بآخر دولار لديك بأنه لن يكون هناك لا غرام ولا كلام فارغ من هذا النوع. إنني معنيّ بالزواج من النقود. فإما أن يكون لديها رصيد كبير في البنك أو إنها لن تفيدني"

هزّ تشاندلر الصغير رأسه.

قال إغناتيوس غالاهر، بحماس: "وهل تعرف، يا صاحبي الحي، كيف يتم الأمر؟ يكفيني أن أقول كلمة واحدة ويمكنني أن أحصل غداً على امرأة وعلى النقود. لا تصدق؟ لابأس، أنا متأكد. هناك مئات – ماذا أقول؟ – بل الآلاف من الثريات الألمان واليهود، يتعفّنَّ من كثرة النقود، يسعدهن أن ... انتظر بعض الوقت يا صاحبي. وانظر كيف سألعب بأوراقي كما يجب. إنني حين أصمم على شيء يصبح شغلي الشاغل، أؤكد لك. انتظر فقط."

قذف بمحتوى كأسه إلى فمه، وأنهى مشروبه وراح يضحك بصوت عال. ثم نظر أمامه متفكراً، وقال بصوت أهدأ:

"لكني لست على عجل. يمكنهن الانتظار. لست مشتاقاً للارتباط بامرأة واحدة، في الحقيقة".

وأخذ يحاكي بفمه حركة التذوّق، ولوى تقاطيع وجهه ساخراً.

قال: "لابد أني صرت بائخاً حقاً".

جلس تشاندلر الصغير في غرفة أقصى الصالة، يحمل طفلاً بين ذراعيه. وليوفر نقوداً لم يحتفظ وآن بخادم، لكن أخت آن الصغرى مونيكا كانت تأتي مدة ساعة في الصباح وساعة أو نحوها في المساء لتساعدهما. غير أن مونيكا قد ذهبت إلى بيتها منذ زمن طويل. إنها التاسعة إلا ربع، وتأخر تشاندلر الصغير في المجيء إلى البيت لتناول الشاي، وأكثر من ذلك، نسي أن يحضر لآن باكيت القهوة من عند محل بيلوي. وطبعاً تعكَّر مزاجها وردَّت عليه بإجابات قصيرة. قالت إن باستطاعتها الاستغناء عن الشاي، ولكن حين اقترب موعد إغلاق الدكان الكائن عند الزاوية قررت أن تخرج بنفسها وتشتري ربع باوند من الشاي وباوندين من السكر. وضعت الطفل النائم بين ذراعيه وقالت:

"إليك. لا توقظه".

على الطاولة كان مصباح صغير بظلة بيضاء من الصيني، سقط نوره على صورة موضوعة داخل إطار من مادة القرن البالي. إنها صورة آن. نظر إليها تشاندلر الصغير، وثّبت عينيه على الشفتين المزمومتين بإحكام. كانت ترتدي البلوزة الصيفية السماوية التي اشتراها لها كهدية في أحد أيام السبت. لقد كلّفته عشر شلنات وأحد عشر بنساً، ولكن كم كلّفته من إرهاق لأعصابه! آه كم عانى في ذلك اليوم، وهو ينتظر أمام باب الدكان ليخفّ الزخام، ثم وهو واقف عند طاولة المحاسبة يحاول أن يبدو هادئ الأعصاب أمام تلة من بلوزات السيدات التي وضعتها فتاة المحل؛ وهو يدفع عند الصندوق وقد نسي أن يأخذ البنس الذي بقي له، بعد أن نادى عليه الصرّاف، وأخيراً

وهو يحاول إخفاء احمرار الخجل، وهو يغادر المخزن بفحص اللفافة ليرى إن كانت مربوطة جيداً. وحين أحضر البلوزة إلى البيت قبّلته آن وقالت إنها جميلة جداً وعلى الموضة، ولكن حين سمعت رقم ثمنها رمت بها على الطاولة، وقالت إنها لخدعة واضحة أن يدفع ثمنها عشر شلنات وأحد عشر بنساً. في أول الأمر أرادت أن تعيدها، ولكن حين جرّبتها فرحت بها. خاصة حين رأت موضة الأكمام، وقبّلته وقالت إنه طيب جداً لأنه فكّر بها.

هَم! ...

نظر ببرود في عينيّ الصورة وبادلتاه بأخرى باردة. لا شك بأنهما جميلتان والوجه نفسه جميل. لكنه وجد فيه شيئاً حقيراً، لماذا يبدو بعيداً عن الوعي شديد التأنق؟

هدوء العينين يربكه. إنهما تصدّانه وتتحديانه. لا انفعال فيهما، لابشْر. وفكّر في ما قاله غالاهر عن اليهوديات الثريات. وفكّر، هاتان العينان الشرقيتان السوداوان، ما أترعهما بالعاطفة، والشوق الحسيّ! ... لماذا تزوج العينين اللتين في الصورة؟

قاطع نفسه عند هذا السؤال، وألقى نظرة عصبية على الغرفة. وجد في الأثاث الجميل شيئاً وضيعاً، وكان قد اشتراه بالتقسيط. اختارته آن نفسها وهو يذكّره بها. هو أيضاً كان أنيقاً وجميلاً. واستيقظ داخله اشمئزاز راكد من حياته. ألا يستطيع الهرب من بيته الصغير؟ ألم يفته الأوان كي يحاول أن يعيش بشجاعة مثل غالاهر؟ هل يستطيع الذهاب إلى لندن؟ مايزال عليه أن يدفع ثمن الأثاث. ليته فقط يستطيع أن يؤلف كتاباً ليطبعه، فقد ينفتح أمامه طريق الشهرة.

ثمة كتاب يحوي أشعار بايرون ملقى أمامه على الطاولة. فتحه بحذر بيده اليسرى مخافة أن يوقظ الطفل، وبدأ يقرأ القصيدة الأولى من الديوان:

هادئة هي الرياح ولا يزال المساء كئيباً.
لا نسمة تجوس الكروم،
ها أنا قد عدت لأزور ضريح مارغريت
وأنثر الزهور على رفات الحبيبة.

توقف. شعر بإيقاع الشعر يطوف حوله في الغرفة. ما أكآبه! أيمكنه هو أيضاً أن يكتب مثله؟ أن يعبِّر عن كآبة روحه شعراً؟ هناك الكثير مما يريد وصفه. كإحساسه في الساعات القليلة الماضية وهو على جسر غراتان، مثلاً. لو يعود ثانية إلى ذاك الجو ...

استيقظ الولد وبدأ يبكي. استدار عن الصفحة وحاول أن يسكته، لكنه لم يسكت. وأخذ يهزّه إلى الأمام والخلف وهو بين ذراعيه، لكن بكاءه المولول ازداد حِدَّة. وأسرع في هزّه بينما عيناه تقرأان المقطع الثاني:

داخل هذا التجويف الضيق تستلقي بقاياها،
تلك الرفات حيث كان ...

لا فائدة. لا يمكنه أن يقرأ. لا يمكنه فعل أي شيء. ولَولَة الطفل تثقب طبلة أذنه. لا فائدة، لا فائدة! إنه محكوم بالسجن المؤبد. وارتعشت يداه غضباً وفجأة مال على وجه الطفل وصرخ:

"كفى!"

كفّ الطفل للحظة، وانتابته نوبة رعب، وبدأ يزعق. قفز عن كرسيه وراح يتمشى بسرعة جيئة وذهاباً في الغرفة، والطفل بين ذراعيه. وبدأ الطفل ينشج بشكل يثير الشفقة، وهو يفقد تنفسه لمدة أربع أو خمس ثوان، ثم ينفجر صارخاً من جديد. وتردد الصدى بين جدران الغرفة. وحاول أن يهدّئه، لكنه أخذ ينشج بعنف أكبر. نظر إلى الوجه المتقلص المرتعش للطفل، وبدأ الخوف يستولي عليه. وعدَّ

سبع شهقات متوالية دون أي انقطاع بينها، وضمَّ الطفل إلى صدره خوفاً. ماذا لو مات!...

انشق الباب ودخلت المرأة الشابة، تلهث:

"ماذا حدث؟ ماذا حدث؟ هتفت.

لما سمع الطفل صوت أمه انفجر في نوبة من النشيج.

"لاشيء، يا آن ... لاشيء ... لقد بدأ يبكي و ..."

قذفت باللفائف على الأرض واختطفت الطفل منه.

"ماذا فعلت له؟" صرخت، وهي تحملق غاضبة في وجهه.

تحمَّل تشاندلر الصغير حملقة عينيها لبرهة واحدة ثم انقبض قلبه معاً حين وجد فيهما الحقد. وبدأ يتلعثم قائلاً:

"لاشيء ... لقد ... لقد بدأ يبكي .... ولم أستطع ... لم أفعل له أي شيء ... ماذا؟"

قالت: "لم تولِه أي انتباه".

وراحت تمشي في الغرفة جيئة وذهاباً، ضامَّة الطفل بقوة بذراعيها وهي تهمهم:

"يا رجلي الصغير! يا رجلي الصغير! هل أنت خائف، يا حبي؟ ... إهدأ الآن، يا حبي! ...

لا مبابون! يا حَمَلَ الماما الوحيد في العالم! ... اهدأ الآن!"

شعر تشاندلر الصغير بالعار يشيع في وجنتيه. ووقف مبتعداً عن نور المصباح. أنصتَ إلى نوبات النشيج تقلُّ أكثر فأكثر، وبدأت دموع الندم تترقرق في عينيه.

(1) أتالانتا: في الميثولوجيا اليونانية هي إحدى إلاهات الصيد.

نظائر

رنّ الجرس بجنون، وحين ذهبت الآنسة باركر إلى النفق، هتف لها صوت غاضب بلهجة شمال ايرلندا:

"أرسلي لي فارينغتن إلى هنا!"

عادت الآنسة إلى آلتها، وهي تتكلم إلى رجل يكتب على مكتب.

"السيد آلين يريدك في الطابق العلوي"

غمغم الرجل: "اللعنة عليه!" من تحت أسنانه، ودفع كرسيه إلى الخلف ليقف. حين وقف بدا طويلاً و ذا هيكل ضخم. كان له وجه مهدّد، بلون الخمر الغامق، ذو حاجبين أشقرين وشارب. وقد نتأت عيناه قليلاً إلى الأمام، وكان بياضهما وسخاً.

رفع خشبة المرور، ومرَّ من أمام الزبائن، وخرج من المكتب بخطى ثقيلة.

صعد الدرج مهموماً إلى أن وصل إلى المصطبة الثانية، حيث ثمة باب يحمل لوحة نحاسية مخطوط عليها "السيد آلين". هنا توقف، وهو ينفث تعباً وغيظاً، وطرق على الباب. وصرخ الصوت الحاد:

"ادخل!"

دخل الرجل غرفة السيد آلين. في اللحظة نفسها رفع السيد آلين، الرجل القصير ذو النظارات بإطار مذهّب على وجه جيد الحلاقة،

رأسه بسرعة عن كومة من الوثائق. الرأس نفسه كان بلون قرمـــزي غامق، وأصلعاً بدا كبيضة كبيرة مرتاحة فوق الأوراق. ولم يضيّـــع السيد آلين لحظة واحدة:

"فارينغتن؟ ما معنى هذا؟ لماذا أُضطَر دائماً للشكوى منك؟ هل لي أن أسأل لماذا لم تحضرّ نسخة من العقد المبرم بين بودلي وكـيراوي؟ قلت لك: يجب أن يكون جاهزاً عند الساعة الرابعة".

"لكن السيد شيلي قال، يا سيدي ..."

"السيد شيلي قال، يا سيدي ... رجاءً التزم بما أقوله أنا وليس بمـا يقوله السيد شيلي، يا سيدي. دائماً لديك عذر أو آخر لتتـــهرّب مـــن العمل. دعني أخبرك أنه إذا لم يُنسخ العقد قبل هذا المســـاء ســأضع المسألة بين يدي السيد كروسبي... هل تسمعني الآن؟"

"نعم، ياسيدي"

"هل تسمعني الآن؟ ... وهناك قضية صغيرة أخرى! قـــد يكـــون كلامي مع الحائط يشبه كلامي معك. افهم وللأبد أنه أمامك نصـــــف ساعة لتناول غداءك وليس ساعة ونصف. كم دورة تدريبيـــة تريـــد؟ أريد أن أعرف ... هل تعي كلامي الآن؟"

"نعم، ياسيدي".

أحنى السيد آلين رأسه فوق كومة الأوراق مـــرة أخـــرى. وثبّـــت الرجل حملقته على الجمجمة الصقلية التي تدير أعمال شركة كروســبي وآلين، مخمّناً هشاشتها. وغصّت في حنجرته نوبـــة غضـــب لبعـــض الوقت، ثم انصرمت، تاركة خلفها شعوراً حاداً بالعطش. لاحظ الرجـــل شعوره هذا وأحسَّ أنه يجب أن يتناول مشروباً مسائياً جيداً.

"نعم، ياسيدي".

ومرّ منتصف الشهر، وإذا استطاع أن ينهي النسخ فـــي الوقـــت المحدد، فلربما أعطاه السيد آلين أمر صرف. وجمد في وقفته، يحـــدِّق

بثبات في الرأس المحني فوق كومة الأوراق. وفجأة بدأ السيد آلين يقلّب جميع الأوراق، بحثاً عن شيء ما. ثم، وكأنه غير منتبه لحضور الرجل حتى تلك اللحظة، رفع رأسه ثانية، قائلاً:

"إيه؟ هل تنوي أن تقف هنا طوال النهار؟ وحق الله، يا فارنغتن، إنك تأخذ الأمور بتهاون!".

"كنت أنتظر لأرى ...".

"عظيم جداً، لا عليك بالانتظار، اذهب إلى الطوابق السفلى وقُم بعملك".

مشى الرجل بتثاقل نحو الباب، وبينما هو يخرج من الغرفة سمع السيد آلين يصرخ خلفه قائلاً إنه إذا لم يُنْسخ العقد قبل المساء فإن السيد كروسبي سيسمع بالموضوع".

عاد إلى مقعده في المكتب السفلي، وعدّ الأوراق المتبقية للنسخ. والتقط القلم وغمسه في الحبر، لكنه استمر في التحديق ببلاهة في الكلمات الأخيرة المكتوبة.

"ولايحق للمدعو برنارد بودلي أن ..." كان المساء يهبط، وبعد لحظات قليلة سيشعلون الغاز، وعندئذٍ سيستطيع الكتابة. وشعر أنه يجب أن يروي ظمأ حنجرته. قام عن مقعده، ورفع خشبة المرور كما فعل قبلاً، وخرج من المكتب. عند خروجه نظر إليه رئيس الموظفين مستفسراً.

قال الرجل: "لاعليك ياسيد شيلي" مشيراً بإصبعه دالاً على هدف رحلته".

نظر رئيس الموظفين إلى حامل القبعات، ولكن لما رأى الرتل كاملاً، لم يعلّق. وحالما وصل إلى المصطبة سحب الرجل قبعة رعوية مطوية من جيبه، ووضعها على رأسه وهرع مسرعاً هابطاً

الدرج المزعزع. انتقل من الباب الرئيسي ومشى متلصصاً على الجانب الداخلي من الطريق متوجهاً إلى الزاوية، وغاص دفعة واحدة داخل أحد الأبواب. الآن بات آمناً في الظلام الدافئ المستكن لمحل أونيل، وبعد أن ملأ النافذة الصغيرة المطلة على البار بوجهه المتّقد، بلون الخمر القاني أو اللحم الغامق، هتف:

"هنا، يا أخ، أعطنا كأساً من البورتر، وكن طيباً".

أحضر له راعي المكان كأساً من البورتر الرائق. جرعه الرجل دفعة واحدة وطلب بذرة كرويا. وضع البنس على الطاولة، وترك راعي المكان يتلمس مكانها في العتمة، وخرج من الدفء بنفس اختلاس دخوله إليه.

كان الظلام، مصحوباً بضباب سميك، يحتل مكان غسق شباط وقد أضيئت المصابيح في شارع يوستاس. مشى الرجل عابراً البيوت إلى أن وصل إلى باب المكتب، متسائلاً كيف سينهي إتمام النسخة في وقتها. على الدرج استقبل أنفه عبقاً من نفحة عطر حاد، واضح أن الآنسة ديلاكور قد أتت أثناء غيابه عند أونيل. وحشر قبعته ثانية في جيبه وعاد داخلاً المكتب، متظاهراً بالشرود.

قال رئيس الموظفين بقسوة: "كان السيد آلين ينادي عليك، أين كنت؟"

ألقى الرجل نظرة على الزبونين الواقفين عند الطاولة كأنما ليلمّح إلى أن حضورهما يمنعه من الإجابة. ولما كان الزبونان من الذكور سمح رئيس الموظفين لنفسه بالضحك.

قال: "أعرف هذه اللعبة، خمس مرات في اليوم الواحد كثيرة قليلاً ... حسن، من الأفضل لك أن تشحذ همّتك وتنجز النسخة من مراسلاتنا في قضية ديلاكور للسيد آلين."

شوّش فكرَ الرجل، هذا الخطابُ العلني، وركْضُه إلى الطابق العلوي، والبورتر الذي ابتلعه بسرعة،ولما جلس إلى طاولته ليتم ما أمر به، أدرك كم هو يائس من قدرته على إنهاء نسخ العقد قبل الخامسة والنصف. كان الليل الحالك الرطب آت، وتمنّى لو يقضيه في البارات، يشرب مع أصدقائه وسط لهب الغاز وقرع الكؤوس. وحلّق بعيداً عن مراسلات ديلاكور خارج المكتب. و تمنى لو أن السيد آلين لا ينتبه لفقدان آخر رسالتين منها.

عبقُ العطر القوي منثور طوال الطريق إلى أعلى حتى غرفة السيد آلين. كانت الآنسة ديلاكور امرأة في منتصف العمر ذات مظهر يهودي. وقيل إن السيد ألين متّيم بها، أو فلنقل بنقودها. إنها تأتي كثيراً إلى المكتب، وتمكث وقتاً طويلاً حين قدومها. الآن هي جالسة بالقرب من طاولته وسط روائح العطور، تمسِّد مقبض مظلتها وتهز الريشة السوداء الكبيرة في قبعتها. والسيد آلين قد أدار كرسيه ليواجهها ورمى ساقه اليمنى برشاقة فوق ركبته اليسرى. وضع الرجل المراسلات على الطاولة وانحنى باحترام، ولكن لا السيد آلين ولا الآنسة ديلاكور انتبه لانحناءته. ربّت، السيد ألين باصبعه على المراسلات ومن ثم نقرها باتجاهه كأنه يقول: لابأس، يمكنك الذهاب.

عاد الرجل إلى الطابق السفلي، وعاود الجلوس إلى مكتبه. حدّق بإصرار في العبارة الناقصة: ولايحق للمدعو برنارد بودلي بأن ..." وفكّر كم هو غريب أن الكلمات الثلاث الأخيرة تبدأ بالحرف نفسه. بدأ رئيس الموظفين يحث الآنسة باركر على الاستعجال، قائلاً إنها لا يمكن أن تنهي نسخ الراسائل من أجل إرسالها بالبريد.

أنصت الرجل لقرقعة الآلة لبضع دقائق ثم باشر العمل لإنهاء نسخته. لكن رأسه لم يكن صافياً، وسرح عقله بعيداً إلى بريق

وضجيج الحانة. كانت أمسية جديرة بقضائها في شرب البنش الساخن. وجاهد ليعمل في النسخة. اللعنة! لا يمكن إنهائها في الوقت المحدد. تمنّى لو يسب بصوت عالي، لو يُنزِل قبضته بعنف على شيء ما. كان حانقاً جداً حتى أنه كتب برنارد برنارد بدل برنارد بودلي واضطر للبدء على صفحة جديدة.

شعر أنه مملوء بقوة كافية لتتيح له أن يطيح بالمكتب كله بضربة واحدة. وألح عليه جسمه بألم كي يقوم بعمل ما، كي ينطلق خارجاً ويعربد بعنف. وكل الإهانات التي تلقاها طوال حياته أثارت فيه الحنق... هل يمكنه أن يطلب من الصراف سراً أن يعطيه دفعة على الحساب؟ لا، الصراف خبيث، خبيث لعين. ولن يمنحه دفعة ... إنه يعرف أين سيقابل الفتيان: ليوناردو وأوهالوران ونوزي فلين. إن مقياس ضغط طبيعته الشعورية قد انطلق في نوبة ثورية.

وغيبته مخيلته إلى درجة أنهم نادوا على اسمه مرتين قبل أن يجيب. السيد آلين والآنسة ديلاكور واقفان أمام الطاولة وجميع الموظفين تحلّقوا في وضع توقّع شيء ما.

نهض الرجل عن مكتبه، وبدأ السيد آلين سيلاً من الإهانات، قائلاً إن هناك رسالتين ضائعتين. أجاب الرجل قائلاً إنه لا علم له بهما، وأنه قام بنسخ جيد. واستمر السيل: كان من القسوة والعنف بحيث لم يكد الرجل يتمالك نفسه من إنزال قبضته على رأس القزم الواقف أمامه.

"لاأعرف أي شيء عن أية رسالتين أخريين" قالها بغباء.

قال السيد آلين: "أنت -لا تعرف- شيئاً. طبعاً لا تعرف شيئاً. قل لي"

أضاف، بعد أن نظر إلى السيدة الواقفة إلى جانبه طلباً للإعجاب "هل تظنني أبلهاً؟ هل تظنني مجرد أبله؟"

نقل الرجل نظره من وجه السيدة إلى الرأس الشبيه بالبيضة الصغيرة، وعاد إليه ثانية. وقبل أن يعي ما يفعل، وجد لسانه برهة لبقة ليقول:

"لا أظن أنه سؤال عادل يوجّه إليّ".

توقفت حتى أنفاسهم لهذا الجواب. وذهل الجميع (فهو لا يقل عن جيرانه في ابتكاره للنكت) وبدأت الآنسة ديلاكور، الممتلئة المحببة، توسّع ابتسامتها. احمرّ السيد آلين بلون وردة برية، وارتعش فمه بانفعال قزم، وهزّ قبضته في وجه الرجل حتى بدت كأنها تتذبذب كمقبض آلة كهربائية ما.

"أنت متوحش وقح! وحش وقح! سأعاملك بما يليق بك! انتظر وسترى! سوف تعتذر لي لوقاحتك وإلا فسوف تغادر المكتب على الفور! ستغادر هذا المكان، أقول لك، أو تعتذر إليّ!"

وقف في ممر الباب مقابل المكتب، يراقب ليرى إن كان الصراف سيخرج وحده. ومرَّ جميع الموظفين، وأخيراً خرج الصراف مع رئيس الموظفين. كان مستحيلاً محاولة التفوه بكلمة واحدة بحضور رئيس الموظفين. شعر الرجل أن موقفه سيء جداً.

إنه مضطر لتقديم اعتذار مذلّ للسيد آلين لوقاحته، لكنه يعرف أي عش للدبابير سيغدو المكتب بالنسبة له. إنه يذكر كيف طرد السيد آلين بيك الصغير من المكتب ليفسح مكاناً لابن أخته. وشعر برغبة وحشية نهمة للانتقام، منزعجاً من نفسه ومن كل شخص آخر. لن يمنحه السيد آلين ساعة راحة بعد الآن. ستغدو حياته جحيماً له. هذه المرة جعل من نفسه أبلهاً حقاً. أما كان بوسعه أن يبتلع لسانه في فمه؟ ولكنهما لم يتوافقا منذ البداية، هو والسيد آلين، منذ اليوم الذي سمعه السيد آلين يقلّد لكنته الشمال ايرلندية ليسليٍّ هيغينز والآنسة

باركر، هذه كانت البداية. لعله يحاول الاقتراض من هيغينز، ولكن هيغينز لا يحمل نقوداً لمصروفه هو. إن رجلاً يدير مؤسستين، لا يستطيع طبعاً أن ....

شعر من جديد بجسمه الضخم يتألم رغبة للاستكانة إلى الحانة. بدأ الضباب يُشعره بالبرد، وتساءل إن كان يستطيع أن يلمس وتر الصداقة لدى أونيل. إنه لا يستطيع أن يطلب منه إلا شلناً واحداً إكراماً للصداقة- ولا نفع في شلن واحد. ولكن يجب أن يحصل على نقود من أي مكان، فقد أنفق آخر بنس على البورتر. وسرعان ما سيفوت الأوان على الاقتراض من أي مكان. وفجأة، بينما هو يلمس سلسلة ساعته بإصبعه، فكر في تيري كيلي ومكتب الرهان في شارع فليت. هذا هو بيت القصيد! لماذا لم يفكر به من قبل ؟

مشى خلال زقاق تمبل مسرعاً، مغمغماً لنفسه أنه يمكنهم جميعاً أن يذهبوا إلى الجحيم لأنه ينوي أن يقضي ليلة طيبة. قال الموظف في مكتب تيري كيلي إنها تساوي كراون، لكن المرسل لم يعطه سوى ستة شلنات، وفي آخر الأمر سُلّمت له الستة شلنات كاملة. خرج من عند المستر هن فرحاً، مكوّناً اسطوانة صغيرة من القطع النقدية الموضوعة بين الإبهام والأصابع. في شارع ويستمورلاند ازدحمت الطرقات بالشبان والنساء العائدين من العمل، بصبية ثيابهم رثة، يركضون هنا وهناك ويزعقون بأسماء عناوين صحف المساء. تخلّل الرجل الحشد، ناظراً إلى المشهد العام برضى فخور، ومحدّقاً بشموخ إلى فتيات المكاتب. كان رأسه مملوءاً بضجيج قرقعة الحافلات وحفيف الترولّلي، وسرعان ما اشتمَّ أنفه أبخرة البنش الملتوية. وعاد إلى التفكير في التعابير التي سيستخدمها في سرد الحادثة للفتيان، وهو يتابع طريقه.

سيفوت الأوان على الاقتراض من أي مكان. وفجأة، بينما هو يلمس سلسلة ساعته بإصبعه، فكر في تيري كيلي ومكتب الرهان في شارع فليت. هذا هو بيت القصيد! لماذا لم يفكر به من قبل ؟

مشى خلال زقاق تمبل مسرعاً، مغمغماً لنفسه أنه يمكنهم جميعاً أن يذهبوا إلى الجحيم لأنه ينوي أن يقضي ليلة طيبة. قال الموظف في مكتب تيري كيلي إنها تساوي كراون، لكن المرسل لم يعطه سوى ستة شلنات، وفي آخر الأمر سُلّمت له الستة شلنات كاملة. خرج من عند المستر هن فرحاً، مكوّناً اسطوانة صغيرة من القطع النقدية الموضوعة بين الإبهام والأصابع. في شارع ويستمورلاند ازدحمت الطرقات بالشبان والنساء العائدين من العمل، بصبية ثيابهم رثة، يركضون هنا وهناك ويزعقون بأسماء عناوين صحف المساء. تخلّل الرجل الحشد، ناظراً إلى المشهد العام برضى فخور، ومحدّقاً بشموخ إلى فتيات المكاتب. كان رأسه مملوءاً بضجيج قرقعة الحافلات وحفيف التروللي، وسرعان ما اشتمَّ أنفه أبخرة البنش الملتوية. وعاد إلى التفكير في التعابير التي سيستخدمها في سرد الحادثة للفتيان، وهو يتابع طريقه.

["إذن، اكتفيت بالنظر إليه - ببرود، كما تعلمون، ونظرت إليها. ثم عدت للنظر إليه - بكل تمهل، كما تعلمون، وقلت "لا أظنه سؤالاً عادلاً يوجّه إليّ"].

كان نوزي فلين جالساً في زاويته المعتادة في حانة دايفي براين، وحين سمع القصة طلب نصف كأس من المشروب لفارينغتن، قائلاً إنه أحذق ما سمع في حياته.

وطلب فارينغتن بدوره مشروباً. بعد قليل جاء أوهالوران وبادي ليوناردو، وأعيد سرد الحكاية لهما. طلب أوهالوران المولت الحار

للجميع، وحكى قصة الجواب السريع الذي ألقاه على مسامع رئيس الموظفين حين كان يعمل في شركة كالان في شارع فاونز، ولكن لما كانت قصة الجواب السريع معمولة على نمط الرعويات المتحررة في نظمها، اضطر للاعتراف بأنه لم يبلغ مهارة الرد الذي أطلقه فارينغتن. وعلى الأثر طلب فارينغتن من الفتيان أن يتركوا هذه السيرة ويبدأوا غيرها.

ما إن بدأوا بتسمية سمومهم حتى أطل هيغينز، ومن سيأتي إليهم غير هيغينز! طبعاً كان عليه أن ينضم إلى الآخرين. وطلب الرجال منه أن يروي القصة كما رآها هو، وفعل هذا بنشاط عظيم، فقد كان مرأى كؤوس الويسكي الخمسة الصغيرة الحارة مثيراً للهمّة.

ضج الجميع بالضحك حين مثّل كيف هزّ السيد آلين قبضته في وجه فارينغتن. ثم قلّد فارينتغتن، قائلاً، "وهنا تم القبض عليّ، وأنا هادئ كما تريدني" بينما راح فارينغتن ينظر إلى الشلة من خلال عينيه المثقلتين القذرتين، مبتسماً، وبين حين وآخر يلعق نقاطاً شاردة من المشروب من على شاربه بمساعدة شفته السفلى.

بعد انتهاء هذه الدورة من المشارب ساد الصمت. أوهالوران معه نقود، ولكن لايبدو أن مع أي من الاثنين الآخرين شيئاً منه، لذا تركت الشلة الحانة بشيء من الأسف. وعند زاوية شارع ديوك انحدر هيغينز ونوزي فلين إلى اليسار، بينما عاد الثلاثة الباقون أدراجهم إلى المدينة. كان المطر ينزل رذاذاً على الشوارع الباردة، وحين وصلوا مكتب بالاست، اقترح فارينغتن أن يذهبوا إلى حانة سكوتش. كان البار ملآن بالرجال ويهدر بالضجيج العالي من كلام وقرع كؤوس. دفع الرجال الثلاثة بائعي الكبريت العاوين ليمروا من

الباب، ثم شكلوا فرقة صغيرة عند زاوية المنضدة الطويلـــة. وبـــدأوا بتبادل الحكايا. وقدّمهم ليوناردو إلى شاب يدعى ويذرز يعمــــل فـــي مسرحِ تريفولي كلاعب أكروبات وفنان هزلي.

وزّع فارينغتن المشروب على الجميع. وقال ويذرز إنـــه يتنـــاول كأساً صغيرة من مشروب ايرلندي ومن مشروب الأبوليناريز. وسـأل فارينغتن، الذي كانت لديه أفكار محددة عما يجب أن يُطلب، وعما إن كان الفتيان بدورهم يريدون تناول الأبوليناريز أيضاً، لكـــن الفتيـــان قالوا له إنهم يريديون مشروبهم الساخن. وتحول الحديـــث مســـرحيّاً. وطلب أوهالوران دوراً ومن ثم طلـــب فـــارينغتن دوراً آخـــر مـــن المشارب. وويذرز يحتج على أن الضيافة إيرلندية جداً. ووعدهـــم أن يصحبهم إلى خلفية المشاهد ويعرّفهم إلى بعض الفتيات الجميـــــلات. قال أوهالوران إنه وليوناردو يريدان أن يذهبا، وإن فارينغتن لا يريـــد الذهاب لأنه رجل متزوج، ونظرت عينا فارينغتن المثقلتان القذرتـــان إلى صحبه نظرة جانبية دالاً على أنه فهم أنها مزحة. وجعلهم ويذرز يشربون دمعة صغيرة على حسابه، ووعدهم بملاقاتهم في وقت لاحق في حانة موليغان في شارع بوولبغ.

حين أغلقت حانة السكوتش هاوس أبوابـــها توجّـــها إلـــى حانــــة موليغان. دخلا إلى البهو من الخلف وطلب أوهالوران مشروباً حـــاراً خاصاً للجميع. وبدأ الجميع يشعرون بالمرح. وكان فارينغتن قد طلب لتوه مشروباً آخر حين عاد ويذرز. وارتاح لأنه هذه المـــرة تنـــاول مشروباً مراً. وبدأت النقود تنفذ، ولكن كان لديهم ما يكفي جلســـتهم. وسرعان ما دخلت فتاتان تعتمران قبعتين كبيرتين مع شاب يرتـــدي بذلة مربّعة الطباعة، وجلسوا على طاولة قريبة منهم. ســـلّم ويـــذرز عليهم وأخبر الفرقة أنهم من أعضاء فرقة تريفولي. وصارت عينـــا فارينغتن تجولان بزهو باتجاه إحدى الفتاتين.

ثمة في مظهرها شيء صاعق. حول قبعتها التفّ وشاح كبير من الموسلين الأزرق بلون الطاووس، وعُقِدَ بعقدة عظيمة تحت ذقنها، وقد ارتدت قفازاً بلون أصفر زاه، يصل حتى المرفقين. حدّق فارينغتن معجباً بالذراع الممتلئة التي كانت تحركها غالباً وبكثير من الرشاقة، وبعد بعض الوقت، حين أجابت على تحديقه أعجب أكثر بعينيها الكبيرتين السوداوين. فتنه التعبير في تحديقتهما المائلة ... نظرت إليه مرة أو مرتين، وبينما الفرقة تغادر المكان، مسّت كرسيه وقالت "أوه، باردون!" بلهجة سكان لندن. راقبها وهي تغادر المكان آملاً أن تعود للنظر إليه، ولكن خاب أمله. ولعن حاجته للنقود ولعن كل المشاريب التي وزّعها على ويذرز. وإذا كان ثمة شيء واحد يكرهه فهو التطفل. كان من الحنق بحيث فقد اهتمامه بحديث أصدقائه.

حين ناداه بادي ليوناردو وجد أنهم كانوا يتكلمون عن أعمال القوى الخارقة. كان ويذرز يعرض عضلته المثلثة للصحاب ويفاخر كثيراً حتى أن الآخرين طلبا من فارينغتن أن يدعم الشرف الوطني. رفع فارينغتن كمّه إلى أعلى على الأثر وعرض عضلته المثلثة للرفاق. وفُحِصَت الذارعان وقورنتا واتفقوا أخيراً على إقامة اختبار قوة.

نُظفت الطاولة ووضع الرجلان مرفقيهما عليها، وتماسكا بالأيدي. وحين هتف بادي ليوناردو قائلاً "ابدأ!" راح يحاول كل منهما أن ينزل يد الآخر إلى الطاولة. وبدا فارينغتن شديد الجدية والتصميم.

وبدأت المباراة. وبعد حوالي ثلاثين ثانية أنزل ويذرز يد خصمه ببطء إلى الطاولة. واحمّر وجه فارينغتن ذو اللون الخمري فبات قرمزياً من الغضب والمذلّة لأنه هُزِمَ على يد غلام مثل ذاك.

قال: " لا يُسمح لك بأن تضغط بثقل جسمك معها. العبْ بعدل"

وقال الآخر: "من الذي لا يلعب كما يجب؟"

"هيا من جديد. من يغلب مرتين يغلب الثلاثة"

وبدأت المباراة من جديد. ونتأت عروق فارينغتن عند الجبهة، وتحول شحوب وجه ويذرز إلى الاحمرار. وارتجفت ذراعاهما ويداهما من أثر الضغط. وبعد عراك طويل أنزل ويذرز أيضاً يد خصمه وببطء إلى الطاولة. وتصاعدت همهمة الاستحسان من النظارة. وهز الساقي الواقف بجانب الطاولة طاولتهم رأسه الأحمر باتجاه المنتصر: وقال بألفة بلهاء:

"آه، هذه هي البراعة!"

قال فارينغتن بضراوة: "ماذا تعني بهذا بحق الجحيم؟ "مستديراً إلى الرجل: "ماذا تقصد بثرثرتك هذه؟"

"ش، ش!" قال أوهالوران، ملاحظاً التعبير العنيف على وجه فارينغتن "لُفّوها، ياشباب، سنشرب كأساً أخرى ثم نذهب".

وقف رجل ذو وجه شديد التجهم عند زاوية جسر أوكونل ينتظر حافلة سانديمونت الصغيرة لتقلّه إلى منزله. كان يملؤه غضب كامن ورغبة في الانتقام. شعر بالامتهان والسخط، بل إنه لم يكن حتى يشعر بالسُكر، وليس في جيبه سوى بنسين. كان يسب كل شيء. لقد انتهى أمره في المكتب، ورهن ساعته، وأنفق كل نقوده، ولم يحصل حتى على السُكر. وبدأ يشعر بالعطش من جديد، وودّ لو يعود إلى الحانة الدافئة المسربلة بالروائح. ها قد خسر سمعته كرجل قوي، بعد أن هزمه صبي مرتين. كان قلبه ممتلئاً بالحنق، وحين فكر في المرأة ذات القبعة الكبيرة التي مسّته وقالت: "باردون!" كان حنقه يخنقه.

لفظته الحافلة في شارع شلبورن. قاد جسمه الضخم على طول الشارع في ظل سور الثكنة العسكرية. وكره أن يعود إلى

البيت. حين دخل من الباب الجانبي وجد المطبخ خالياً، ونار الموقد كادت أن تخبو، فعوى باتجاه الطابق العلوي:

"إيدا! إيدا"

كانت زوجته امرأة ذات وجه صغير حاد التقاطيع تتنمّر على زوجها حين يكون صاحياً من السُكر، ويتنمّر هو عليها حين يكون سكراناً. ولديهم خمسة أولاد. وأتى صبي صغير هابطاً الدرج مسرعاً.

"من هنا؟"قال الرجل، محملقاً في الظلام.

"أنا، بابا"

"من أنت؟ تشارلي؟"

"لا، يا بابا. توم"

"أين أمك؟"

"خرجت إلى الكنيسة"

"عظيم ... وهل فكرت في أن تترك لي أي شيء للعشاء؟"

"نعم، بابا. أنا –"

"أضيء المصباح. ماذا تقصد بترك المكان غارقاً في الظلمة؟ هل الأولاد الآخرون في أسرّتهم؟"

جلس الرجل بتثاقل على أحد الكراسي بينما أضاء الصبي المصباح. وبدأ يحاكي لهجة ابنه الباردة ساخراً، ويكاد يكلم نفسه "في الكنيسة. في الكنيسة، إذا شئت!"

حين أُشعِلَ المصباح ضرب على الطاولة وصرخ:

"وماذا عن عشائي؟"

"أنا ذاهب ... لأعدّه، بابا" قال الصبي الصغير.

انتفض الرجل بغضب وأشار إلى النار.

"على تلك النار! لقد تركت النار تنطفئ! يا إلهي. سأعلمك كيف تفعلها ثانية!"

تقدم خطوة نحو الباب وقبض على عصا المشي التي كانت قائمة خلفه.

"سأعلمك كيف تترك النار تخبو!" قال، رافعاً كمّه ليعطي ذراعه مجالاً للحركة.

هتف الولد الصغير "أوه، بابا!" وركض ينشج حول الطاولة، لكن الرجل تبعه وقبض عليه من معطفه. نظر الصبي الصغير حوله نظرة وحشية، ولما لم ير له مفراً، خرَّ واقعاً على ركبتيه.

"والآن، في المرة القادمة ستترك النار تخبو!" قال الرجل وهو يضربه بالعصا بعنف "خذ هذه، أيها الجرو الحقير!"

أطلق الصبي صرخة ألم طويلة بينما العصا تقطّع فخذه. وضم يديه معاً في الهواء وصوته يرتجف خوفاً. وهتف "أوه، بابا! لا تضربني، يا بابا! إنني سوف ... سأنشد لك "تحيا مريم" ... سأنشد لك "تحيا مريم"، يا بابا، إذا لم تضربني ... سأنشد "تحيا مريم" ..."

كلاي

كانت الرئيسة قد أذِنت لها بالخروج حال انتهاء السيدات من شرب الشاي، وكانت ماريا تهفو للّيلة التي تخرج فيها. المطبخ نظيف كأنه جديد، وقد قالت الطباخة إن بإمكانك أن تنظر إلى نفسك في الغلايات النحاسية الكبيرة. النار جميلة ساطعة وعلى إحدى زوايا الطاولة وضعت أربع قطع من كعك barmbracks الكبيرة . بدت هذه الكعكات غير مقطّعة، ولكن إذا اقتربت أكثر فسترى أنها مقطَّعة إلى شرائح طويلة سميكة ومستوية وجاهزة للتوزيع مع الشاي. لقد قطّعتها ماريا بنفسها.

وماريا مخلوقة ضئيلة، ضئيلة جداً بحق، ولكن لها أنف طويل جداً وذقن ناتئ جداً. وهي تتكلم قليلاً من أنفها، بهدوء غالباً "نعم، يا عزيزتي" و"لا، يا عزيزتي". وكثيراً ما تُستدعى حين تتشاجر النسوة على أحواض الغسيل، ودائماً تنجح في صنع السلام. وذات يوم قالت لها الرئيسة:

"ماريا، أنت صانعة سلام حقيقية!"

وسمعت الإطراء الرئيسة الأدنى واثنتان من سيدات المجموعة. وكانت جنجر موني تقول دائماً إنه لولا ماريا ما كانت لتعرف ماذا تفعل بالخرساء صاحبة المشاكل الكثيرة. إن الكل مولع بماريا.

تتناول النسوة الشاي في الساعة السادسة، ويمكنها أن تغادر قبل السابعة. من البالسبريدج إلى البيلار عشرون دقيقة، ومن البيلار إلى الكومكوندارا عشرون دقيقة، وتحتاج عشرين دقيقة لشراء الأغراض.

وستكون هناك قبل الثامنة. أخرجت كيس نقودها ذا المشبك الفضي وقرأت من جديد "هدية من بلفاست". إنها تحب ذاك الكيس كثيراً لأن جو اشتراه لها قبل خمس سنوات حين ذهب مع ألفي إلى بلفاست في رحلة يوم اثنين السَّجدة whit-Monday. في الكيس نصفا كراون وبعض القطع النحاسية. سيبقى معها صافي خمسة شلنات بعد أن تدفع أجرة الحافلة. كم ستكون أمسية ممتعة، ويغني الأطفال! فقط ليت جو لا يأتي وهو سكران. إنه يغدو مختلفاً جداً حين يشرب.

طالما أبدى أمنيته في أن تذهب لتعيش معهم، ولكن كانت ستشعر بأنها عقبة في طريقهم (مع أن زوجة جو كانت لطيفة جداً معها) ومن ثم اعتادت على الحياة في المصبغة. جو إنسان طيب. لقد ربّته وربّت ألفي أيضاً، وكان جو يقول:

"أمي هي أمي، أما ماريا فهي أمي الحقيقية".

بعد أن انفرط شملهم في البيت حصل الفتيان لها على عمل في مصبغة "دبلن في ضوء المصباح" وأحبته. من قبل كان رأيها سيئاً في البروتسانتيين، أما الآن فباتت تراهم أناساً لطفاء جداً، ربما هادئون قليلاً وجادون، لكنهم مع ذلك لطفاء وتحلو عشرتهم. ثم جمعت بعض النباتات في المستنبت الزجاجي واعتنت بها. كان لديها نبات السرخس ونباتات شمعية، وكلما أتى أحد لزيارتها تعطي زائرها دائماً شقة أو شقتين من مستنبتها. وكان ثمة شيء لا تحبه هو وجود بقع على الممشى، لكن الرئيسة كانت أنيسة المعشر، بالغة الرقة.

حين أخبرتها الطباخة أن كل شيء بات جاهزاً دخلت إلى غرفة النساء، وأخذت تنشد الجرس الكبير. خلال بضع دقائق بدأت النسوة بالدخول مثنى وثلاث، و هنّ يجففن أيديهن المتبخرة بتنانيرهن وينزلن أكمام بلوزاتهن على أذرعتهن الحمراء المتبخرة.

وجلسن أمام أباريقهن الضخمة التي ملأتها الطباخة والخرساء بالشاي الساخن الذي كان قد مزج بالحليب والسكر في تنكات كبيرة.

وأشرفت ماريا على توزيع الكعك وتأكدت من أن كل امرأة حصلت على أربع شرائح. وشاع الضحك والمزاح أثناء الوجبة. وقالت ليزي فليمنغ إن ماريّا ستجد حتماً من يُلبسها الخاتم، ورغم أن فليمغنع قد قالت هذا الكلام مرات عديدة في أعياد جميع القديسين، إلا أن ماريا كانت تضحك وتقول بأنها لا تريد أي خاتم أو أي رجل أيضاً. وحين كانت تضحك تشع عيناها الرماديتان المخضرتان بخجل مخيّب الرجاء، ويكاد رأس أنفها يقابل رأس ذقنها. ثم رفعت جنجر موني إبريقها واقترحت أن يشربن في صحة ماريا، بينما راحت بقية النساء يطرقن أباريقهن على الطاولة، وقالت إنها آسفة لأنه لا يوجد لديهاحتى جرعة بورتر واحدة تقدمها لهن. وضحكت ماريا ثانية حتى كاد طرف أنفها يقابل ذقنها، وكاد جسمها الضئيل يتفتت إرباً من الاهتزاز، لأنها عرفت أن قصد موني شريف، رغم أن لها حماقات امرأة رخيصة.

ولكن ألم تفرح ماريا حين انتهت النسوة من شرب شايهن وبدأت الطباخة مع الخرساء بإزالة عدّة الشاي!

دخلت إلى غرفة نومها الصغيرة، ولما تذكرت أن الصباح التالي هو صباح القداس، غيّرت مفتاح المنبّه من السابعة إلى السادسة. ثم خلعت ثوب العمل وحذاءها المنزلي، ووضعت أفضل تنانيرها على السرير، وحذاءً صغيراً جداً يتماشى والثوب عند قدم السرير. وبدّلت بلوزتها أيضاً، ولما وقفت أمام المرآة، راحت تفكر في الأيام التي كانت ترتدي فيها ثوب القداس صباح يوم الأحد حين كانت شابة، ونظرت بحب طريف إلى جسدها المنمنم الذي طالما عشقته. ورغم مرور السنين كانت ماتزال ترى فيه جسداً صغيراً جميلاً مرتّباً.

حين خرجت رأت الشوارع تلمع من المطر، وكانت فرحة بمعطف المطر البني العتيق. كانت الحافلة ممتلئة، فاضطرت إلى

الجلوس على المقعد الصغير الموجود في آخر السيارة، مواجهة كل الناس، وأصابع قدميها لا تكاد تلمس الأرضية. وراحت ترتّب في دماغها كل ما سوف تفعله. وفكرت كم هو أفضل أن يكون المرء مستقلاً وتكون له نقوده الخاصة به في جيبه الخاص. وتمنّت أن يقضوا أمسية جميلة. كانت واثقة من ذلك، ولكن لم تستطع إلا أن تأسف لأن ألفي وجو لم يعودا يتكلمان. إنهما يتشاجران كثيراً في هذه الأيام، ولكن حين كانا ولدين كانا من أفضل الأصدقاء، ولكن هذه هي الحياة.

ترجلت من الحافلة في البيلار وحثّت خطوتها مسرعة بين الحشود. دخلت محل داونس لبيع الكعك، لكن المحل كان مزدحماً بالناس بحيث لن تتمكن من الشراء قبل مرور وقت طويل. اشترت دزينة من كعك البنس، وأخيراً خرجت من المحل مثقلة بحمل كبير. ثم فكرت ماذا تشتري أيضاً؟ لقد أرادت أن تبتاع شيئاً جميلاً حقاً.

لديهم حتماً الكثير من التفاح والمسكرات. كان من الصعب معرفة ما يجب شراؤه، وكل ما استطاعت التفكير فيه هو الكعك. وقررت أن تشتري كعك الـ plumcakes، لكن كعك داونس لا يوجد في أعلاه كمية كافية من اللوز والكريما، لذا ذهبت إلى محل في شارع هنري. هنا أمضت زمناً طويلاً لتجد لديه ما يرضيها، وسألتها الفتاة الشابة الأنيقة الواقفة خلف المنضدة، وكانت واضحة الانزعاج منها، إن كان كعك الأعراس هو ما تريد. و هذا ما جعل ماريا تحمّرّ خجلاً وتبتسم للصبية، غير أن الفتاة كانت جادة بكل معنى الكلمة، وأخيراً قطعت قطعة سميكة من الـ plumcakes، ولفّتها وقالت:

"شلنين وأربعة بنسات، من فضلك".

اعتقدت أنها ستضطر للوقوف في حافلة الكومكوندارا لأن أحداً لم يبدُ أنه رآها من الشبان، غير أن رجلاً كبيراً في السن أفسح لها

مكاناً. كان رجلاً ضخماً ويرتدي قبعة بنية قاسية، و جهه مربّع أحمر وشاربه يتخلّله الشيب. ظنت ماريا أن مظهره يشير إلى أنه كولونيل، وفكرت، كم هو أشد أدباً وتهذيباً من الشبان الذين اكتفوا بالتحديق ببساطة أمامهم. وبدأ الرجل يحادثها عن عيد جميع القديسين وعن الطقس الماطر. وخمّن بأن الحقيبة ملأى بالأشياء الطيبة للصغار، وقال إن أفضل ما يفعله الشبان هو أن يستمتعوا بشبابهم. ووافقت معه ماريا وأيدته بإيماءات وهمهمات محتشمة. كان رقيقاً معها جداً، وعندما أوشكت أن تنزل عند جسر القنال، شكرته وانحنت، وانحنى لها ورفع قبعته وابتسم ابتسامة لطيفة، وبينما هي تسير بمحاذاة السور، تحني رأسها الصغير تحت المطر، فكّرت كم هو سهل التعرّف إلى رجل حتى وإن كان سكيراً.

قال الجميع "أوه، ها هي ماريا!" حين وصلت إلى بيت جو. كان جو هناك، وقد عاد من عمله، وارتدى جميع الأولاد ثياب الأحد. كان معهم فتاتان من الجيران وكانت الألعاب دائرة. سلّمت ماريا حقيبة الكعك إلى الولد الأكبر، ألفي، ليوزعها، وقالت السيدة دونيللي إنه منتهى الطيبة منها أن تحضر حقيبة كبيرة من الكعك، وجعلت الأولاد جميعاً يقولون:

"شكراً، يا ماريا"

لكن ماريا قالت إنها جلبت شيئاً خاصاً للبابا والماما، شيئاً سيحبانه حتماً، وبدأت تبحث عن كعك الـ plumcaks. فتشت في حقيبة محل داونس ثم جيوب معطف المطر ثم في الصالة، لكنها لم تجده. ثم سألت كل الأطفال إن كان أي منهم قد وجده – خطأ، طبعاً – لكن الأطفال كلهم قالوا لا، وبدوا كأنهم لا يريدون أن يأكلوا كعكاً إذا كانوا سيتهمون بالسرقة. وقدّم كل من الموجودين حلاً للسر الغامض، وقالت السيدة دونلي إنه من الواضح أن ماريا قد تركتها في الحافلة. ولما تذكرت ماريا كم أربكها الرجل ذو الشارب المشوب، احمرّت

خجلاً وغيظاً وخيبةً. ولدى تفكيرها في فشلها في مفاجئتها الصغيرة بالشلنين والأربعة بنسات التي رمتها بلا فائدة، كادت تبكي بلا تحفظ.

لكن جو قال إنه لا يهم، وأجلسها بالقرب من النار. إنه لطيف جداً معها. وحكى لها كل ما حدث في مكتبه، معيداً على أسماعها الجواب اللّماح الذي ألقاه على المدير. ولم تفهم ماريا لماذا ضحك جو كثيراً على الجواب الذي ألقاه، ولكن قالت إنه لا بد أن المدير مستبد كثيراً في معاملته. وقال جو إنه ليس سيئاً جداً حين يعرف المرء كيف يعامله، وأنه يكون من النوع اللبق طالما أنك لا تحتكّ به بالطريقة الخاطئة.

وعزفت السيدة دونيللي على البيانو من أجل الأطفال ورقصوا وغنوا. ثم وزّعت فتاتا الجيران المكسرات. ولم يستطع أحد العثور على كسّارة الجوز، وكاد جو يفقد أعصابه بسبب هذا. وسأل كيف يتوقعون من ماريا أن تكسّر الجوز دون كسّارة؟ لكن ماريا قالت إنها لا تحب الجوز ولا داعي للقلق بشأنها. ثم سأل جو إن كانت ترغب أن تأخذ زجاجة من الستوت؟ وقالت السيدة دونيللي إنه يوجد أيضاً خمر البورت في البيت إذا كانت تفضّله. وقالت ماريا أنها تفضِّل أن لا يسألوها أن تتناول أي شيء، لكن جو ألحّ.

وهكذا تركته ماريا يتصرف كما يشاء. وجلسوا قرب النار يتحدثون عن الأيام الخوالي. وفكّرت ماريا بأن توصي بألفي خيراً. لكن جو هتف فليلعنه الله إلى الأبد إذا خاطب أخاه بكلمة واحدة ثانية. وقالت ماريا إنها آسفة لأنها ذكرت الموضوع. وقالت السيدة دونيللي لزوجها إنه لعار عظيم عليه أن يتحدث عن أخيه بهذا الأسلوب وهو من لحمه ودمه، لكن جو قال إن ألفي ليس أخاً له، وكاد يقع شجار حول الموضوع. لكن جو قال إنه لن يعكّر مزاجه في تلك الليلة الخاصة، وطلب من زوجته أن تفتح مزيداً من زجاجات البورت. وأعدَّت فتاتا الجيران بعض الألعاب الخاصة بيوم عيد جميع القديسين. وسرعان ما عاد الحبور يسري بينهم. وابتهجت ماريا

لرؤية الأطفال مرحين جداً، وجو وزوجته بروح عالية. ووضعت فتاتا الجيران بعض الصحاف على الطاولة، ثم قادتا الأطفال إلى الطاولة، معصوبيّ العيون. وأحضر أحدهم كتاب الصلوات وأحضر الثلاثة الآخرون الماء، وعندما أحضرت إحدى فتاتي الجيران الخاتم هزّت السيدة دونيللي إصبعها في وجه الفتاة المحمرة خجلاً، كأنها تقول لها "أوه، أعرف إلى ما ترمين!" ثم أصروا على عصب عينيّ ماريا وقادوها إلى الطاولة ليروا على ماذا ستحصل، وبينما هم يضعون لها العصابة، ضحكت ماريا وضحكت ثانية إلى أن كاد طرف أنفها يقابل طرف ذقنها.

ثم قادوها إلى المائدة وسط الضحك والمزاح. ومدَّت يدها في الهواء كما أخبروها. وحرّكت يدها هنا وهناك في الهواء وأنزلتها إلى إحدى الصحاف. وشعرت بمادة رطبة لينة بين أصابعها، واستغربت لأن أحداً لم يتكلم أو يخلع عنها العصابة. وساد صمت لبضع ثوان، ومن ثم الكثير من اللغط والهمس. وقال أحدهم شيئاً عن الحديقة، وأخيراً قالت السيدة دونيللي شيئاً بلهجة استنكار لإحدى فتاتيّ الجيران، وأخبرتها بأن ترميه بعيداً على الفور. لم يكن الأمر لعباً. وفهمت ماريا أن في الأمر خطأ هذه المرة، وأن عليها أن تلعب من جديد. وفي هذه المرة حصلت على كتاب الصلوات.

بعد ذلك لعبت السيدة دونيللي لعبة "بَكَرَة الآنسة ماكلاود" للأولاد، وجعل جو ماريا تشرب كأساً من الخمر. وسرعان ما استعادوا مرحهم من جديد، وقالت السيدة دونيللي إن ماريا ستدخل الدير قبل انقضاء العام لأن كتاب الصلوات كان من نصيبها. لم ترَ ماريا جو بالظرف الذي كان عليه في تلك الأمسية. كان عامراً بالحديث الممتع والذكريات. وقالت إنهم جميعاً شديدو اللطف معها.

أخيراً ملّ الأولاد ونعسوا، وطلب جو من ماريا أن تغني أغنية صغيرة قبل ذهابها، واحدة من الأغاني القديمة، وقالت السيدة دونيللي "غن، من فضلك، يا ماريا!"

هكذا كان على ماريا أن تنهض وتقف بجانب البيانو. وطلبت السيدة دونيللي من الأولاد أن يهدأوا وينصتوا إلى أغنية ماريا. ومن ثم عزفت المقدمة وقالت "ابدأي الآن، يا ماريا!" واشتدّ احمرار وجه ماريا خجلاً، وبدأت تغني بصوت رفيع مرتعش، وغنّت "حلمت أني أسكنُ" وحين أتت إلى المقطع الثاني عادت تغني:

وحلمتُ أني أسكن في قاعات من الرخام
يحيط بي الخدّام والعبيد،
ومن بين كل من تحويه تلك الجدران
كنت العروس المرجوّة
كان لدي أملاك لا تعدّ ولا تحصى، وأفخر
بمنزلتي العالية واسمي العريق،
لكني حلمت أيضاً، مما أسعدني أكثر، أنك بقيتَ على حبي كما
كنت..."

ولكن لم يحاول أحد أن يبينّ لها خطأها، وبعد أن انتهت أغنيتها شعر جو بتأثر عظيم. قال إنه لا شيء يضاهي أيام زمان، ولا موسيقى تجاري موسيقى العجوز المسكين بالف[1]، مهما قيل عنه، و امتلأت عيناه حتى الزبا بالدموع، ولم يعد يعرف عما كان يبحث، وأخيراً اضطر إلى سؤال زوجته كي تخبره عن مكان فتّاحة القناني.

(1) ميخائيل ويليم بالف BALFE: (1808—1870-) مؤلف موسيقي ايرلندي ومغني وعازف كمان. درس الموسيقى في لندن وإيطاليا. له 29 أوبرا أشهرها "البوهمية" 01843). المترجم.

قضية مؤلمة

عاش السيد جيمس دفي في تشابليزود لأنه أراد أن يبتعد ما أمكن عن المدينة التي كان فيها مواطناً، ولأنه وجد كل الضواحي الأخرى لدبلن وضيعة، حديثة، ومدعية. وقطن في بيت عتيق كئيب، يطل من نوافذه على معمل التقطير المهجور، ويسعه أن ينظر بعيداً على طول النهر الضحل الذي قامت دبلن على ضفافه. كانت جدران غرفته العارية من السجاد، المتغطرسة، متحررة من اللوحات. وقد ابتاع بنفسه أثاث الغرفة: سرير حديدي أسود ،ومغسلة حديدية، أربع كراسي خيزران، علاّقة ثياب، دلو للفحم، وسياج للمدفأة ومكواة وطاولة مربّعة لها مقعد مزدوج.

وثمة مكتبة موجودة في تجويف خاص بها صنعت من رفوف خشبية بيضاء. السرير مجلل بشراشف بيضاء، وهناك بساط أسود وقرمزي يغطي قدمه،كماعلّقت مرآة يد صغيرة فوق المغسلة. وخلال النهار يقف مصباح ذو ظِلّة بيضاء كزينة وحيدة لرف المدفأة، أما الكتب الموجودة على الرفوف الخشبية البيضاء فقد رتِّبت من أسفل إلى أعلى حسب الحجم. على أحد طرفي الرف السفلي توجد مجموعة كاملة لأشعار وورد زوورث ونسخة من طبعة ماينوث لكتاب الصلوات، وقد خيطت بغلاف قماشي داخل مذكرة، تقف على أحد طرفيّ الرف العلوي. وعلى الطاولة توجد دائماً أدوات للكتابة. وفي درج المكتب تقبع مخطوطة ترجمة لمسرحية هوبتمن"ميخائيل

كرامر"، عليها كتبت إرشادات المسرحية بحبر قرمزي، وحزمة صغيرة من الورق تثبت بدبوس نحاسي. في هذه الأوراق كنت ترى بين الحين والآخر جملة مخطوطة، وقد ألصق على الورقة الأولى ، في لحظة ساخرة، عنوان كبير لإعلان تجاري عن "بقول بايل" .لدى رفع غطاء المكتب يهرب منه عبق خفيف، هو عبق أقلام رصاص جديدة من خشب الأرز أو زجاجة صمغ أو تفاحة عفنة من كثرة النضج، تركت هناك ونسيت.

كان السيد دفي يمقت كل ما يدل على الفوضى المادية أو الذهنية. وطبيب من القرون الوسطى كان سيصفه بالكئيب.وجهه الذي يحمل حكاية عمره كلها، لونه بني خفيف هو لون شوارع دبلن. على رأسه الطويل الكبير ينمو شعر أسود جاف، وثمة شارب أسمر مصفر لا يغطي تماماً فماً غير جذاب. وعظم وجنتيه أيضاً أضفى على وجهه سمة خشنة، ولكن لم تكن هناك خشونة في عينيه اللتين، حين تنظران إلى العالم من تحت حاجبيهما الأسمرين المصفرين، تعطيان الانطباع بأنه رجل دائم التوثب لتحية غريزة مخلّصة في الآخرين، لكنه غالباً ما يحبط. لقد عاش مبتعداً قليلاً عن جسمه، يحسب تصرفاته بنظرات جانبية مرتابة. كانت له عادة ذاتية غريبة جعلته يؤلف في عقله من حين لآخر جملة قصيرة حول نفسه تحوي موضوعاً بلسان الشخص الثالث وصيغة الزمن الماضي. وهو لم يتصدق مرة للفقراء، ويمشي بصرامة، حاملاً عصا ضخمة من خشب الجوز.

ظل طوال سنين عديدة يعمل صرّافاً في مصرف خاص في شارع باغوت. وكل صباح يأتي من تشابليزود بالحافلة. وعند الظهيرة يذهب إلى محل دان بيرك ليتناول غداءه المكون من زجاجة بيرة معتّقة وملء صينية صغيرة من بسكويت الأروروتarrouroot.وفي الرابعة يطلق سراحه. ويتناول عشاءه في مطعم من شارع جورج، حيث كان

يشعر بالاطمئنان بعيداً عن مجتمع شباب دبلن المبهرج، وحيث ثمة إخلاص معين بسيط في قائمة الطعام. وكانت أمسياته تقضى إما بالجلوس أمام بيانو صاحبة المنزل أو متمشياً في ضواحي المدينة. وكان حبه لموسيقى موتسارت يقوده أحياناً لحضور أوبرا أو كونشيرتو، وهي ملذته الوحيدة في حياته.

لم يكن لديه رفاق أو أصدقاء، ولا كنيسة ولا معتقد. عاش حياته الروحية دون الانتماء إلى طائفة معينة مع الآخرين، يزور أقاربه في عيد الميلاد ويرافقهم إلى القبر عند موتهم. وقد قام بهذين الواجبين الاجتماعيين إكراماً للمنزلة القديمة، لكنه لم يمنح أكثر من ذلك للتقاليد التي تنظم الحياة المدنية. وسمح لنفسه بالتفكير في أنه فيّ ظروف معينة سيسرق المصرف، ولكن لم تتوفر هذه الظروف، واستمرت حياته بإيقاعها المعتاد: حكاية لا تتخللها مغامرات.

ذات أمسية وجد نفسه جالساً إلى جانب سيدتين في القاعة المستديرة. وقد أوحى المسرح، قليل الرواد والصامت، بنبوءة مقبضة بالفشل. ونظرت السيدة الجالسة إلى جانبه حولها إلى الصالة المقفرة مرة أو مرتين ثم قالت:

"أمر مؤسف أن يكون الحضور قليلاً هذا المساء شيء صعب أن يضطر المرء للغناء للمقاعد الخالية".

واعتبر الملاحظة بمثابة دعوة للحديث. ودهش لأنها لم تبد مرتبكة إلا قليلاً. وبينما هما يتحدثان حاول باستمرار أن يثبتها في ذاكرته. وحين علم أن الصبية الجالسة إلى جانبها هي ابنتها خمّن أن عمرها يقل عن عمره بسنة أو نحوها.

وقد حافظ وجهها، الذي لا بد أنه كان وسيماً،على ذكائه. كان وجهاً بيضاوياً ذا تقاطيع قوية التحديد. العينان عميقتا الزرقة

وهادئتان. بدأت تحديقتهما جريئة، لكنها اضطربت بما بدا أنه غياب متأنٍ للبؤبؤ داخل قزحية العين، كاشفاً لبرهة عن مزاجٍ على قدر عظيم من الحساسية. وأكد البؤبؤ على نفسه من جديد بسرعة، ووقعت هذه الطبيعة شبه المكشوفة تحت سيطرة الحكمة، وجاكيتها الاستراخان، الذي يشكل حجماً من الامتلاء المعين، عبّر عن التحدي بوضوح أكبر.

قابلها مرة ثانية بعد ذلك ببضعة أسابيع في حفلة كونشيرتو في الإيرلزفورت تيريس، وانتهز شرود انتباه ابنتها ليعاملها بألفة. وألمحت مرة أو مرتين إلى زوجها، لكنها لم تقصد أن تجعل من ملاحظتها تحذيراً. كان اسمها السيدة سينيكو. جد زوجها الأكبر أتى من ليغهورن. وكان زوجها قبطان مركب تجاري يسافر بين دبلن وهولندا، وكان لديهما ولد واحد.

حين قابلها للمرة الثالثة مصادفة، وجد الشجاعة ليحدد معها موعداً. وأتت.كان ذلك أول سلسلة من المواعيد، كانا يتقابلان دائماً مساء، ويختاران أكثر الأماكن هدوءاً ليتمشيا فيها. على أية حال، كان السيد دفي ينفر من الأساليب الماكرة، ولما وجد أنهما مضطران للتقابل خفية، أجبرها على أن تطلب منه الحضور إلى بيتها. وشجع الكابتن سينيكو زياراته، ظناً منه أنه ينوي طلب يد ابنته. وكان قد أبعد زوجته وبإخلاص شديد عن دائرة متعه، بحيث لم يشك بأن أحدهم سيهتم بها. ولما كان الزوج دائم الغياب عن البيت، والابنة تعطي دروساً في الموسيقى، توفرت للسيد دفي فرص كثيرة للاستمتاع بصحبة السيدة. ولم يكن هو ولا هي قد مرا بمغامرات كتلك من قبل، ولم يعِ أي منهما بوجود أي تنافر بينهما. وشيئاً فشيئاً راحا يتبادلان الأفكار. فأعارها كتباً، وزودها بالأفكار، وشارك كل منهما صاحبه بحياته الفكرية.

لقد أنصتت إلى كل شيء .

كانت أحياناً تبوح له مقابل النظريات التي يطرحها عليها ببعض الحقائق عن حياتها الخاصة. وألحت عليه بقلق أمومي ليترك طبيعته تنطلق على سجيتها. لقد أصبحت كاهنة اعترافه. أخبرها أنه واظب لبعض الوقت على حضور اجتماعات حزب ايرلندي اشتراكي، حيث شعر أنه شخصية فريدة وسط العديد من العمال الكئيبين في عليّة مضاءة بمصباح كاز خافت. وحين انقسم الحزب إلى ثلاث جبهات، كل منها لها قائدها الخاص وعليّتها الخاصة، كف عن الحضور. قال: إن مناقشات العمال كانت تتميز بالجبن الشديد، وكان اهتمامهم بمسألة الأجور غير عادي. وشعر بأنهم واقعيون متطرفون، وأنهم كانوا مستائين من دقة هي نتاج وقت فراغ لا يطالونه. وأخبرها بأنه لن تحدث أية ثورة تدك دبلن قبل مرور قرون عدة.

سألته لماذا لا يخرج أفكاره كتابة. ولمَ؟ سألها، بازدراء حذر. ليتبارى مع تجار الكلام، الذين لا يستطيعون التفكير مدة ستين ثانية متواصلة؟ ليسلّم نفسه لانتقادات طبقة وسطى بلهاء تعهد بأخلاقياتها إلى رجال البوليس بفنونها الجميلة إلى مدراء عامين؟

كان يتردد غالباً إلى كوخها الصغير الكائن خارج دبلن، وغالباً ما كانا يقضيان الأمسيات وحدهما. وشيئاً فشيئاً، بينما كانت أفكارهما تتضافر، أخذا يتحدثان في مواضيع أقل نأياً. وكانت صحبتهما كتربة دافئة حول تربة غريبة. وسمحت عدة مرات للظلام أن يهبط عليهما محجمة عن إضاءة المصباح. كانت الغرفة المظلمة السرية، وعزلتهما، والموسيقى التي ما زال رجع صداها في آذانهما وحدهما، وهذا الاتحاد، هو ما أثاره، وأزال الجوانب الخشنة عن شخصيته، وأضفى المشاعر على حياته العقلية. كان أحياناً يضبط نفسه وهو

ينصت إلى صوته هو. ظن أنه في عينيها سيرقى إلى مرتبة الملائكة. وبينما كان يتعلق أكثر فأكثر بطبيعة رفيقته المتّقدة، سمع الصوت المجرد الغريب الذي عرف فيه صوته الخاص، يلحّ على وحشة الروح الأبدية. قال: إننا لا نستطيع وهب أنفسنا: نحن نخص أنفسنا. وكانت نهاية تلك المقابلات ذات أمسية، حين ظهرت عليها كل علائم التوتر غير العادي، وضمت السيدة سينيكو يده بولع، وضغطتها على وجنتيها.

دهش السيد دفي أيّما دهشة، وحرره تأويلها لكلماته من الوهم. وأحجم عن زيارتها مدة أسبوع، ثم كتب لها يطلب منها مقابلته. ولما لم يكن يريد أن تتعكر مقابلتهما بتأثير من كرسي اعترافها المحطم، تقابلا في محل لبيع الكعك صغير قرب باركغيت. كان الطقس خريفياً بارداً، ولكن بالرغم من البرد راحا يتمشيان في ممرات الحديقة العامة جيئة وذهاباً طوال قرابة الثلاث ساعات. واتفقا على أن يفصما علاقتهما، وقال إن كل رباط هو رباط يؤدي إلى الحزن. وحين غادرا الحديقة مشياً في صمت باتجاه الحافلة، بدأت ترتعش بعنف شديد، حتى أنه، وخشية أن يحدث لها انهيار آخر، ودعها مسرعاً وتركها. بعد ذلك ببضعة أيام تسلم لفافة تحوي كتبه وموسيقاه.

مرت أربع سنوات. وعاد السيد دفي إلى أسلوب حياته المنتظم. وظلت الغرفة شاهداً على منهجية عقله. وازدحمت بعض المقطوعات الموسيقية الجديدة على حامل النوتات في الغرفة السفلى، ووقف على رفوفه مجلدان لنيتشه."هكذا تكلم زرادشت" و"العلم المرح". كان نادراً ما يكتب على حزمة الورق الموجودة في درج مكتبه. وواحدة من جمله، التي كتبها بعد شهرين من آخر مقابلة له مع السيدة سينيكو تقول :"الحب بين رجل وامرأة مستحيل لأنه لا يجب أن تقوم بينهما

علاقة جنسية، والصداقة بين رجل وامرأة مستحيلة لأنه يجب أن تقوم بينهما علاقة جنسية." ثم امتنع عن حضور الحفلات الموسيقية خوفاً من أن يقابلها.ومات والده، وتقاعد الشريك الأصغر في البنك .

ومع ذلك ظل يذهب إلى المدينة كل صباح بالحافلة، ويتمشى كل مساء عائداً من المدينة إلى البيت بعد أن يتناول عشاء معتدلاً في شارع جورج، ويقرأ صحيفة المساء بدل أن يتناول طبق الحلوى.

ذات مساء حين كاد يضع اللقمة الأولى من لحم البقر المقدد مع الملفوف في فمه توقفت يده.وتجمدت عيناه على فقرة في صحيفة المساء التي كانت مثبتة على إبريق الماء.وأعاد اللقمة إلى الصحن وراح يقرأ الفقرة بإمعان. ثم جرع كأساً من الماء، ونحى صحنه جانباً، وطوى الصحيفة أكثر أمامه بين مرفقيه وأعاد قراءة الفقرة مرة بعد أخرى. وبدأ الملفوف يرسب شحماً أبيض بارداً على صحنه.اقتربت الفتاة منه لتسأله إن كان الطعام غير ناضج كما يجب. فقال إنه جيد جداً، وأكل بعض اللقيمات الأخرى بصعوبة ثم دفع الحساب وخرج.

حث طريقه مسرعاً خلال شفق تشرين الثاني، وعصاه الجوز الضخمة تضرب الأرض بانتظام، وأهداب صحيفة "الميل" الصفراء تنتأ من جيب جانبي في معطفه السميك الضيق. وعلى الطريق الموحشة المؤدية من باركغيت إلى تشابيليزرود أبطأ خطواته. وراحت عصاه تطرق الأرض بشدة أخف، وقصرت أنفاسه التي كانت تخرج بلا انتظام، وأقرب إلى اللهاث، في الهواء الشتوي. ولدى وصوله إلى منزله صعد من فوره إلى غرفة النوم، وبعد أن أخرج الصحيفة من جيبه شرع يقرأ الفقرة من جديد على الضوء الضعيف الآتي من النافذة. قرأها ولكن ليس بصوت عال، بل راح يحرّك شفتيه كما يفعل القس حين يتلو صلواته سراً. وكانت الفقرة كما يلي:

موت سيدة في محطة سيدني باريد
قضية مؤلمة

أجرى اليوم مندوب المحقق في الوفيات (بغياب السيد ليفـــيريت)، في مستشفى مدينة دبلن، فحصاً على جسد الســـيدة إميلـــي ســـينيكو، البالغة الثالثة والأربعين من العمر، والتي قتلت في محطـــة ســـيدني باريد مساء أمس. وقد بيّنت الدلائل أن السيدة المغدورة اصطدمـــت، وهي تحاول عبور الخط، بمحرك قطار الســـاعة العاشـــرة البطـــيء القادم من كينغستاون، وأصيبت على الأثر بجروح في الرأس وفـــي جنبها الأيمن، أدت إلى موتها .

وقد أعلن جيمس لينون، سائق المحرك، بأنه يعمل بخدمة شـــركة السكك الحديدية منذ خمس عشرة سنة. ولدى سماعه صفير الحـــارس تحرك القطار، وبعد ذلك بثانية أو ثانيتين أعاده إلى وضع الســـكون حين سمع الصراخ. لقد كان القطار يتحرك ببطء.

وصرح ب.دن، العامل في المحطة أنه بينما كان القطـــار علـــى وشك الانطلاق لاحظ امرأة تحاول عبور الخطوط،فركـــض نحوهـــا وهتف، لكن مصدّ المحرك ضربها، قبل أن ينجح في الوصول إليـــها، وسقطت على الأرض.

صحفي: هل رأيتها تسقط؟

شاهد: نعم.

وشهد رقيب الشرطة كورلي أنه حين وصل وجد المتوفاة ممـــددة على الرصيف، وكان واضحاً أنها ميتة. فنقـــل الجثـــة إلـــى غرفـــة الانتظار ريثما تصل عربة الإسعاف.

وأيّد رجل الشرطة 57 كلامه.

وصرح الدكتور هالبن، مساعد دار الجراحة في مستشفى مدينـــة دبلن، أنه كسر للمغدورة ضلعان ســـفليان وأصيـــب كتفـــها الأيمـــن

برضوض شديدة. والجهة اليمنى من الرأس تضرّرت بفعل السقطة. وما كانت الجروح تكفي لتسبيب الوفاة للشخص العادي. أما الوفاة في رأيه، فلعله يعود للصدمة ولتعطّل مفاجئ في عمل القلب.

عبّر السيد هـ.ب بارترسن، باسم شركة السكك الحديدية، عن أسفه العميق لوقوع الحادث. فلطالما اتخذت الشركة كل حيطة لمنع الناس من اجتياز الخطوط إلا عن طريق الجسور، وذلك بوضع اللوحات في كل محطة وباستخدام أبواب ذات رفاصات مضمونة بمحاذاة المعابر. وقد اعتادت المتوفاة أن تعبر الخطوط في وقت متأخر من الليل من رصيف إلى رصيف، وبالرجوع إلى بعض الظروف الخاصة المتعلقة بالقضية، لم ير أن اللوم يقع على موظفي الشركة.

وأدلى القبطان سينيكو، من ليوفيل، منطقة المحطة، زوج المرحومة، بدوره بشهادته. قال إن المرحومة هي زوجته. وهو لم يكن موجوداً في دبلن وقت وقوع الحادث، إذ انه وصل فقط هذا الصباح من نوتردام. وهما متزوجان منذ اثنين وعشرين عاماً، وظلت حياتهما سعيدة حتى قبل حوالي العامين حين بدأت زوجته تدمن على الخمر.

وقالت الآنسة ميري سينيكو إن أمها صارت في الآونة الأخيرة تخرج ليلاً لتشتري المشروبات الروحية. وقد حاولت هي، الشاهدة، أن تعقل أمها، وتحاول إقناعها بالانضمام إلى أحد النوادي. وهي لم تعد إلى المنزل إلا بعد الحادثة بساعة.

وقد أصدرت هيئة المحكمة حكماً طبقاً للدلائل الطبية يحل لينون من كل تبعة.

وقال مندوب محقق الوفيات إنها كانت قضية مؤلمة جداً، وعبّر عن عظيم تعاطفه مع القبطان سينيكو وابنته. وألح على شركة السكك

الحديدية باتخاذ الإجراءات لمنع إمكانية وقوع حوادث مشابهة في المستقبل. ولم يوضع اللوم على أحد .

رفع السيد دفي عينيه عن الصحيفة، وحدّق بنظره خارج النافذة في المشهد المسائي المبهج. النهر ممتد هادئ بالقرب من معمل التقطير الخالي، وبين آونة وأخرى يظهر ضوء في أحد البيوت على طريق لوكان. يا له من مصير! لقد أثارته قصة موتها، أثارته للتفكير في أنه لم يبح لها أبداً بما يكنه لها في سريرته. وهاجمت معدته العبارات الرثة، وتعابير التعاطف السخيفة، والكلمات الحذرة للمراسل الصحفي التي أخفت تفاصيل موت مبتذل تافه. إنها لم تحطم نفسها فقط، بل حطمته هو. رأى البقعة القذرة التي خلّفتها خطيئتها، البائسة الكريهة. يا رفيقة روحه! وفكّر في البائسين المعوقين الذين رآهم يحملون العلب أوالزجاجات ليملأها لهم الساقي. يا إلهي العادل، أية نهاية هذه! لا شك أنها لم تكن مؤهلة للعيش، بلا أية قوة هدف، فريسة للعادات، واحدة من المحطمين الذين قامت عليهم الحضارة. ولكن أن تنحدر إلى ذاك الدرك! أيمكن أن يكون قد خدع نفسه كلياً بشأنها؟ تذكر بكاءها المرير في تلك الأمسية، وفسره بطريقة قاسية لم يتّبعها من قبل. لم يعد ثمة ما يعيقه عن استمرار طريقته في الحياة.

وعندما خفت الضوء وبدأت ذاكرته تحوم خيّل إليه أن يدها تلمسه. والصدمة التي هزت معدته أولاً صارت الآن تهاجم أعصابه. فارتدى معطفه وقبعته بسرعة وخرج. قابله الهواء البارد عند العتبة، وزحف على أكمام معطفه. وحين وصل إلى الحان عند جسر تشابليزود دخله وطلب شراب بنش ساخناً.

قام صاحب المحل على خدمته بتذلل لكنه لم يغامر بالكلام. في المحل خمسة أو ستة عمال يناقشون ثمن ضيعة أحد السادة في

مقاطعة كيلدير. شربوا من أقداحهم الضخمة على دفعات ودخنوا، وهم يبصقون غالباً على الأرض ويجرّون النشارة فوق بصاقهم بأحذيتهم الثقيلة. جلس السيد دفي على مقعده وراح يحملق بهم، دون أن يراهم أو يسمعهم. بعد قليل خرجوا، وطلب كأساً أخرى من البنش. وقضى في شربه وقتاً طويلاً. المحل هادئ جداً. بسط صاحب المحل يديه على النضد وهو يقرأ صحيفة ويتثاءب. وبين حين وآخر يسمع حافلة تحفّ طريقها على الشارع المتوحّد خارجاً.

وبينما هو هكذا، يقتات من حياته معها، ويستحضر على التوالي الصورتين اللتين أخذ الآن من خلالهما يفهمها، أدرك أنها ميتة، أنها لم تعد موجودة، أنها لم تعد سوى ذكرى. وبدأ يشعر بالاضطراب. سأل نفسه ماذا كان بوسعه أن يفعل. لم يكن يستطيع أن يستمر في تمثيل ملهاة الانخداع معها، ما كان يمكن أن يعيش معها بصدق. لقد قام بما بدا له الأفضل. فكيف يلام؟ الآن، بعد أن رحلت صار يفهم كم كانت حياتها منعزلة، تقضي الليالي واحدة بعد الأخرى جالسة وحيدة في غرفتها. حياته هو أيضاً ستكون متوحّدة حتى يموت، ويندثر، ويصبح ذكرى–إن كان ثمة من يذكره.

حين غادر الحان كانت قد جاوزت التاسعة. الليل بارد كئيب. ولج الحديقة العامة من الباب الأول ومشى تحت الشجر الكالح. مشى خلال الممرات الموحشة حيث مشيا قبل أربع سنين. كأنها الآن تمشي بجواره في الظلام. مرت به لحظات كاد يشعر بصوتها يمسّ أذنه، ويدها تلمس يده. ووقف ساكناً ينصت: لماذا منع عنها الحياة؟لماذا حكم عليها بالموت؟ وشعر بطبيعته الأخلاقية تنهار متفتتة.

حين وصل أعلى تلة ماغازين توقف وراح ينظر على طول النهر باتجاه دبلن، التي تتلظى أنوارها بضياء أحمر مرحِّبة وسط الليل

البارد. نظر أسفل السفح، إلى القاعدة، في ظل سور الحديقة، فرأى أشكالاً إنسانية مستلقية. علاقات الحب الفاسدة المختلسَة تلك ملأته باليأس. وأخذ ينهش في استقامة حياته، وشعر بأنه أقصي عن وليمة الحياة. كانت هناك مخلوقة إنسانية واحدة بدا أنها تحبه، وأنكر هو عليها حياتها وسعادتها: حكم عليها بالخزي، بالموت عاراً. وعلم أن المخلوقات المنهمكة هناك في الأسفل في ظل الجدار تراقبه وتتمنى لو يذهب. لا أحد يريده، لقد أُقصي عن وليمة الحياة. وأدار عينيه نحو النهر الرمادي المتلألئ، يتلوى إلى دبلن. وبعد النهر رأى قطار البضائع يتلوى خارجاً من محطة كينغستن، كدودة ذات رأس ناريّ تتلوى في الظلمة، بإصرار وكدّ. ومرَّ بطيئاً ليغيب عن البصر، غير أنه ظل يسمع بأذنيه طنين المحرك الكادّ يردد مقاطع اسمها.

استدار عائداً من الطريق الذي أتى منه، وإيقاع المحرك ينبض في أذنيه. بدأ يشك في واقعية ما روته له الذاكرة. ووقف تحت شجرة وترك الإيقاع يتلاشى. لم يعد يستطع أن يشعر بقربها منه في الظلام، ولا بصوتها يلمس أذنيه.انتظر بضع دقائق منصتاً. لا يسمع شيئاً: الليل صامت تماماً. وأنصت ثانية: صامت تماماً. وشعر بأنه وحيد.

يوم اللبلاب في غرفة الاجتماع

قلّب جاك العجوز الجمر معاً بقطعة كرتون، ونثره بحكمة فـــوق قبة الفحم المبيضّة. وحين كُسيت القبة قليلاً غاب وجهه في الظلمـــة. ولكن، حين عاد يهوي النار من جديد، هبط ظله الجاثم على الجـــدار المقابل، وعاد وجهه ببطء إلى حيِّز النور. كان وجه رجل عجـــوز، ناتئ العظام كثير الشعر.طرفت عيناه الزرقـــاوان اللامعتـــان وهمـــا تنظران إلى النار، وانفرج الفم المرطَّب على فترات، وعند انغلاقـــه كان يمضغ مرة أو مرتين بحركة آلية وبصوت مسموع.عندما توهَّـــج الجمر أسند قطعة الكرتون إلى الجدار، وتنهد وقال:

"صارت أفضل الآن، يا سيد أوكنر"

كان السيد أوكنر الشاب، الأشيب الشعر، ذو الوجه المشوّه بـــالعديد من البثور والرؤوس، قد حضّر لتوه التبغ ليصنع سيجارة أســـطوانية الشكل. ولكن حين خوطب ترك عمله متفكراً، ثم عاد يلفّ التبغ مـــن جديد متأملاً وبعد برهة تفكير قرر أن يلعق الورقة.

وسأل بصوت أجش، عالي النبرة: "هل قال السيد تـــيرني متـــى سيعود؟"

"لا، لم يقل"

وضع السيد أوكنر سيجارته في فمه وأخذ يفتش في جيوبه، وأخرج حزمة من البطاقات الكرتونية.

قال العجوز:"سأحضر لك عود ثقاب".

قال السيد أوكنر: "لاعليك، هذه تنفع".

اختار إحدى البطاقات وقرأ ما طبع عليها:

الانتخابات المحليّة

دائرة المركز الملكي

يلتمس السيد ريتشارد تيرني، P.L.G وبكل احترام تصويتكم ونفوذكم في الانتخابات القادمة في دائرة المركز الملكي.

كان السيد أوكنر قد عيّن من قبل وكيل تيرني لجمع أصوات الناخبين في جزء من الدائرة المذكورة. ولكن، لما كان الطقس قارساً وقد تبلل حذاءه، قضى الردح الأعظم من النهار جالساً بجانب النار في غرفة الاجتماعات في شارع ويكلو مع جاك، الحانوتي العجوز، والجو مكفهر بارد في الخارج.

مزّق السيد أوكنر شريطاً من البطاقة، أشعلها ومنها أشعل سيجارته. ولما فعل أضاء اللهب ورقة من نبات لبلاب قاتمة لامعة موجودة على طية صدر معطفه. راقبه العجوز بتمعُّن، وأخذ، وقد تناول قطعة الكرتون مرة أخرى، يهوّي النار ببطء، بينما راح رفيقه يدخن.

قال متابعاً :"آه، نعم، من الصعب معرفة الطريقة الصحيحة لتربية الأطفال. تصوَّر، مَنْ كان يظن أنه سيصبح هكذا! لقد أرسلته إلى مدرسة الأخوة المسيحيين وفعلت كل ما استطعت لأجله، وها هو ذا يقضي وقته في السكر. لقد حاولت أن أرد له بعضاً من احترامه".

أعاد قطعة الكرتون إلى مكانها بضجر.

"لكنني صرت عجوزاً الآن وسأغيّر نغمتي معه، سأمدُّ العصا إلى ظهره وأضربه ما دمت أستطيع قيادته – ما فعلت قبل ذلك مرات كثيرة. وأمه كما تعلم، تنفخه في كل صغيرة وكبيرة...".

قال السيد أوكنر: "هذا ما يدمر الأولاد".

قال العجوز: "هذا هو الحق، وأنت لا تنال إلا أقل الشكر، والكثير من الوقاحة. إنه يتطاول عليّ كلما وجدني مغلوباً على أمري. أي عالم هذا الذي يخاطب فيه الأولاد آباءهم على هذا الشكل؟"

قال السيد أوكنر: "كم عمره؟".

قال العجوز: "تسع عشرة".

"لماذا لا تسلمه عملاً ما؟"

"طبعاً، أليس هذا كل ما عملت لأجل هذا الفاحش السكير منذ أن ترك المدرسة؟ أقول له: لن أستبقيك عندي، يجب أن تجد لنفسك عملاً، ولكن، طبعاً، يصبح حاله أسوأ حين يجد عملاً، لأنه يشرب بكل ما يحصل عليه".

هزّ السيد أوكنر رأسه متعاطفاً، وشمل الصمت العجوز، وهو يحدق في النار. فتح أحدهم باب الغرفة وهتف:

"مرحباً! هل هذا اجتماع فريميس؟"

قال العجوز: "مَنْ هذا؟"

سأل صوت: "ماذا تفعلان في الظلام؟"

سأل أوكنر:"أهذا أنت يا هينز؟"

قال السيد هينز :"نعم، ماذا تفعلان في الظلام ؟"

وتقدّم نحو ضوء النار .

كان شاباً طويلاً، نحيلاً، له شارب خفيف أصهب. على حافة قبعته تعلّقت قطرات صغيرة حديثة من المطر وقد انقلبت ياقة معطفه القصير.

قال السيد أوكنر: "حسن يا مات، كيف الحال؟"

هزَّ السيد أوكنر رأسه. وترك العجوز الموقد، وبعد أن تمشّى حول الغرفة عاد مع شمعتين قرّبهما واحدة بعد أخرى من النار، ثم حملهما إلى الطاولة. واتّضحت معالم الغرفة الجرداء وفقدت النار كل لونها البهيج. كانت جدران الغرفة خالية إلا من نسخة من خطاب انتخاب. وفي وسط الغرفة وضعت طاولة كوِّمت عليها الأوراق.

مال السيد هينز على رف الموقد وسأل:

"ألم يدفع لكما بعد؟"

قال السيد أوكنر: "ليس بعد، آمل من الله أن لا يوقعنا في الحرج هذا المساء".

ضحك السيد هينز.

قال: "أوه، سيدفع لكما، لا تخف".

قال السيد أوكنر: "آمل أن يُحسن التصرف في الأمر إذا أراد أن يكون جدّياً في العمل".

قال السيد هينز للعجوز ساخراً: "ما رأيك يا جاك؟"

عاد العجوز إلى مقعده قرب النار، وهو يقول:

"إنه ليس جدّياً، لكنه نال ما يريد على أية حال. إنه ليس كالسمكري الآخر".

قال السيد هينز :"أي سمكري آخر؟".

قال العجوز مؤنباً :"كولغن"

"أمن أجل عامل كولغن تقول هذا؟ ما الفرق بين عامل قرميد جيد شريف وصاحب حان-هه؟ أليس لعامل بناء القرميد كل الحق في أن يكون في المنظمة كأي إنسان آخر-هه، بل وله الحق أكثر من أولئك

الـــSHONEENS الذين يحملون دائماً قبعاتهم بأيديهم أمام كـــل مـــن لاسمه لقب؟ أليس كذلك يا مات؟"

قال السيد هينز، مخاطباً السيد أوكنر.

وقال السيد أوكنر :"أظنك محقاً".

"إن رجلاً بسيطاً شريفاً لا تشوبه شـــائبة يدخـــل ليمثـــل الطبقـــة العاملة، هذا الرجل الذي تعملان لأجله كل ما يريد هـــو أن يحصـــل على عمل ما".

قال العجوز :"طبعاً، يجب تمثيل الطبقة العاملة ".

قال السيد هينز :"العامل ينال كل الركل ولا يحصل على نصـــف بنس. لكن جهده ينتج كل شئ.العامل لا يبحث عن منـــاصب ســـمينة لأبنائه وأبناء عمه وأقربائه. إن العامل لا ينوي أن يمرّغ شرف دبلـــن في الوحل ليرضي فوضوياً ألمانياً".

قال العجوز :"كيف ذلك؟"

"ألا تعلم أنهم يريدون أن يلقوا خطاب ترحيب بإدوارد الملـــك إذا أتى إلى هنا في العام القادم؟"

"ولماذا التملّق لملك أجنبي؟" قال السيد أوكنر.

"إن رجلنا لن ينتخب من أجل خطاب، إنه يشترك على أساس وطني".

قال السيد هينز :"تقول لن يفعل؟ انتظر لترى إن كان ســـيفعل أم لا. أنا أعرفه. أليس هو تيرني المخادع الحقير؟"

قال السيد أوكنر: "يا الله! لعلك على حق، يا جو. على أي حـــال، آمل أن يظهر مع النقود".

غرق الثلاثة في الصمت. بدأ العجوز يلكز مزيداً من الجمر معاً. خلع السيد هينز قبعته، وهزّها ثم أعاد وضع ياقة معطفـــه مظْـــهِراً، أثناء ذلك، ورقة لبلاب على الطيّة.

قال، مشيراً إلى الورقة :"لو كان هذا الرجل حياً لما تحدثنا عـــن خطاب الترحيب".

قال السيد أوكنر :"هذا صحيح".

قال العجوز :"حسن، سقى الله تلك الأزمان، كـــانت تشـــيع فيـــها الحياة عندئذ".

عادت الغرفة تهيم في السكون. ثم دفع رجل ضئيل بأنف يصـــدر صفيراً خفيفاً وأذنين باردتين جداً فاتحاً الباب بعجلة، ومشى مســـرعاً إلى النار، فاركاً يديه كأنما ينوي أن يصدر منها شرراً.

قال :"لا نقود، يا شباب".

قال العجوز وهو يقدم له كرسيه :"اجلس هنا، يا سيد هينتشي".

قال السيد هينتشي :"أوه، لا تزعج نفسك يا جاك، لا تزعج نفسك".

أومأ للسيد هينز بجفاء وجلس على الكرسي الذي أخلاه العجوز.

سأل السيد أوكنر :"هل وزّعت في شارع أونغيير؟"

قال السيد أوكنر :"نعم" وقد بدأ بتفتيش جيوبه بحثاً عن مفكّرة .

"هل اتصلت بغريمس؟"

"نعم"

"حسن؟ كيف يتصرّف؟"

"لم يعد بشيء قال:"لن أقول لأحد كيف ســـأصوّت ولكـــن أظنـــه سيتدبّر أمره".

"لماذا تظن؟".

"لقد سألني عن أسماء المرشّحين، فأخبرته . ذكـــرت اســـم الأب بيرك . أظنه سينجح".

بدأ السيد هينتشي ينخر ويفرك يديه فوق النار بسرعة عجيبة. ثـــم قال:

"حباً بالله ياجاك، أحضر لنا قليلاً من الفحم. لا بد أنه تبقى قليل منه".

وخرج العجوز من الغرفة.

قال السيد هينتشي، هازاً رأسه: "لا فائدة، حين سألت الشاب ماسح الأحذية قال لي :"أوه، لا تخف يا سيد هينتشي، حين أرى العمل يسير كما يجب لن أنساكم، كن على ثقة، الأخرق الوضيع الحقير! وكيف يمكنه أن يكون غير ذلك؟"

قال السيد هينز :"ماذا قلت يا مات؟ إنه تيرني المخادع الحقير".

قال السيد هينتشي:"أوه، إنه مخادع بقدر ما أرادوه كذلك. إنه لا يحمل عينيّ خنزير صغير للاشيء، اللعنة على روحه. أما استطاع أن يدفع كرجل بدل أن يقول :"أوه، يا سيد هينتشي، يجب أن أتحدث إلى السيد فاننغ....لقد أنفقت الكثير من المال. "تلميذ في الجحيم وضيع حقير! لعله نسي زمنَ كان أبوه الحقير العجوز يحتفظ بدكان بيع الملابس المستعملة في زقاق ميري".

سأل السيد أوكنر :"ولكن هل هذا صحيح؟"

قال السيد هينتشي :"ياالله، نعم. ألم تسمع بهذا أبداً؟ وكان الناس يدخلون عنده صباح يوم الأحد قبل أن تفتح الحانات أبوابها ليشتروا سترة أو بنطال–وهيا! لكن والد تيرني المخادع العجوز كان يضع دائماً زجاجة خفية صغيرة سوداء في الزاوية. هل فهمت الآن؟ هذا هو الأمر. وهناك رأى النور للمرة الأولى".

عاد العجوز مع بعض كتل من الفحم وزّعها هنا وهناك على النار.

وقال السيد أوكنر :"هذا ترحيب جميل. كيف يتوقعّ منا أن نعمل لأجله إن لم يكن يريد أن يدفع ما عليه؟"

قال السيد هينتشي :"لا أستطيع عمل شيء. أتوقع أن أجد مساعديّ التنفيذ في الصالون حين أعود إلى البيت".

ضحك السيد هينز، واندفع بسرعة مبتعداً عن رف الموقد بمساعدة كتفيه، واستعد للرحيل .

قال :"سيكون كل شيء على ما يرام حين يأتي الملك إدي. حسن يا شباب، أنا ذاهب الآن. أراكما فيما بعد. باي، باي".

خرج من الغرفة ببطء. لا السيد هينتشي ولا العجوز تفوّه بشيء، ولكن بينما كان يغلق الباب هتف السيد أوكنر، وكان يحدِّق متأملاً في النار، فجأة :

"باي،جو".انتظر السيد هينتشي بضع لحظات ثم هز رأسه جهة الباب.

قال عبر النار :"قل لي، ما الذي جاء بصديقنا إلى هنا؟ ماذا يريد؟"

قال السيد أوكنر، وهو يرمي عقب السيجارة في النار :"آه، مسكين جو! إنه في ضيق، مثلنا جميعاً".

نخر السيد هينتشي بعنف وبصق بصقة كبيرة حتى كاد يطفئ النار، مما جعلها تصدر هسيس احتجاج .

قال :"برأيي الخاص النزيه أنه رجل ينتمي للمعسكر الآخر. إنه جاسوس كولغن، إذا طلبتَ رأيي. اذهب إليهم وحاول أن تتقصَّى كيف يسيّرون أمورهم. لن يشكّوا بك. أتفهم؟"

قال السيد أوكنر :"آه، يا جو المسكين جلده ناعم".

قال السيد هينتشي موافقاً :"كان والده رجلاً مهذباً، محترماً. مسكين صاحبنا لاري هينز! لقد قام بعمل جيد طوال النهار لكني أخشى كثيراً أن صديقنا لا يساوي تسعة عشر قيراطاً. اللعنة، أفهم المرء إذا كان معوزاً، ولكن ما لا أفهمه أن يكون عالة. ألا يستطيع أن يحتفظ بشيء من الرجولة لنفسه؟"

قال العجوز :"إنه لا يحظى بترحيب حار مني حين يأتي. دعه يعمل لصالحه ولا داعي أن يأتي ليتجسس علينا".

قال السيد أوكنر بريبة، وهو يخرج ورق السجائر والتبغ :"لا أعلم، أعتقد أن هينز رجل مستقيم. وهو شاب حاذق أيضاً في استخدام القلم. أتذكر ذاك الشيء الذي كتبه... ؟"

قال السيد هينتشي: "إذا طلبت رأيي أقول أن بعض هؤلاء الجبليين والانقلابيين FENIANS شديدو الذكاء. هل تعرف ما هو رأيي الخاص النزيه حول بعض هؤلاء المهرجين الصغار؟ أعتقد أن نصفهم يقبض من القصر".

قال العجوز "لا أحد يعلم"

قال السيد هينتشي :"أوه، لكنني أعلم علم اليقين أنهم أجراء القصر... أنا لا أقصد هينز ... لا، اللعنة، أعتقد أنه أرقى من ذلك... ولكن ثمة نبيل حقير معين له عين حولاء-ألا تعرف المواطن الذي ألِّمح إليه؟"

أومأ السيد أوكنر.

"ثمة سليل مباشر للميجور سيرSIRR لأجلك إذا شئت! أوه، إن قلبه ينبض دماً وطنياً! هاك امرءاً يبيع بلده مقابل أربعة بنسات- نعم- ويخرُّ على ركبتيه ويشكر المسيح العظيم لأن له وطناً يبيعه".

وكان طرق على الباب.

قال السيد هينتشي:"ادخل"

على العتبة ظهر شخص يشبه قساً فقيراً أو ممثلاً فقيراً. ملابسه السوداء زرت بحزم على جسمه القصير، وبات مستحيلاً التكهن فيما إذا كانت ياقته هي لرجل دين أم لشخص مدنيّ، لأن ياقة معطفه الرث الذي كانت أزراره المكشوفة تعكس نور الشموع، قد قلبت حول عنقه. كان يعتمر قبعة مستديرة من نسيج قاس أسود.

لوجهه اللامع من حبات المطر، مظهر الجبن الأصفر الرطب، ما عدا بقعتين ورديتين تدلان على الوجنتين. فتح فمه الطويل جداً فجأة ليعبر عن الخيبة، وفي الوقت نفسه فتح عينيه الزرقاوين اللامعتين الواسعتين جداً ليعبر عن البهجة والدهشة.

قال السيد هينتشي :"أوه الأب كيون!" وقفز ناهضاً عن كرسيه "أهذا أنت؟ ادخل!"

قال الأب كيون مسرعاً :"أوه، لا، لا، لا،" زامّاً شفتيه وكأنه يخاطب طفلاً.

" ألن تدخل وتجلس؟"

قال الأب كيون: "لا ،لا ، لا، "بصوت كتوم، متسامح، مخمليّ "لا تدعني أزعجكما! الآن إنني فقط أبحث عن السيد فاننغ..."

قال السيد هينتشي: "هو في حانة الصقر الأسود المجاورة، ولكن ألا تدخل وتجلس قليلاً؟"

قال الأب كيون: "لا، لا، شكراً. أريده فقط في عمل صغير. شكراً جزيلاً".

ابتعد عن ممر الباب، فأمسك السيد هينتشي إحدى الشمعدانات وتوجه إلى الباب لينير له طريقه على الدرج.

"أوه، لا تزعج نفسك، أرجوك!"

"لا، ولكن الدرج شديد الظلام".

"لا،لا، يمكنني أن أرى ... شكراً لك، حقاً".

"هل ترى الآن؟"

"لا بأس شكراً...... شكراً".

عاد السيد هينتشي مع الشمعدان ووضعه على الطاولة. جلس مرة أخرى بقرب النار. وساد الصمت لبضع لحظات.

قال السيد أوكنر، مشعلاً سيجارته ببطاقة كرتون أخرى: "قـــل لي، يا جون"

"هِمْ؟"

"من هو بالضبط؟"

قال السيد هينتشي: "اسألني سؤالاً أسهل".

"يبدو لي أنه مع فاننغ غامض جداً. غالباً ما يكونان فـــي محــل كافانا معاً. هل هو قسيس حقاً؟"

"مم نعم، أظن ذلك... أظنه كما نسميّه خروف أسود. نشـــكر الله على انه ليس لدينا الكثير منهم، ولكن عندنا بعضهم...... إنـــه سـيئ الحظ بشكل ما... ".

سأل السيد أوكنر: "ولكن كيف نجح؟"

"هذا لغز آخر؟"

"هل هو متصل بأية كنيسة أو مؤسسة أو...؟"

قال السيد هينتشي: "لا،أظنه يسافر علـــى نفقتـــه... أســتغفر الله" أضاف: "ظننته يدمن الخمر"

سأل السيد أوكنر: "هل يمكننا أن نتناول بعض الخمر؟"

قال العجوز: "أنا أيضاً عطشان".

قال السيد هينتشي: "سألت الشاب ماسح الأحذية ذاك ثلاث مــرات أن يرسل لنا بعض الخمر، وسألته الآن مرة أخرى، لكنه كان يميــل بأكمامه المرفوعة متكئاً على المنضدة ويسكر مع ألدرمن كاولي".

قال السيد أوكنر: "لماذا لم تذكّرني؟"

"في الواقع، لم أستطع الاقتراب حين كان يتحدث إلـــى ألدرمــن كاولي. اكتفيت بالانتظار ريثما تلاقت عيوننا، فقلـــت: بشـــأن تلــك

المسألة الصغيرة التي كنت أكلمك عنها ... قال سيكون الأمر على ما يرام، يا سيد.هـ. نعم، وطبعاً نسي ذاك القزم كل شيء عن القضية".

ضحك السيد أوكنر متأملاً: "هناك صفقة في الأمر. رأيتهم الثلاثة منهمكين بها أمس عند زاوية شارع سَفُوك".

قال السيد هينتشي: "أظن أنني أعرف اللعبة التي يلعبون. في هذه الأيام عليك أن تكون مديناً لأموال آباء المدينة إذا أردت أن تصبح السيد المحافظ. عندئذ يجعلون منك السيد المحافظ. يالله! إنني أفكر جدياً في أن أصبح أنا نفسي من آباء المدينة. ما رأيك؟ ألا يلائمني هذا المنصب؟"

ضحك السيد أوكنر.

"إذا كان الأمر يتعلق باستدانة النقود..."

قال السيد هينتشي: "سأقود سيارتي خارجاً من القصر، بكل أقذاري، ويقف جاك خلفي بشعره المستعار المضمَّخ بالبودرة–هه؟"

"وتجعلني سكرتيرك الخاص يا جون"

"نعم، وأجعل الأب كيون قسيسي الخاص، ونقيم حفلة عائلية".

قال العجوز: "كن على ثقة بأنك ستتفوق بأسلوبك على بعضهم. ذهبت ذات نهار إلى العجوز كيغان، البواب، وقلت له: وكيف تجد رئيسك الجديد، يا بات؟ لم تعد تقضي وقتاً مسلياً الآن قال تسلية! إنه يعيش على رائحة خرقة مشمّع. وهل تعرف ماذا قال لي؟ أحلف بالله بأنني لم أصدقه".

قال السيد هينتشي والسيد أوكنر: "ماذا؟"

"قال لي: ما رأيك بالسيد محافظ دبلن يزاحم ليحصل على رطل من اللحم ليأكله على العشاء؟ ما رأيك بهكذا حياة فخمة؟ وأقول أنا "يا لطيف! يا لطيف، ويقول هو: رطل من اللحم مقابل الدخول إلى القصر، وأقول: يا لطيف! أي نوع من الناس نجد هذه الأيام؟"

عند هذه النقطة سمع طرق على الباب، وأدخل صبي رأسه.

قال العجوز: "ماذا هناك؟"

قال الصبي: "إنني من صحيفة الصقر الأسود،" ودخل بانحراف ووضع سلة على الأرض محدثاً ضجيج زجاجات تهتز.

ساعد العجوز الصبي على نقل الزجاجات من السلة إلى الطاولة وأعدّ كامل الحساب. بعد أن انتهى التفريغ علّق الصبي السلة على ذراعه وسأل:

"هل يوجد زجاجات؟"

سأل العجوز: "أي زجاجات؟"

قال العجوز: "عد غداً".

قال السيد هينتشي: "اسمع يا ولد: اذهب مسرعاً إلى دكان أوفاريل واطلب منه أن يعيرنا فتّاحة القناني– قل له من أجل السيد هينتشي. قل له إننا لن نبقيها معنا أكثر من دقيقة. أترك السلة هنا".

خرج الصبي وبدأ السيد هينتشي يفرك يديه مبتهجاً، وقال:

"أه، حسن، إنه ليس سيئاً قبل كل شيء. إنه طيب مثل كلامه، على أية حال".

قال العجوز: "لا توجد أقداح؟"

قال السيد هينتشي: "أوه، لاتدع هذا الأمر يزعجك، يا جاك. كثير من الرجال الطيبين شربوا من القناني قبل الآن".

قال السيد أوكنر: "على كل حال، هذا أفضل من لا شيء".

قال السيد هينتشي: "إنه ليس رجلاً سيئاً، غير أن فاننغ حصل منه على قرض كبير.إن نواياه طيبة، في الحقيقة، بطريقته الطنانة الخاصة".

عاد الصبي بالفتاحة. فتح العجوز ثلاث قناني، وكاد يعيد الفتاحة حين قال السيد هينتشي للصبي:

"ألا تريد أن تشرب، يا ولد؟"

قال الصبي: "إذا تفضّلت، سيدي".

فتح العجوز زجاجة أخرى متذمراً، وناولها للصبي.

سأل: "كم عمرك؟"

قال الصبي "سبع عشرة".

ولما لم يزد العجوز شيئاً أخذ الصبي الزجاجة، وقال: "أشرب مع خالص احتراماتي، يا سيدي، للسيد هينتشي" وجرع محتواها، ثم أعادها إلى المائدة ومسح فمه بكُمه. بعد ذلك أخذ الفتاحة وخرج من الباب منحرفاً، متمتماً شيئاً أشبه بالتحية.

قال العجوز: "هكذا يبدأ الأمر".

قال السيد هينشتي: "عند الحد الرقيق من الإسفين"

وزع العجوز القناني الثلاث التي فتحها، وراح الرجال يجرعون في وقت واحد. وبعد أن شربوا وضع كل منهم زجاجته على رف المدفأة القريبة من مدى الذراع، وزفر زفرة رضى طويلة.

قال السيد هينتشي، بعد صمت: "والله، لقد قمت بعمل جيد هذا اليوم".

"صحيح يا جون؟"

"نعم، أحضرت له شيئاً أو اثنين مضمونين في شارع دوسن، أنا وكروفتن. وأنت وأنتم تعرفون، فيما بيننا، كروفتن شاب راق، طبعاً، لكنه لا يساوي شيئاً كجامع أصوات. ليست لديه كلمة يرميها لكلب، إنه يقف وينظر إلى الناس بينما أقوم أنا بالتحدث".

هنا ولج الغرفة رجلان، أحدهما سمين جداً، ثيابه الزرقاء اللون بدت على وشك التمزق من حجمه المنحدر. كان له وجه كبير يشبه وجه عجل في تعابيره، وعينان زرقاوان وشارب أشيب. الآخر،

الأصغر سناً والأنحف، كان له وجه رقيق، محلوق جيداً. يضع ياقة عالية جداً مضاعفة، ويعتمر قبعة عريضة الحواف.

خاطب السيد هينتشي الرجل الثخين: "مرحباً، كروفتن. اذكر الديب... "

سأل الشاب: "من أين لكم بالخمر؟ هل أنجبت البقرة عجلاً؟"

قال السيد أوكنر، ضاحكاً: "أوه، طبعاً. إن أول ما يراه ليونز هو الشراب".

قال السيد ليونز: "هل هكذا يكون جمع الأصوات، بينما أنا وكروفتن في الخارج وسط البرد والمطر نبحث عن الأصوات؟".

قال السيد هينتشي: "ما هذا؟ لعن الله روحك، إنني أحصل من الأصوات خلال دقيقة أكثر مما قد تحصلان عليه معاً خلال إسبوع".

قال السيد أوكنر: "افتح زجاجتين من الستوت يا جاك".

قال العجوز: "وكيف أفعل بدون فتاحة؟"

قال السيد هينشتي: "انتظر الآن، انتظر الآن!" ووقف مسرعاً "هل رأيت هذه الخدعة الصغيرة؟"

تناول زجاجتين من على المائدة، وحملهما إلى الموقد، ووضعهما على الحاجب الحديدي. ثم عاد للجلوس بالقرب من النار، وتناول جرعة أخيرة من زجاجته.

جلس السيد ليونز على حافة المائدة، ودفع قبعته نحو قفا عنقه وراح يهز ساقيه.

سأل: "أيهما زجاجتي؟"

قال السيد هينشتي: "هذه يا ولدي".

جلس السيد كروفتن على صندوق، ونظر بثبات إلى الزجاجة الأخرى على الحاجب الحديدي. كان صامتاً لسببين، أول سبب، وهو

كاف بحد ذاته، أنه لم يكن لديه ما يقوله، والسبب الثاني أنه اعتبر أن رفاقه أقل منه قدراً. كان يجمع أصواتاً لويلكنز، والمحافظ، ولكن حين سحب المحافظون مرشحهم واختاروا أخف الشرين، وأعطوا دعمهم للمرشح الوطني، انخرط في العمل لصالح السيد تيرني.

بعد بضع دقائق صدرت فرقعة كأنها اعتذار: "بوك!". حين خرجت السدادة من زجاجة السيد ليونز، قفز السيد ليونز عن المائدة، وتوجه نحو الموقد، وتناول الزجاجة حاملاً إياها وعائداً إلى المائدة.

قال السيد هينتشي: "كنت أقول لهم للتو، يا كروفتن أننا حصلنا على عدد محترم من الأصوات اليوم".

سأل السيد ليونز: "على ماذا حصلت؟"

"حسن، حصلت على باركس أولاً، وأتكنسن ثانياً، وعلى ورد من شارع دوسن، وهو شاب طيب أيضاً – ومتأنق منتظم عتيق! قال لي: ولكن أليس مرشحك وطنياً؟ قلت: إنه رجل محترم، وقلت: إنه مسخر لكل ما ينفع هذا البلد، وهو يدفع أكبر نسبة. قلت: لديه بيت ملك فسيح في المدينة وثلاثة مراكز للعمل. ثم أليس من صالحه أن يحافظ على انخفاض النسب؟ وقلت: إنه مواطن معروف ومحترم، وحامٍ متواضع للقانون، وهو لا ينتمي لأي حزب، جيد، أم سيئ لافرق هكذا يجب، قال السيد ليونز، بعد أن تناول جرعة وتلمظ: "وماذا عن الخطاب الموجه للملك؟"

قال السيد هينشتي: "اسمعني، إن ما نريده في هذا البلد، كما قلت للعجوز وارد، هو رأس مال . ومجيء الملك إلى هنا سوف يعني تدفق المال إلى هذا البلد. وسينتفع به مواطنو دبلن، انظر إلى كل المصانع المنتشرة على طول أرصفة الموانئ هناك: عاطلة! انظر إلى

كل النقود التي ستتدفق إلى البلد. لو أننا شغلنا المصانع القديمة، والمطاحن، وحقول بناء السفن والمصانع. نحن بحاجة لرأس مال".

قال السيد أوكنر: "ولكن انظر يا جون، لماذا نحن مضطرون للترحيب بملك إنكلترا؟ أليس بارنل نفسه..."

قال السيد هينتشي: "بارنل مات. والآن، إليكم نظرتي للأمر. لدينا شاب وصل إلى العرش بعد أن تركته أمه إلى أن دب الشيب في رأسه. إنه رجل كل العالم، وهو يكن لنا المودة. إنه إنسان رائع مهذب، إذا طلبتم رأيي، ولا هراء لعين يشوبه. إنه فقط يقول لنفسه: إن العجوز لم تذهب أبداً لزيارة أولئك الأيرلنديين العنيفين، بل ذهبت للمسيح، سأذهب بنفسي وأعاينهم، فهل سنهين الرجل حين سيأتي في زيارة ودية؟ هه؟ أليس كلامي صحيحاً يا كروفتن؟"

هزّ كروفتن رأسه.

قال السيد ليونز مجادلاً: "ولكن قبل كل شيء الآن، فحياة الملك إدوارد، كما تعلم، ليست هي ..."

قال السيد هينتشي: "اللي فات مات، وأنا أبدي إعجابي بالرجل شخصياً. إنه مجرد رجل عادي مثلك ومثلي. يحب شرب الخمر ولعله يميل قليلاً للفسوق، وهو رياضي جيد. اللعنة، ألا نستطيع نحن الأيرلنديين أن نتصرف كما يجب؟"

قال السيد ليونز: "هذا رائع جداً، ولكن انظر الآن إلى قضية بارنل".

قال السيد هينتشي: "بحق الله، أين وجه الشبه بين القضيتين؟"

قال السيد ليونز: "ما أعنيه هو أن لدينا مُثُلنا. إذاً ما الذي يدعونا للترحيب برجل مثله؟ هل ما زلتم ترون الآن بعد ما فعله أن بارنل كان يصلح قائداً لنا؟ وبالتالي، لماذا نريد إدوارد السابع؟"

قال السيد أوكنر: "هذه ذكرى وفاة بــارنل، فــلا تدعونــا نثــير الضغائن. نحن جميعاً نحترمه بعدما مات ورحل-" وأضــاف "حتــى المحافظين" مستديراً إلى السيد كروفتن.

"بوك": قفزت السدادة المتأخرة لزجاجة السيد كروفتــن. ونـــهض السيد كروفتن عن صندوقه وتوجه إلى الموقد. وحين عاد بفوزه قــال بصوت عميق:

"جناحنا في البيت يحترمه، لأنه رجل لطيف".

قال السيد هينتشي بقوة: "يسلم فمك، يا كروفتـــن! كــان الرجــل الوحيد القادر على جعل حقيبة من القطط تلزم النظـــام. انزلــوا يــا كلاب! انبطحوا, يا حقيرين! هكذا كان يعاملهم. أدخل يا جو، أدخــل!" هكذا نادى، حين لمح السيد هينز عند مدخل الباب.

ودخل السيد هينز متباطئاً.

قال السيد هينتشي: "افتح زجاجة من الستوت يا جاك. آه، نســيت، لا توجد فتاحة! أحضر زجاجة لي وأنا سأضعها قرب النار".

ناوله العجوز زجاجة أخرى فوضعها على الحاجب الحديدي.

قال السيد أوكنر: "اجلس يا جو، كنا نتحدث عن الرئيس".

قال السيد هينتشي: " إيه، إيه!"

جلس السيد هينز على طرف الطاولة بالقرب من الســـيد ليونــز، لكنه لم يقل شيئاً.

قال السيد هينتشي: "هذا واحد منهم، على أية حال، وهو لن ينكــث بعهده. يا الله، سأتحدث عنك يا جو! لا، والله، أنت لازمته كما يفعــل الرجل!"

قال السيد أوكنر فجأة: "أوه، جو، أسمعنا المقطوعة التي كتبتـــها. هل تذكرها؟ هل هي معك؟"

قال السيد هينتشي: "آه، نعم، أسمعنا إياها. هل سبق لك وسمعتها يا كروفتن؟ استمع إليها الآن هي مقطوعة رائعة".

قال السيد أوكنر: "هيا، تألق يا جو".

لم يبد على السيد هينز أنه تذكر المقطوعة التي كانوا يشيرون إليها فوراً، ولكن، وبعد أن تفكّر قليلا، قال:

"أوه، تقصدون تلك؟... طبعاً أصبحت قديمة الآن".

قال السيد أوكنر: "إلقها، يا رجل!"

قال السيد هينتشي: "هس، ابدأ الآن يا جو".

تردّد السيد جو فترة أطول، ثم، ووسط الصمت خلع قبعته، ووضعها على المائدة، ونهض واقفاً. بدا وكأنه يردد المقطوعة في ذهنه. وبعد توقف أطول أعلن :

موت بارنل

6تشرين أول، عام 1891

نظّف حنجرته مرة أو مرتين ثم راح يتلو :

"لقد مات. ملكنا غير المتّوج مات.
آه، اندُبي أسى ولوعة، ياآيرين (1)
لأن عصابة المرائين العصريين المخيفة
التي خذلته أردته قتيلاً.
" هوى على يد الكلاب الجبناء
ارتفع من الحمأة إلى المجد،
آمال آيرين وأحلام آيرين
فنت على محرقة فوضوييها .
"في القصر، أو الكوخ أو الحجرة
ينكسر ا لقلب الايرلندي حيثما كان

حزناً-لأن ذاك الذي
كان مخوّلا لصنع قدرها.
"كان سيرفع آيرين فوق ذرى الشهرة،
كان سينشر العلم الأخضر المجيد،
ليفخر بها رجالاتها، وشعراؤها، ومحاربوها
أمام أمم العالم .
"حلم (وآسفاه، كان مجرد حلم).
بالحرية، ولكن حين راح يقاتل
ليقضي على ذاك الصنم، فرّقته
الخيانة عمّن أحب .
"عار على الأيدي الجبانة، الحقيرة
التي ضربت سيدها أو بقبلة
خانته من أجل رعاع الطريق
من كهّان متجهمين- ليس بينهم صديق .
"ليت العارالأبدي يبدّد
ذكرى من حاولوا
أن يلوّثوا ويلطخوا الاسم المنفي
من رفسهم بكبريائه
"سقط كما يسقط الجبابرة،
مقدام نبيل حتى النهاية،
والآن ضمّه الموت
إلى أبطال آيرين السابقين .
"لا صوت صراع يزعج نومه
يهجع هادئا، لا ألماً إنسانياً

أو طموحاً جامحاً يحثه ليرتقي
ذرى المجد.
"وتابعوا طريقهم. داسوا عليه،
ولكن يا آيرين، أنصتي، فلعل
روحه تنهض، كالعنقاء من اللهب،
عند انبلاج فجر النهار.
"النهار الذي سيأتي لنا بحكم الحرية،
وفي ذاك النهار الذي تشرب
آيرين نخبها مع الفرح
يحزن المرء- على ذكرى بارنل"

عاد السيد هينز للجلوس على المائدة. وبعد أن أنهى إلقاءه عمَّ صمت ثم ضجت عاصفة من التصفيق. حتى السيد ليونز صفق. واستمر الاستحسان لبعض الوقت.

وحين انتهى كل شيء أخذ المستمعون يجرعون من زجاجاتهم صامتين.

"بوك!" وقفزت الفلينة من زجاجة السيد هينز، غير أن السيد هينز كان جالساً متورداً عاري الجبهة على المائدة، ولم يبد أنه سمع الدعوة.

قال السيد أوكنر، وهو يُخرج ورق السجائر وجراب التبغ في محاولة لإخفاء انفعاله: "أنت رجل طيب، ياجو!"

قال السيد هينتشي: "ما رأيك بهذا، يا كروفتن؟ أليس رائعاً؟ ما رأيك ؟"

قال السيد كروفتن إنها كانت مقطوعة أدبية رائعة جداً.

(1) آيرين هو الاسم القديم لايرلندا

أم

ظل السيد هولوهان، السكرتير المساعد لجمعية آير أبـــو، يقطـــع دبلن طولاً وعرضاً لحوالي الشهر، ويداه وجيوبه ملأى بقطع قـــذرة من الورق، يعدُّ لإقامة سلسلة من حفلات الكونشيرتو. كان أعرجـــاً، ولهذا كان أصدقاؤه يلقبونه بهولوهان النطّاط. كنت تراه دائماً رائحـــاً غادياً، يقف بالساعة عند زوايا الشوارع، يناقش الموضوع مع أحدهم ويدون الملاحظات، ولكن في النهاية كانت السيدة كيريني هي التـــي ترتّب كل شيء.

والآنسة دفلن أضحت السيدة كيريني بدافع النكاية. كانت مثقفة في دير الطبقة الراقية، حيث تعلّمت الفرنسية والموسيقى. ولمـــا كـــانت بطبيعتها شاحبة ومتحفّظة في سلوكها، لم تعقد سوى صداقات قليلـــة في المدرسة. وحين وصلت إلى سن الزواج أُرسِـــلَتْ إلـــى بيـــوت عديدة، حيث كان لعبها وتصرفاتها المخملية محطَّ الإعجاب.

وبقيت وسط الحلقة الباردة لأقرانها من المهذبين الأكابر، تنتظـــر من يقبل التحدي ويوفر لها حياة مرفّهة. لكن الشبان الذيـــن قابلتـــهم كانوا عاديين، ولم تشجعهم، وحاولت أن تعزّي رغباتها الرومانســـية بأكل كمية كبيرة من راحة الحلقوم في السر. مع ذلك، حين بلغ السيل الزبا وبدأت ألسنة أصدقائها تنسج الكلام حولها، أخرستها بزواجـــها من السيد كيرني، صانع الأحذية في رصيف أورموند.

كان أكبر منها بكثير. وعندما يتحدث فإن أحاديثه، الجادة، كـــانت تجري على فترات داخل لحيته البنية الضخمة. وبعد مـــرور الســنة الأولى على حياتهما الزوجية، أدركت السيدة كيرني أن هذا الرجـــل سيدوم أكثر من الشخص الرومانسي. لكنها أبداً لم تتخلّ عن أفكارهـا الرومانسية. لقد كان متزناً، مقتصداً وورعاً، يذهـــب كـــل أول يـــوم جمعة من الشهر إلى مذبح الكنيسة، أحياناً معها وغالباً وحـــده. لكـــن تمسّكها بالدين لم يضعف، وظلت زوجة صالحة له. حين كانا يذهبـان إلى حفلة في بيت غريب وتحرّك له حاجبيها ولو قليلاً، كان يضعــف ويستأذن بالانصراف، وحين يصاب بالسعال تغطي له قدميه بريـــش بط العيدر وتصنع له شراب الرم القوي. من ناحيته، كان مثال الأب. فبواسطة دفع مبالغ صغيرة كل أسبوع إلى إحدى الجمعيـــات ضَمِـــنَ لابنتيه بائنة من مائة جنيه لكل منهما، حين وصلتا إلى سن الرابعـــة والعشرين. وقد أرسل الابنة الكبرى، كاتلين، إلى ديـــر جيـــد حيـــث تعلمت الفرنسية والموسيقى، وبعد ذلك دفـــع لـــها مصاريفـــها فـــي الأكاديمية. وفي شهر تموز من كل عام كانت السيدة كـــيرني تجـــد مناسبة لتقول لبعض الأصدقاء:

"رجلي الطيب يعدُّ لنا للإقامة في سكيّري لبضعة أسابيع، فإذا لـــم تكن سكيّري فهاوث أو غريستونز".

حين بدأت النهضة الأيرلندية تحظى بالتأييد قررت السيدة كـــيرني أن تستغل اسم ابنتها، وأحضرت مدرِّساً ايرلندياً إلى البيت. وكـــانت كاتلين وأختها ترسلان بطاقات بريدية عليها منـــاظر ايرلنديـــة إلـــى أصدقائهما، وهؤلاء الأصدقاء يبادلنهما بدورهـــم ببطاقـــات لمشـــاهد ايرلندية. وفي أيام آحاد معينة، حين يذهب السيد كيرني مـــع عائلتـــه إلى الكاتدرائية المؤقتة، يجتمع حشد صغير من الناس بعد القداس عند

زاوية شارع الكاتدرائية. كلهم كانوا من أصدقاء عائلة كيرني- أصدقاء موسيقيون وأصدقاء من الحزب الوطني. وبعد أن يمارسوا كل أنواع الثرثرة، يتبادلون المصافحة بالأيدي معاً، ويضحكون لتقاطع الكثير من الأيدي سوية، ويقولون إلى اللقاء واحدهم للآخر باللهجة الأيرلندية. وسرعان ما بدأ اسم الآنسة كاتلين كيرني يتردد غالباً على شفاه الناس. قال الناس إنها بارعة جداً في الموسيقى وجميلة جداً، وأكثر من ذلك، إنها تؤمن بتطور اللغة. وكانت السيدة كيرني راضية كل الرضا عن هذا. لذا لم تفاجئ حين تقدَّم إليها السيد هولوهان ذات يوم وعرض عليها أن تكون ابنتها مرافقته في سلسلة من أربع حفلات كونشيرتو ستقيمها جمعيته في قاعات أتيينت الموسيقية. أدخلته إلى غرفة الجلوس، ودعته للجلوس، وأخرجت إناء الخمر ووعاء البسكويت الفضي.

ودخلت بقلبها وروحها إلى تفاصيل المشروع، أقنعته بأمر وثنته عن آخر، وأخيراً توصلا إلى اتفاق تحصل كاتلين بموجبه على ثمانية جنيهات لقاء خدماتها كمرافقة في حفلات الكونشيرتو الكبرى الأربع.

ولما كان السيد هولوهان مبتدئاً في أمور حساسة مثل صياغة الإعلانات وترتيب بنود البرنامج، ساعدته السيدة كيرني فيها. كانت لبقة، وتعرف أي الفنانين يجب كتابة أسمائهم بحروف كبيرة وأيّهم يجب أن يكون بحروف صغيرة. كانت تعرف أن أول مغنّ لن يرضى أن يأتي دوره بعد نمرة ميد الكوميدية. ولكي تحتفظ باهتمام الجمهور باستمرار أقحمت النمر المشكوك في قيمتها بين العروض القديمة المفضّلة. وكان السيد هولوهان يدعوها كل يوم ليطلب مشورتها في بعض الأمور. وكانت على الدوام ودودة نصوحة أو متآلفة، في الحقيقة. ودفعت بالإناء نحوه قائلة:

"والآن، تفضل، يا سيد هولوهان!"

وبينما هو ينتقي قالت:

"لا تخف! لا تخف منها!"

كان كل شيء مخملياً. وأحضرت السيدة كيرني بعض أزهار الفتنة القرمزية المحمرّة الجميلة من عند براون توماس لتزيّن بها صدر فستان كاثلين. وكلّفتها مبلغاً سخياً، ولكن أحياناً يكون بعض الإسراف مبرّراً. وأخذت مجموعة من بطاقات الشلنين للحفلة الختامية وأرسلتها إلى أولئك الذين لا يمكن الوثوق من حضورهم إلا بهذه الطريقة. لم تنس شيئاً، وبفضلها، شكراً لها، تم إعداد كل شيء كما يجب.

كان مقرراً أن تقام الحفلات أيام الأربعاء والخميس والجمعة والسبت. وحين وصلت السيدة كيرني بصحبة ابنتها إلى قاعات أنتييت الموسيقية مساء يوم الأربعاء لم يعجبها ما رأت. فقد رأت بعض الشبان يضعون شارات زرقاً براقة على معاطفهم، يقفون متكاسلين في الممر، ولم يكن أي منهم يرتدي ملابس السهرة. اجتازتهم مع ابنتها، وبنظرة واحدة ألقتها من خلال باب الصالة المفتوح عرفت سبب تعطُّل المشرف. في أول الأمر تساءلت إن كانت قد أخطأت الساعة. لا إنها الثامنة إلا ثلثاً.

في غرفة الملابس خلف المسرح تعرَّفت بسكرتير الجمعية، السيد فيتز باتريك. ابتسمت وصافحته. كان رجلاً ضئيلاً، ذا وجه أبيض، خالٍ من التعابير. ولاحظت أنه يعتمر قبعته الرقيقة البنية بإهمال على جانبٍ رأسه، وأن لهجته رخوة. كان يمسك بأحد البرامج بيده، وبينما هو يحدثها كان يمضغ أحد أطرافه حتى باتت كتلة رطبة. بدا أنه يتعامل مع التصرفات المخيّبة بخفّة. وكان السيد هولوهان يدخل إلى

الغرفة كل بضع دقائق حاملاً التقارير من دائرة البريد. وراح الفنانون يتحدثون فيما بينهم بعصبية، وبين الحين والآخر يلقون نظرة سريعة إلى المرآة وهم يلفّون ويفتحون نوتاتهم الموسيقية. وحين اقتربت الساعة من الثامنة والنصف، بدأ الجمهور القليل الذي أمّ القاعة يبدي رغبته ببدء التسلية. ودخل السيد فيتزباتريك، وهو يبتسم ابتسامة فارغة للغرفة، وقال:

"والآن، سيداتي سادتي، أعتقد أنه من الأفضل بدء الحفلة".

وكافأت السيدة كيرني مقطعه السوقي الأخير بنظرة احتقار سريعة، ثم قالت لابنتها مشجّعة: "هل أنت مستعدة، ياعزيزتي؟"

حين سنحت لها الفرصة، نادت على السيد هولوهان جانباً وطلبت منه تفسيراً لما يجري. ولم يكن السيد هولوهان يعلم. قال إن اللجنة قد ارتكبت خطأ بالإعداد لأربع حفلات: أربع حفلات كثيرة جداً.

قالت السيدة كيرني: "والفنانون! طبعاً هم يقومون بأقصى جهدهم، لكنهم بحق ليسوا جيدين".

اعترف السيد هولوهان بأن الفنانين ليسوا جيدين، لكن اللجنة، كما قال، قررت أن تتركهم يؤدون الحفلات الثلاث الأولى على هواهم، ليحتفظوا بكل موهبتهم لليلة يوم السبت. ولم تقل السيدة كيرني شيئاً، ولكن لما راحت النمر التافهة تتوالى واحدة بعد أخرى على الخشبة، وجمهور الصالة يقل أكثر فأكثر، بدأت تندم لأنها ورطت نفسها في مثل هذه الحفلات مقابل أي ثمن. كان في مظهر الأمور شيء لم يعجبها، وفي ابتسامة السيد فيتزباتريك الفارغة شيء أربكها كثيراً. مع ذلك، لم تقل شيئاً، وانتظرت لترى كيف ستنتهي الأمور، وانفضّت الحفلة الموسيقية قبل العاشرة بقليل، وأسرع الجميع إلى بيوتهم.

كان حضور حفلة ليلة السبت أفضل، لكن السيدة كيرني وجدت أن الصالة قد امتلأت بالأوراق. وتصرّف الجمهور بشكل غير لائق، كأن الحفلة الموسيقية كانت بروفة تبديل ملابس غير رسمية. وبدا السيد فيتزباتريك مستمتعاً، ولم يكن يدري أبداً أن السيدة كيرني كانت تلاحظ غاضبة تصرفه. ووقف بالقرب من الستارة، يمد رأسه بين آن وآخر خارجها، ويتبادل الضحك مع اثنين من أصدقائه في زاوية الشرفة.

أثناء الأمسية علمت السيدة كيرني أن حفلة يوم الجمعة تقرَّر إلغاؤها، وأن اللجنة ستقلب الأرض والسماء لتضمن ازدحام المكان بالمشاهدين لليلة يوم السبت. حين سمعت بهذا راحت تبحث عن السيد هولوهان، وأمسكت بتلابيبه بينما كان خارجاً يعرج مسرعاً مع كأس من الليمونادة لسيدة شابة، وسألته إن كان الأمر صحيحاً. نعم، إنه صحيح.

قالت: "ولكن هذا، طبعاً، لا يغيّر شيئاً من العقد. العقد هو من أجل أربع حفلات".

بدا السيد هولوهان مسرعاً، ونصحها بأن تحدث السيد فيتزباتريك. وعندئذٍ بدأ الرعب يستولي على السيدة كيرني. ونادت على السيد فيتزباتريك، وأبعدته عن الستارة، وأخبرته أن ابنتها وقّعت لإحياء أربع حفلات موسيقية، وأنها يجب، طبعاً، طِبقاً لبنود العقد، أن تستلم المبلغ المشترط عليه أصلاً، سواء قدَّمت الجمعية الحفلات الأربع أم لا. ولم يبد على السيد فيتزباتريك، الذي لم يفهم سريعاً نقطة الخلاف، أنه قادر على حل الإشكال، وقال إنه سيطرح القضية أمام اللجنة، وبدأ الغضب يغلي داخلها، وبذلت كل ما بوسعها كيلا تسأله:

"ومن هي اللجنة بحق الله؟"

لكنها علمت أنه ليس من قبيل التهذيب أن تقول له، لذا صمتت.

في صباح يوم الجمعة الباكر أُرسِلَ الأولاد الصغار إلى الشوارع الرئيسية لمدينة دبلن مع حزم الإعلانات. وظهرت عبارات المديح الخاصة في كل صحف المساء، مذكّرة محبّي الموسيقى بالمتعة التي تنتظرهم في الليلة القادمة. واطمأنت السيدة كيرني نوعاً ما، غير أنها قررت أن تخبر زوجها بجزء من وساوسها. أنصت بعناية وقال إنه من الأفضل أن يذهب معها في ليلة السبت. وافقت. كانت تحترم زوجها كما تحترم دائرة البريد العامة، باعتبارها شيئاً عظيماً، مضموناً وثابتاً. ورغم معرفتها بقلّة مواهبه إلا أنها أعجبت بقيمته المجردة كَذَكَرْ. كانت سعيدة لأنه اقترح مرافقتها. وأعادت التفكير في خططها.

حلّت ليلة الحفلة الكبرى. وصلت السيدة كيرني، مع زوجها وابنتها، إلى صالة أنتييت الموسيقية قبل موعد بدء الحفلة بثلاثة أرباع الساعة. ولسوء الحظ كانت أمسية ممطرة، وضعت السيدة كيرني ثياب ابنتها ونوتتها الموسيقية بعهدة زوجها وراحت تبحث في كل مكان من المبنى عن السيد هولوهان أو السيد فيتزباتريك، ولم تجد أياً منهما. سألت المشرفين إن كانوا قد رأوا أياً من أعضاء اللجنة في القاعة، وبعد الكثير من العناء أحضر لها أحد المشرفين امرأة ضئيلة تدعى الآنسة بيرن. شرحت لها السيدة كيرني قائلة إنها تريد أن ترى أحد السكرتيريين. كانت الآنسة بيرن تتوقع مجيئهم في أية لحظة، وسألتها إن كان بوسعها أن تقدّم أية معونة. نظرت السيدة كيرني نظرة متفحّصة إلى الوجه العجوز الذي استقر فيه تعبير الثقة والحماس وأجابت:

"لا، شكراً"

عبّرت المرأة الضئيلة عن أملها في أن تكون الحفلة ناجحة. راحت تنظر إلى المطر إلى أن محت كآبة الشارع العائم كل الثقة والحماس عن قسماتها الملتوية. ثم أطلقت تنهيدة صغيرة وقالت:

"آه، لا بأس، لقد بذلنا أفضل جهدنا، يعلم الله".

وكان على السيدة كيرني أن تعود إلى غرفة الملابس.

كان الفنانون يصلون تِباعاً. وصل مغني الجهير ومغني الصوت الرجالي الثاني. كان مغني الجهير السيد درغان، شاباً نحيلاً بشارب أسود أشعث. كان ابناً لساقٍ في قاعة أحد المكاتب في المدينة. حين كان صبياً غنى أنغاماً جهيرةً طويلة النَفَس في القاعة المترامية. ومن مركزه المتواضع ظل يرتقي حتى أصبح فناناً من الدرجة الأولى. شارك في إحدى الأوبرات الكبرى. وذات ليلة، حين مرض أحد فناني الأوبرا، حل محله في دور الملك في أوبرا ماريتانا Maritana[1] في مسرح الملكة. وقد أدى غناءه بانفعال عظيم وصوت جهير وقوبل بترحاب حار من الحضور. غير أنه لسوء الحظ شوّه الانطباع الجيد حين مسح أنفه بقفازه مرة أو مرتين إهمالاً منه. كان متواضعاً قليل الكلام. يقول "نعم" برقة حتى أن أحداً لا يسمعه، وهو لم يشرب عمره شيئاً أقوى من الحليب، ليحافظ على صوته. صاحب الصوت الثاني، السيد بل، كان رجلاً ضئيلاً ذا شعر أشقر، يشارك كل عام في مهرجان فايس سويل Feis ceoil[2] الموسيقي سعياً لكسب الجوائز. في محاولته الرابعة نال ميدالية برونزية. وأصبح عصبياً جداً وغيوراً من بقية المغنين. وأخفى غيرته العصبية بستار من الود المتوتر. وكان من شيمته أن يُخبر الناس كم كانت الكونشيرتو محنة عصبية بالنسبة له. لذا حين لمح السيد درغان اقترب منه وسأله:

"هل أنت مشترك أيضاً؟"

قال السيد درغان: "نعم"

ضحك السيد بل على رفيقه في المعاناة، ومد يده وقال:

"إيدك!"

مرت السيدة كيرني بهذين السيدين وعبرت إلى طـــرف الســـتارة لتنظر إلى الصالة، المقاعد امتلأت بسرعة، وانتشرت ضجة محببـــة بين الحضور. ثم عادت وتكلمت مع زوجها سراً. كـــان واضحـــاً أن حديثهما يدور حول كاتلين لأنهما نظرا إليها مـــراراً وهـــي واقفــة تتحادث مع إحدى صديقاتها من الحزب الوطني، هي الآنسة هيلــــي، مغنية الكونترالتو. وكانت هناك امرأة متوحـــدة ذات وجــه شـــاحب تتمشى في الغرفة. تابعت الفتاتان بعيون حادة الثوب ذا اللون الأزرق الفاتح الذي يغطي الجسم الهزيل. وقد قيل إنها مدام غلين، السوبرانو.

قالت كاتلين للآنسة هيلي: "أتساءل من أين نكشوها. أنا متأكدة من أنني لم أسمع باسمها أبداً".

اضطرت الآنسة هيلي أن تبتسم. وعَرَج السيد هولوهـــان داخـــلاً غرفة الملابس في تلك اللحظة فسألته الصبيتان عن المراة المجهولـــة، فقال السيد هولوهان إنها مدام غلين من لندن. اتخذت مدام غلين لـــها مجلساً في زاوية الغرفة، وهي تمسك حزمة من النـــوت الموســـيقية، وبين حين وآخر تغيّر اتجاه نظرتها المجفلة. وآوى الظــــل فســـتانها الفاتح في حمايته، لكنه سقط بانتقام على الكـــأس الصغـــيرة خلـــف ترقوتها. أصبحت ضجة الصالة مسموعة أكثر. ووصل المغني الأول والجهير الأول معاً، وكلاهما حسن الهندام، وضخـــم الجثـــة وبـــادي الرضى، وبثّا مزيداً من الروح بين أفراد الفرقة.

أحضرت السيدة كيرني ابنتها إليهم، وراحت تتحدث إليهم بمحبـــة. كانت تبغي أن تكون على علاقة طيبة معهم. ولكن بينما هي تكـــافح لتكون مهذّبة، كانت عيناها تتبعان السيد هولوهان في عَرَجه وخطـــاه الملتوية. وحالما سنحت لها الفرصة استأذنت وانطلقت خلفه.

قالت: "سيد هولوهان، أريد أن أتحدث إليك لحظة".

هبطا إلى جزء مستتر من الرواق. وسألته السيدة كيرني متى سيتم الدفع لابنتها. قال السيد هولوهان إن السيد فيتزباتريك هو الذي يتولى هذا الأمر. فقالت السيدة كيرني بأنها لا تعرف شيئاً عن السيدة فيتزباتريك. إن ابنتها قد وقّعت على عقد مقابل ثمانية جنيهات، ويجب أن يدفعوا لها. وقال السيد هولوهان بأن هذا ليس من شأنه.

سألت السيدة كيرني: "لماذا ليس من شأنك؟ ألستَ أنت نفسك أحضرت لها العقد؟ على أية حال، إن كان الأمر ليس من شأنك فهو من شأني وسأسعى إليه".

قال السيد هولوهان ببرود: "من الأفضل لك أن تتحدثي إلى السيد فيتزباتريك".

كررت السيدة كيرني قائلة: "إنني لا أعرف شيئاً عن السيد فيتزباتريك. لدي عقدي، وأنا مصممة على السهر على تنفيذه".

حين عادت إلى غرفة الملابس كانت وجنتاها مخضّبتين قليلاً. كانت الغرفة تعج بالحيوية، وثمة شابان بثياب الخروج احتلا المكان حول الموقد، يتحادثان بألفة مع الآنسة هيلي ومغني الجهير الأول. وهما مراسل صحيفة فريمن والسيد أومادن بيرك.

أتى مراسل الفريمن ليقول بأنه لن يستطيع أن يحضر الحفلة لأن عليه أن يرسل تقريراً حول المحاضرة التي كان يلقيها عندئذٍ قس أميركي في قاعة مانجن. قال بأنهم سيتركون التقرير في مكتب الصحيفة وهو سيذهب ليسهر على نشره. كان رجلاً ذا شعر أشيب وصوت رقيق على السمع ومظهر أنيق، يحمل سيجاراً مطفئاً في يده، وعبق دخان السيجار يطفو بالقرب منه. لم يكن ينوي أن يبقى لحظة واحدة، لأن الحفلات الموسيقية والفنانين يضجرونه إلى حد كبير، لكنه ظل متكئاً على رف المدفأة. ووقفت الآنسة هيلي، تحدثه

وتضحك. كان من الرشد بحيث يشك بوجود أي سبب لتكون مؤدبة، لكنه أيضاً كان يضمر من شباب الروح ما يجعله يستفيد من هذه اللحظة. فدفء وعبير ولون جسدها وجدت استحساناً لدى أحاسيسه. كان واعياً بشكل لذيذ إلى أن الصدر الذي رآه يرتفع وينخفض ببطء غير جدير به، راح ينتفض ويخفق في ذلك الحين لأجله، وأن الضحك والعبير والنظرات المتعمّدة هي إكرام له. ولما لم يعد بوسعه البقاء استأذن منها معتذراً. وهتف للسيد هولوهان: "أومادن بيرك سيكتب المذكرة، وأنا سأتكفّل بنشرها".

قال السيد هولوهان: "شكراً جزيلاً يا سيد هندريك، أعرف أنك ستتولى أمرها. والآن هل ترغب بتناول شيء قبل أن تذهب؟"

قال السيد هندريك: "لا أمانع؟"

توجه الرجلان خلال ممرات متعرجة، وصعدا درجاً مظلماً، ووصلا إلى غرفة منعزلة حيث كان أحد المشرفين بفتح قنانٍ لبعض السادة. أحد هؤلاء السادة كان السيد أومادن بيرك الذي عثر على الغرفة بالغزيرة، وكان رجلاً دمثاً، كبير السن، يوازن جسمه المهيب، حيث يرتاح، على مظلة حريرية كبيرة؛ اسمه الغربي المفخّم كان بمثابة المظلة الأخلاقية التي يوازن عليها مشاكله المالية الدقيقة. لقد كان محترماً إلى أقصى حد.

وبينما كان السيد هولوهان يسلي مراسل الفريمن كانت السيدة كيرني تتحدث بحيوية شديدة مع زوجها، حتى أنه طلب منها أن تخفض صوتها. وأصبح حديث الآخرين في غرفة الملابس متوتراً، ووقف السيد بل، صاحب الفقرة الأولى، مستعداً مع مقطوعته الموسيقية، لكن مرافقته لم تُبدِ حراكاً. كان واضحاً أن ثمة خطباً. نظر السيد كيرني أمامه مباشرة وهو يمسّد لحيته، بينما راحت السيدة كيرني تتحدث في

أذن كاتلين بتوكيد ملطَّف. ومن الصالة تتناهت أصوات التشجيع، والتصفيق وخبط الأقدام. وقف الصادح الأول والجهير الأول والآنسة هيلي معاً، ينتظرون بهدوء، لكن أعصاب السيد بل كانت مهتاجة جداً، لأنه خشي أن يظن الجمهور أنه تأخر في الوصول.

دخل السيد هولوهان والسيد أومادن بيرك إلى الغرفة، وعلى الفور شعر السيد هولوهان بوجود الوجوم فتقدم من السيدة كيرني وتكلم معها برصانة. وبينما هما يتحادثان تصاعد الهرج في الصالة. واحمر وجه السيد هولوهان وثار. وداور في كلامه، لكن السيدة كيرني قالت باقتضاب فظ وعلى فترات:

"إنها لن تشترك. يجب أن تحصل على جنيهاتها الثمانية".

أشار السيد هولوهان يائساً نحو الصالة حيث المشاهدين يصفقون ويدقون بأقدامهم. وناشد السيد كيرني وكاتلين، لكن السيد كيرني تابع تمسيد لحيته، ونظرت كاتلين إلى أسفل وهي تحرك مقدمة حذاءها الجديد. إنها ليست غلطتها. وكررت السيدة كيرني:

"لن تتابع بدون نقودها".

بعد صراع بالألسن سريع طَفَر السيد هولوهان خارجاً على عجل. و ساد الصمت الغرفة. وحين أصبح ضغط الصمت مؤلماً نوعاً ما قالت الآنسة هيلي لمغني الجهير الأول:

"هل رأيت السيدة بات كامبل هذا الأسبوع؟"

لم يرها المغني، ولكن قيل له بأنها في أحسن حال. ولم تستمر المحادثة. أحنى الصادح الأول رأسه وبدأ يعدّ حلقات سلسلة الذهب الممتدة على طول خصره، مبتسماً يهمهم نغمات لا على التعيين ليلاحظ أثرها على التجويف الجبهي. وبين الحين والحين ينظر الجميع إلى السيدة كيرني.

تصاعد الضجيج بين الحضور إلى حد الصخب، وإذا بالسيد فيتزباتريك يقتحم الغرفة، يتبعه السيد هولوهان لاهثاً. وصار التصفيق والدقّ بالأقدام منتظماً بإيقاع الصفير، وأمسك السيد فيتزباتريك بضع ورقات نقديه بيده. عدّ منها أربعاً إلى يد السيدة كيرني، وقال بأنها ستحصل على النصف الثاني في الاستراحة. فقالت السيدة كيرني:

"هذه تنقص أربعة جنيهات".

لكن كاتلين جمعت أطراف ثوبها وقالت: "ابدأ الآن، يا سيد بل لأداء الفقرة الأولى" وكان يرتعش كالحور الرجراج. وبدأ المغني ومرافقته معاً. وخمدت الضجة في الصالة. ساد صمت لبضع لحظات، ومن ثم سُمع صوت البيانو.

كان الجزء الأول من الحفلة ناجحاً جداً ما عدا فقرة مدام غلين. غنّت المسكينة مقطوعة كيلارني Killarney بصوت لاهث غير متناسق، بكل التكلّفات العتيقة للتنغيم واللفظ التي اعتقدت أنها تضفي أناقة على غنائها، وبدت كأنها طالعة من خزانة للملابس المسرحية العتيقة، وسَخِر من نغماتها المولولة العالية جمهور المقاعد الرخيصة. أما الصادح الأول والجهير الأول فهزّا الدار. وعزفت كاتلين ألحاناً إيرلندية قوبلت بترحاب كريم. واختُتِمَ الجزء الأول بنشيد وطني مثير ألقته صبية هي التي أعدّت عروضاً مسرحية للهواة. وتلقّت استحساناً تستحقه، وفي النهاية خرج الرجال لفترة الاستراحة، راضين.

طوال هذا الوقت وغرفة الملابس كانت كخلية تعج بالإثارة. في إحدى الزوايا اجتمع السيد هولوهان، والسيد فيتزباتريك، والآنسة بيرن، واثنان من المشرفين، والجهير الأول، والجهير الثاني والسيد أومادن بيرك. قال السيد أومادن بيرك إنه كان عرضاً من أكثر ما شاهد خزياً. لقد انتهى مستقبل الآنسة كاتلين كيرني الموسيقي في

دبلن بعد ذلك، كما قال. وسُئل الجهير الأول عن رأيه بسلوك السيدة كيرني. ولم يرغب بالإدلاء بأي رأي. لقد دفعوا له ويود أن يكون على علاقة طيبة بالشباب. مع ذلك، قال لعل السيدة كيرني أخذت في حسبانها كل الفنانين. وأخذ المشرفون والسكرتارية يتناقشون بحرارة حول ما يجب عمله بعد الاستراحة.

قال السيد أومادن بيرك: "أنا أوافق الآنسة بيرن: لا تدفعوا لها شيئاً".

في زاوية أخرى من الغرفة وقفت السيدة كيرني وزوجها، والسيد بل، والآنسة هيلي والصبية التي ألقت المقطوعة الوطنية. قالت السيدة كيرني إن اللجنة قد عاملتها بطريقة مخزية. إنها لم توفر جهداً ولا مالاً وإذا بها تُكافأ على ذلك النحو.

لقد ظنوا أنهم يتعاملون مع فتاة مقطوعة من شجرة وأنه، لذلك، يمكنهم أن يستغلوها بوحشية. لكنها ستريهم أنهم مخطئون. إنهم ما كانوا تجرأوا على معاملتها هكذا لو كانت رجلاً، لكنها ستعمل على أن تنال ابنتها حقوقها: إنها لن تُخدع. وإذا لم يدفعوا لها حتى آخر قرش ستهز دبلن هزاً. طبعاً هي آسفة لما نال الفنانين، ولكن ماذا كان بوسعها أن تفعل؟ واحتكمت إلى الصادح الأول، الذي قال بأنه يظن أنهم لم يحسنوا معاملتها. ثم احتكمت إلى الآنسة هيلي. الآنسة هيلي تميل للانضمام إلي الفريق الأول، لكنها لا تريد أن تفعل لأنها صديقة حميمة لكاتلين، وكم من مرة دعاها آل كيرني إلى بيتهم.

حالما انتهى الجزء الأول اقترب السيد فيتزباتريك والسيد هولوهان من السيدة كيرني، وقال لها إن الجنيهات الأربع الأخرى ستُدفع بعد اجتماع اللجنة يوم الثلاثاء القادم؛ وأنه إذا ما امتنعت ابنتها عن العزف في الجزء الثاني، فإن اللجنة ستعتبر العقد لا غياً ولن تدفع لها شيئاً.

قالت السيدة كيرني غاضبة: "أنا لم أر أية لجنة، وابنتي معها عقدها. وستستلم الجنيهات الأربعة بيدها، وإلا فإنها لن تضع قدمها على تلك الخشبة".

قال السيد هولوهان: "إنني مندهش منك، يا سيدة كيرني. لم يخطر لي أبداً أنك ستعاملينا هكذا".

سألت السيدة كيرني: "وكيف عاملتموني أنتم؟"

اصطبغ وجهها بلون الغضب، وبدت كأنها على وشك أن تُطبق على أحدهم بيديها.

قالت: "إنني أطالب بحقوقي".

قال السيد هولوهان: "يمكن أن تتصرفي ببعض التهذيب".

"هكذا تتوقع، حقاً؟ ... وحين أسأل متى ستحصل ابنتي على أجرها لا أحصل على جواب مهذب".

وشمخت برأسها وانتحلت صوتاً متغطرساً:

"يجب أن تتكلمي مع السكرتير. إنه ليس شأني. إنني شخصية عظيمة، مين قدّي!"

قال السيد هولوهان: "ظننتك سيدة محترمة" وأسرع مبتعداً عنها.

بعد ذلك نال تصرف السيدة كيرني الإدانة على كل يد. ووافق الجميع على إجراء اللجنة. ووقفت هي عند الباب، مرهقة من السخط، تجادل زوجها وابنتها، وتتبادل معهما الإيماءات. وانتظرت حتى حان موعد بدء الجزء الثاني على أمل أن يتقدّم منها أحد السكرتارية، لكن الآنسة هيلي كانت قد وافقت متلطّفة على أن تعزف كمرافقة مرة أو مرتين. واضطرت السيدة كيرني على التنحّي جانباً للسماح للجهير الأول ومرافقته بالصعود على الخشبة. ظلت واقفة بلا

حراك لبرهة كصورة حجر غاضب، وحين طرقت سمعها الأنغام الأولى للأغنية، أمسكت ابنتها من ثوبها وقالت لزوجها:

"إطلب سيارة!"

وخرج مسرعاً. لفّت الثوب حول ابنتها وتبعته. وحين مرَّت خلال باب الخروج توقفت وحملقت في وجه السيد هولوهان.

قالت: "لم أنتهِ منكَ، بعد".

قال السيد هولوهان: "أما أنا فانتهيت منك"

تبعت كاتلن أمها في خنوع. وبدأ السيد هولوهان يقطع الغرفة جيئة وذهاباً، ليهدّئ من ثورته لأنه شعر أن جلده يحترق.

قال: "يا لها من سيدة لطيفة! أوه، مهذبة تماماً!"

قال السيد أومادن بيرك: "لقد قمتَ بالعمل الصحيح، يا هولوهان". وتوازن على مظلته مستحسناً.

الهوامش:

(1) ماريتانا: أوبرا من تأليف الموسيقى الإيرلندي فنسنت ويليم والاس (1912-1865)، له أيضاً أوبرا لورلاين.

(2) مهرجان فايس سويل الموسيقي Fies ceail يقام كل عام في مدينة دبلن، تأسس عام 1897.

نعمة إلهية

اثنان من السادة كانا في حجرة الغسل في ذلك الوقت، حاولا أن يرفعاه، لكنه كان عاجزاً تماماً. كان ملقى مكوّماً أسفل الدرج الذي سقط عنه. ونجحا في قلبه.

كانت قبعته قد تدحرجت بضع ياردات مبتعدة، وتلوّثت ملابسه بقذارة ولزوجة الأرض التي تمدّد عليها، ووجهه إلى أسفل. كانت عيناه مغلقتين وأنفاسه كأنها ضجيج طحن، ومن زاوية فمه جرى خيط رفيع من الدم.

حمله هذان السيدان مع أحد القسس وصعدوا به الدرج ومدّدوه مرة أخرى على أرض البار. وخلال دقيقتين أحاطت به حلقة من الرجال. سأل مدير البار الجميع عن الرجل وعمّن كان معه. ولم يتعرف عليه أحد، غير أن أحد القسسة قال إنه قدّم للرجل كأساً صغيرة من الروم.

سأل المدير: "هل كان وحده؟"

"لا، ياسيدي. كان برفقته سيدان".

"وأين هما؟"

لم يجب أحد: وقال صوت:

"اسمحوا ببعض الهواء، إنه ضعيف".

امتدت حلقة النظّارة وانغلقت مرة أخرى بمرونة. وتشكّل بالقرب من رأس الرجل على الأرض المزيّنة بالفسيفساء وسام قاتم من الدم.

ومسَّ الرعب المدير بعد أن رأى شحوب وجه الرجل الشديد، فأرسل يطلب رجل بوليس.

فكوا الياقة عن عنقه، وحلّوا الرباط، وفتح عينيه برهة، وتنهد ثم أغلقهما ثانية. وكان أحد السيدين اللذين حملاه إلى أعلى الدرج يحمل قبعة حريرية مهشَّمة في يده. وكرر المدير سائلاً إن كان أحد عرف من هو الرجل المجروح أو أين ذهب صديقاه. وفتح باب البار ودخل منه رجل بوليس ضخم. وتجمع الحشد الذي كان قد تبعه على الطريق خارج الباب، يتزاحمون للنظر من خلال ألواح الزجاج.

بدأ المدير على الفور بسرد ما يعرف، وأنصت الشرطي الشاب ذو التقاسيم الجامدة الغليظة. كان يحرك رأسه ببطء إلى اليمين وإلى اليسار، وينقله من المدير إلى الشخص الملقى على الأرض، كأنه يخشى أن يكون ضحية تضليل ما. ومن ثم خلع قفازيه، و أخرج كتاباً صغيراً من حزامه، ولعق رصاص القلم واستعد للتدوين. وسأل بنبرة ريفية شكَّاكة:

"من الرجل؟ ما اسمه وعنوانه؟"

شق شاب يرتدي ملابس ركوب الدراجات، طريقه خلال جمهرة المارة، وخرَّ راكعاً بجانب الجريح، ثم هتف طالباً بعض البراندي. أعاد الشرطي الامر بصوت حازم إلى أن أتى القس مسرعاً مع الزجاجة. أُجبِرَ الرجل على شرب البراندي، وبعد لحظات فتح عينيه وراح ينظر حوله. نظر إلى جمع الوجوه، وبعد أن فهم الأمر جاهد لينهض على قدميه.

سأل الشاب ذو ملابس الركوب: "هل أنت على مايرام؟"

قال الجريح، وهو يحاول الوقوف: "ماشي الحال".

وساعدوه ليقف على قدميه. وقال المدير شيئاً حـــول مستشـــفى، وأدلى أحد المارة بنصيحته، وأعيدت القبعة الحريرية المسحوقة إلـــى رأس الرجل، وسأل الشرطي:

"أين تسكن؟"

دون أن يجيب، بدأ الرجل يبرم ذؤابتي شاربه، وأخـــذ يســتخف بالحادثة التي وقعت له. قال إنها لا تستحق الذكر، إنها مجرد حادثـــة صغيرة. قالها بغلظة.

كرر الشرطي: "أين تسكن؟"

قال الرجل إن عليهم أن يطلبوا له سيارة. وبينما الأمـــر محـــور جدال اقترب شاب رشيق جميل البشرة، يرتدي معطفاً أصفرَ طويـــلاً، من الطرف الأقصى للبار، ولما رأى المشهد، هتف قائلاً:

"مرحبا توم، يا صديقي العزيز، ما المشكلة؟"

قال الرجل: "لاشيء يستحق الذكر".

تفحص القادم الجديد القامة البائسة المنتصبة أمامه ثم استدار إلـــى الشرطي، قائلاً:

"لابأس، أيها الشرطي، سأوصله بنفسي إلى البيت".

نقر الشرطي خوذته، وأجاب:

"حسن، يا سيد باور!"

قال السيد باور، ممسكاً صديقه من ذراعه: "هيا بنا، يـــا تـــوم. لا أظن عظمك انكسر. ماذا؟ هل يمكنك المشي؟"

أمسكه الشاب ذو ثياب الركوب من ذراعه الثانية وتفرَّق الحشد.

سأل السيد باور: "كيف أقحمت نفسك في هذه الفوضى؟"

قال الشاب: "لقد سقط السيد من على الدرجٍ".

قال الرجل المجروح: "إنني ممتنّ لك كثيراً، يا سيدي"

"لا شكر على واجب".

"ألا نتناول قليلاً من ...؟"

"ليس الآن، ليس الآن".

غادر الرجال الثلاثة البار وتسرّب الحشد من الأبواب إلى الطرق. ودلّ المدير الشرطي إلى الدرج حيث مسرح الحادثة. واتفقا على أنه لابد أن الرجل أخطأ درجة. وعاد الزبائن إلى منصّة البار، وتجوّل قسّ في المكان يزيل آثار الدم عن الأرض.

حين خرجوا إلى شارع غرافتون صفّر السيد باور لأحد الغرباء، وعاد الرجل الجريح يقول كلما استطاع: "إنني مممتن لك يا سيدي. أتمنى أن نتقابل ثانية. اسمي كرنان".

وجعلته الصدمة والألم يصحو قليلاً.

قال الشاب: "لا شكر على واجب".

تصافحا. وساعدا السيد كرنان على دخول السيارة، وبينما السيد باور يعطي التوجيهات لسائق السيارة، عبَّر عن امتنانه للشاب وأبدى أسفه لأنهم لا يستطيعون المشاركة في شرب كأس صغيرة.

قال الشاب: "مرة أخرى".

انطلقت السيارة باتجاه شارع ويستمورلاند، وحين عبرت مكتب بالاست بيَّنت الساعة أنها التاسعة والنصف، وهبَّت من فم النهر ريح شرقية حادة صفعتهم. وكان السيد كرنان يلمُّ نفسه من البرد. وسأله صديقه أن يحكي له ما حدث.

أجاب: "لا أستطيع، لساني يؤلمني".

"أرني".

مال الآخر عبر مقعده في السيارة، وتفحَّص فم كرنان، لكنه لم يتمكن من الرؤية. قدح عود ثقاب، وبعد أن وقاه بتجويف يده، عاد

يتفحَّص الفم الذي فتحه السيد كرنان طائعاً. جعلت حركة السيارة المتمايلة عود الثقاب يهتز أمام الفم المفتوح. وكانت أسنان الفك السفلي واللثة مغطاة بدم متخثّر، وبدا طرف صغير من اللسان قد انتزع. وانطفأ العود.

قال السيد باور: "هذا بشع".

كان السيد كرنان يعمل وكيلاً متجولاً حسب المدرسة القديمة التي تؤمن بنبل أهدافها. لا يُرى في المدينة إلا وهو يضع قبعة حريرية توحي بشيء من الاحترام، وينتعل زوجاً من الطماقات لحذائه. وهو يقول إن الإنسان يمكنه أن يطمئن بفضل نعمة قطعتي الملابس هاتين. وهو يقتدي بتراث نابليونه الجديد، بلاكوايت العظيم، الذي يستحضر ذكراه أحياناً بالأسطورة والتخفّي. وكانت أساليب العمل الحديثة قد تركته يحصل فقط على مكتب صغير في شارع كراو، كتب على ستارة نافذته اسم شركته مع العنوان – لندن F.C. على رف المدفأة في هذا المكتب الصغير صُفَّت كتيبة رصاصية من العلب الصغيرة، وعلى الطاولة أمام النافذة انتصبت أربع أو خمس طاسات تكون عادة مملوءة حتى منتصفها بسائل أسود. من هذه الطاسات كان السيد كرنان يتذوق الشاي. يتناول ملء فم، يرطّب به حنكه ومن ثم يبصقه في منصب الموقد، ويتوقف ليحكم.

والسيد باور، الأصغر سناً، كان موظفاً في مكتب دائرة الشرطة الملكية الإيرلندية في قلعة دبلن. وكان منحنى ارتقائه الاجتماعي يتقاطع مع انحدار منحنى صديقه، غير أن انحدار أحوال السيد كرنان كان يخفّف منه أن بعض هؤلاء الأصدقاء الذين تعرفوا عليه وهو في ذروة نجاحه، مازالوا يحترمونه باعتباره شخصية مميَّزة. والسيد

باور هو واحد من أولئك الأصدقاء. ديونه غير المبررة كانت مثار سخرية في حلقته. لقد كان شاباً مرحاً.

توقفت السيارة أمام منزل صغير في طريق غلاسنيفين، وساعد السيد كرنان على الدخول زوجته والسيد باور، ثم آوت الزوجة زوجها إلى سريره، بينما جلس السيد باور في الطابق السفلي في المطبخ يسأل الأولاد إلى أية مدرسة يذهبون وفي أي كتاب يدرسون. ولما علم الأولاد أن أباهم خائر القوى وأمهم غائبة، بدأوا يتصرفون بسماجة معه. واندهش لسلوكهم ولهجتهم، وغيمت سحابة التفكير على جبينه.

بعد فترة قصيرة دخلت السيدة كرنان المطبخ، تهتف:

"ياله من مشهد! آه، سيقتل نفسه ذات يوم. هذا كل شيء، إنه يشرب منذ يوم الجمعة".

كان السيد باور حريصاً على أن يشرح لها أنه ليس مسؤولاً، وأنه وصل إلى مكان الحادثة بالصدفة المحضة. ولما كانت السيدة كرنان تذكر مواقف السيد باور الطيبة أثناء المشاحنات العائلية، وقروضه الصغيرة العديدة، ولكن المناسبة، فقد قالت:

"أوه، لا تقل لي باور. أعرف أنك له صديق، ليس مثل الآخرين الذين يتعامل معهم. إنهم طيبون مادامت النقود في جيبه ليبعدوه عن زوجته وعائلته. يالهم من أصدقاء طيبين! مع من كان هذا المساء؟ أود أن أعرف".

هزَّ السيد باور رأسه لكنه لم يقل شيئاً.

تابعت: "أنا شديدة الأسف، ولكن ليس لدي في البيت ما أقدّمه لك. إذا انتظرت دقيقة سأرسل أحداً إلى محل فوغارتي، هنا عند الزاوية".

نهض السيد باور واقفاً، فقالت:

"كنا ننتظر عودته مع النقود. لا يبدو أنه يفكر أبداً بأن له بيتاً".

قال السيد باور: "أوه، والآن، يا سيدة كرنان. إننا سنجعله ينقلـــب إلى صفحة جديدة. سأتحدث مع مارتن. إنه الرجل المناسب. ســنأتي ذات مساء ونتحدث في الأمر."

ورافقته حتى الباب. وكان سائق التاكسي يتمشى على الرصيــف. ويلوح بيديه ليدفأ.

قالت: "لطيف منك أن تحضره إلى البيت".

قال السيد باور: "لا شكر على واجب".

واستقل السيارة، وبينما هي تنطلق رفع لها قبعته بمرح.

قال: "سنجعل منه رجلاً جديداً. أُسعدت مساء، سيدة كرنان".

راقبت عينا السيدة كرنان المتحيِّرتان السيارة إلى أن غـــابت عن الأنظار، ثم أخفضتهما ودخلت إلى المنزل، وراحت تفـــرغ جيوب زوجها.

كانت امرأة حيوية، عملية، في منتصف العمر. قبل وقـــت ليــس بالطويل احتفلت بيوبيل زواجها الفضي، وجدَّدت مودَّتها لزوجها بـــأن رقصت معه الفالس مسايرة للسيد باور. في أيام الغزل، لم يكن الســيد كرنان يبدو مفتقراً لموهبة التودُّد للنساء.

وحتى الآن، كلما سمعت بحفلة زواج تهرع إلى بـــاب الكنيســة، وحين يقع بصرها على العريس والعروس، تتذكر بمتعـــة وحيويـــة كيف عبرت خارجة من كنيسة نجم البحر في سانديماوث، وهي تتكئ على ذراع رجل مرح حسن التغذية، كان يرتدي بأناقة سترة فـــروك وبنطالاً أرجوانياً فاتحاً، وعلى ذراعه الأخرى يوازن بروعـــة قبعـــة حريرية. بعدها بثلاثة أسابيع وجدت حياة الزواج مضجرة، وبعد ذلـك بفترة، حين بدأت تجدها غير محتملة، كانت قد أضحت أماً. ولم يقـــدم لها دورها كأم أية صعوبات مستعصية. وطوال خمس وعشرين ســنة

حافظت على البيت بصرامة لأجل زوجها. ثم أنجبت أكبر ولديـــــها. وصار أحدهما يعمل في متجر لبيع الأقشمة في غلاســكو، والآخـر موظفاً في شركة لتجارة الشاي في بلفاست. كانا ولديـــن صــالحين، يراسلانها بانتظام، وأحياناً يرســلان نقــوداً للبيــت. وكــان الأولاد الآخرون ما يزالون في المدرسة.

في اليوم التالي بعث السيد كرنان رسالة إلى مكتبه وبقي ملازمــاً السرير. وصنعت له زوجته وجبة لحم بقر وشاي وأنَّبتـــه مــداورة. كانت تتقبّل إدمانه المستمر كجزء من الجو العام، وتطبّبه بمثابرة كلما مرض، وتحاول دائماً أن تجعله يتناول إفطاره. ثمة أزواج أسوأ منه. لقد كفَّ عن عنفه منذ أن كبر الأولاد، وكانت تعلم أنه مستعد للمشــي حتى شارع توماس والعودة ثانية لمراجعة أي أمر، ولو كان صغيراً.

بعد ذلك بليلتين جاء أصدقاؤه لزيارته. دلّتهم إلـــى غرفــة نومــه المشبع جوها بعبق خاص. وقدّمت لهم كراسي قرب النار. لقد أصبـــح لسان السيد كرنان، الذي جعله ألمه المتناوب نزقاً أثناء النــهار، أكــثر تأدباً. كان جالساً في سريره مدعوماً بالوسائد، وقد جعل تلُّون وجنتيـــه المكتنزتين تشبهان الجمر الحار. اعتذر لضيوفه بسبب فوضى الغرفــة، ولكن في الوقت نفسه نظر إليهم بشيء من الإباء. بفخر محنَّك.

كان جاهلاً تماماً أنه ضحية مؤامرة أفشـــاها أصدقـــاؤه، الســيد كننغهام، والسيد ماكوي، والسيد باور، للسيدة كرنان فــــي الصالــة. خطَّط للمؤامرة السيد باور، لكن أمر تطويرها عهد به للسيد كننغــهام. والسيد كرنان منحدر من أصل بروتستانتي، ورغم أنه تحـــول إلـــى العقيدة الكاثوليكية لدى زواجه إلا أنه لم يدخل كنسية منـــذ عشـــرين سنة. أكثر من ذلك، كان مولعاً بالتهجُّم على المذهب الكاثوليكي.

كان السيد كيننغهام هو الرجل المناسب في مثل هذه القضية. كان زميل السيد باور الأكبر سناً. حياته العائلية ليست سعيدة كثيراً. والناس يكنون له تعاطفاً عظيماً، فقد عرف عنه أنه تزوج من امرأة بشعة كانت سكيرة لا أمل منها. لقد أعدَّ لها بيتاً ست مرات، وفي كل مرة كانت ترهن الأثاث على حسابه.

كان الجميع يضمرون الاحترام للمسكين مارتن كيننغهام. لقد كان رجلاً ذا حس بكل معنى الكلمة، مؤثراً وذكياً. وسيف معرفته الإنسانية، ودهاؤه الفطري الذي تحدَّد من طول ارتباطه بالقضايا في محاكم البوليس، قد لطَّفت منهما انغماساته القصيرة بمياه الفلسفة العامة. كان حَسَن الإطلاع. ينحني أصدقاؤه أمام آرائه، وكانوا يرون أن وجهه يشبه وجه شكسبير.

حين أفشوا خطتهم لها، قالت السيدة كرنان:

"وضعت القضية كلها بين يديك، ياسيد كيننغهام".

بعد ربع قرن من الحياة الزوجية، لم تعد تحمل إلا أقل القليل من الأوهام. لقد كان الدين بالنسبة لها عادة، وكانت ترى أن رجلاً بعمر زوجها لا يمكن أن يتغير كثيراً قبل الموت. لقد وجدت في حادثته شيئاً ملائماً غريباً، وكانت تود أن تقول للسادة بأن لسان السيد كرنان لن يعاني إذا ما قصر، لكنها لم ترغب في أن تبدو دموية التفكير. ومهما يكن، فقد كان السيد كيننغهام رجلاً قادراً، والدين هو الدين. وقد تنفع الخطة، وعلى الأقل قد لا تضر. لم تكن معتقداتها متطرفة. كانت تؤمن برسوخ بـ (القلب المقدس) باعتباره، عموماً، أكثر أساليب التقوى والأسرار المقدسية الكاثوليكية المعترف بها نفعاً. وإيمانها كان مرتبطاً بمطبخها، ولكن، لو ترك الأمر لها لآمنت أيضاً بالبانشي banshee وبالروح القدس.

بدأ السادة يتكلمون عن الحادثة، فقال السيد كننغهام إنه شهد ذات مرة قضية مماثلة. فقد قضم رجل في السبعين قطعة من لسانة أثناء نوبة صرع، وقد ترمم اللسان ثانية، بحيث أن لا أحد يستطيع أن يرى أثر القضم.

قال المريض: "حسن، لست في السبعين".

قال السيد: كننغهام "أعوذ بالله".

سأل السيد ماكوى: "لا أظنه يؤلمك الآن؟"

والسيد ماكوى كان ذات يوم مغنياً أوبرالياً له بعض الشهرة. وزوجته، مغنية السوبرانو، ما تزال تعلم الأولاد الصغار على البيانو بنغمات بسيطة. لم يكن خط حياته أقصر مسافة بين نقطتين. وقد اضطر على فترات قصيرة أن يعيش بذكائه، فعمل موظفاً في شركة ميدلند للخطوط الحديدية، ومروجاً دعائياً لصحيفة آيرش تايمز ولصحيفة فريمن جورنال، ومتنقلاً بعمولة لصالح شركة للفحم بين المدن، ووكيلاً للتحقيق الخاص، وموظفاً في مكتب نائب العمدة، ومؤخراً أصبح سكرتيراً لمكتب تحقيق الوفيات في المدينة. لقد جعله منصبه الجديد – يهتم بحكم عمله – بقضية السيد كرنان.

أجاب السيد كرنان: "ألم؟ ليس كثيراً، لكني أشعر بالغثيان. أشعر أني أريد أن أتقيأ".

قال السيد كننغهام بحزم: "إنه الإدمان".

قال السيد كرنان: "لا، أظنني أصبت بالبرد وأنا في السيارة. هناك شيء يظل يتجمَّع في حنجرتي، لعله بلغم أو ..."

قال السيد ماكوى: "إنه مخاط".

"إنه يظل يتجمَّع كأنه يأتي من الأسفل إلى حنجرتي، شيء مقزز".

قال السيد ماكوى "نعم، نعم، اسمه الزّور".

نظر إلى السيد كننغهام والسيد باور في الوقت نفسه بمظهر التحدي. أومأ السيد كننغهام برأسه بحركة سريعة وقال السيد باور:

"آه، حسن، كل شيء خير مادام ينتهي بخير".

قال المريض: "إنني شديد الامتنان لك، أيها العجوز".

لوَّح السيد باور بيده:

"الشخصان اللذان كنت برفقتهما ...."

سأل السيد كننغهام: "مع مَنْ كنت؟"

"مع شاب. لا أعرف اسمه. اللعنة عليه الآن، ما اسمه؟ شاب قصير ذو شعر رملي اللون ..."

"ومن غيره؟"

"هارفورد"

قال السيد كننغهام: "هممم".

حين أدلى السيد كننغهام بتلك الملاحظة، صمت الحاضرون. وكان معروفاً أن المتحدث لديه مصادر سرية يستقي منها المعلومات. في هذه الحال يكون للمقطع الواحد هدف أخلاقي. فقد كان السيد هارفورد عضواً في مجموعة صغيرة مستقلة تركت المدينة بعد تشكُّلها بوقت قصير من بعد ظهيرة يوم أحد، بقصد الوصول بأسرع وقت ممكن إلى إحدى الحانات في ضواحي المدينة. وهناك أعدَّ أعضاؤها أنفسهم بشكل مناسب ليكونوا جوالين bona fide. غير أن أصدقاءه المتجولين لم يتَّفقوا على التغاضي عن أصله. فقد بدأ حياته كمتعامل مالي يقرض مبالغ صغيرة للعمال بالربا. بعد ذلك أصبح شريكاً لرجل سمين جداً وقصير، هو السيد غولدبرغ، في بنك ليفي للقروض. ورغم أنه لم يعتنق أكثر من الدستور الأخلاقي اليهودي، إلا أن أصدقاءه الكاثوليكيين كانوا يتكلمون عنه بلغة قاسية، كلما نالهم من ابتزازه أذى

مباشر سواء، عن طريقه أو عن طريق وكيلـــه، فيصفونــه بيــهودي إيرلندي وأمّي ويرون الاستنكار الإلهي للربا متمثّـــلاً بشــخص ابنــه الأبله. وفي أحيان أخرى كانوا يذكرون مآثره الطيبة.

قال السيد كرنان: "أتساءل إلى أين وصل؟"

وأبدى رغبته في أن تبقى تفاصيل الحادثة خفيّـــة. ودَّ أن يعتقــد أصدقاؤه أن في الأمر خطأ، أن السيد هارفورد وهو قد افتقـــد كــل منهما الآخر. ولزم أصدقاؤه، الذين كانوا يعرفون تمام المعرفة سلوك السيد هارفورد في الشرب، الصمت. وعاد السيد باور يقول:

"كل شيء خير إذا انتهى إلى خير".

غيَّر السيد كرنان الموضوع على الفور.

قال: "كان ذاك شاباً مهذباً، ذاك الطبيب، ما كان لغيره أن ..."

قال السيد باور: "آه، ماكان لغيره. كان يمكن أن يمتد الأمر ســبعة أيام، دون اختيار للغرامة.

قال السيد كرنان: "نعم، نعم "محاولاً أن يتذكر" أذكر الآن أنه كــان هناك رجل بوليس. شاب مهذب كما بدا لي. وكيف حدث الأمر كله؟"

قال السيد كننغهام بوقار: "حدث أن كنت سكراناً، ياتوم"

قال السيد كرنان، وقوراً بنفس المقدار: "بيان صحيح"

قال السيد ماكوى: "أعتقد أنك اتفقت مع الشرطي، يا جاك"

لم يستسغ السيد باور استخدامه لاسمه الأول، ليس لأنه متزمتـــاً، بل لأنه لم يكن يستطع أن ينسى أن السيد ماكوى كان مؤخراً قد شــن حملة بحث عن حقائب سفر ليتيح للسيدة مــاكوى أن تنجــز أعمــالاً خيالية في الريف. واستياؤه من كونه موضوع خداع لم يَفُقْــه ســوى امتعاضه من ذاك التعالي الوضيع مع قوانين اللعبة. لذا، أجاب علـــى السؤال وكأن السيد كرنان هو الذي طرحه.

أثارت القصة سخط السيد كرنان. لقد كان يعي تماماً مواطنيته، ورغب في أن يكون مع مدينته على صلة مشرّفة مشتركة، واحتقر كل إهانة نسبها إليه احتيالاً من يدعوهم بالقرويّين الخُرْق.

سأل: "ألهذا السبب ندفع رسومنا؟ لنطعم ونكسي هؤلاء البلهاء الجهلة ... وليسوا أكثر".

وضحك السيد كننغهام، فقد كان موظفاً رسمياً فقط أثناء الدوام الرسمي.

قال: "وكيف يمكنهم أن يكونوا شيئاً آخر، يا توم؟"

وانتحلَ لهجة صوت غليظة، ريفية وقال بنبرة آمرة:

"ياه، امسك ملفوفتك!"

وضحك الجميع. وتظاهر السيد ماكوى، الذي أراد أن يدخل في الحديث من أي باب، بأنه لم يسمع أبداً هذه القصة. فقال السيد كننغهام:

"يُفترض-حسبما قالوا، كما تعلمون-أنها وقعت في الثكنات التي يجمعون فيها هؤلاء الرجال القرويين الضخام الهائلين، الـ omadhauns، كما تعلمون، ليحفروا. وكان الرقيب يجعلهم يقفون في رتل واحد إلى الجدار وهم يحملون صحافهم".

وأخذ يصوِّر مشاهد القصة بحركات غريبة.

"إنه وقت العشاء، كما تعلمون. ثم يحضر الرقيب قدراً لعيناً كبيراً مملوءاً بالملفوف ويضعه أمامه على الطاولة مع ملعقة لعينة كبيرة كالرفش. ويغرف قطعة من الملفوف بالملعقة ويقذفها بعزم عبر الغرفة، والشياطين المساكين يحاولون التقاطها بصحافهم:

ياه، امسك ملفوفتك".

وعاد الجميع يضحكون. غير أن السيد كرنان كان مايزال حانقاً نوعاً ما. وراح يتكلم عن كتابة رسالة إلى الصحف.

قال: "ويأتينا هؤلاء الأجلاف، ظانين أن بإمكانهم أن يتآمروا على الناس. لا حاجة لأقول لك، يا مارتن، أي نوع من الرجال هم".

أبدى السيد كننغهام موافقة متحفظة.

قال: "كما في كل مكان من هذا العالم، تقابل الأشرار وتقابل الأخيار"

قال السيد كرنان راضياً: "آه، نعم، لديك بعض الطيبين، أعترف".

قال السيد ماكوى: "من الأفضل أن لا نتبادل معهم أي كلام، هذا رأيي!"

دخلت السيدة كرنان الغرفة، ووضعت الصينية على الطاولة، وقالت: "تفضلوا، يا سادة".

ووقف السيد باور ليقوم بواجبه، فقدم لها كرسيه. رفضته قائلة إن لديها ماتكويه في الطابق السفلي، وبعد أن تبادلت الإيماء مع السيد كننغهام من خلف ظهر السيد باور، استعدت لتغادر الغرفة. وهتف زوجها لها قائلاً:

"أليس لديك شيء لأجلي، ياحبيبتي؟"

قالت السيدة كرنان بحدّة: "آه، أنت، أعطيكَ ظهر كفّي!"

وهتف زوجها: "ألا شيء لصغيرك المسكين!"

وانتحل وجهاً وصوتاً مضحكين، حتى أن توزيع زجاجات الخمر تم وسط جو مرح.

وراح السادة يجرعون من كؤوسهم، ثم أعادوا الكؤوس إلى الطاولة وسكتوا.

بعد ذلك استدار السيد كاننغهام نحو السيد باور، وقال عَرَضاً:

"هل قلتَ يوم الخميس، جاك؟"

قال السيد باور: "الخميس، نعم".

قال السيد كننغهام بسرعة: "لابأس!"

قال السيد ماكوى: "يمكننا أن نتقابل في حانة ماولي. إنه المكان الأمثل".

قال السيد باور بجدية: "ولكن يجب أن لا نتأخر، فسيكون المحل مزدحماً حتماً حتى الأبواب".

قال السيد ماكوى: "يمكننا أن نتقابل في السابعة والنصف".

قال السيد كننغهام: "لابأس!"

"فليكن عند الساعة السابعة والنصف في محل ماولي!"

وساد صمت قصير. انتظر السيد كرنان ليرى إن كان صديقه سيأتمنه على سره:

"ماذا في الجو؟"

قال السيد كننغهام: "أوه، لا شيء يذكر، مجرد مسألة صغيرة نعدُّ لها ليوم الخميس".

قال السيد كرنان: "إنها الأوبرا، كما أظن؟"

قال السيد كننغهام بنغمة صوت مراوغة: "لا،لا، إنها مجرد ... مجرد قضية روحانية".

قال السيد كرنان: "أوه"

ساد الصمت من جديد. ثم قال السيد بارو، بلا مقدمات:

"أقول لك الحق، يا توم، ننوي أن نقوم برياضة روحية".

قال السيد كننغهام: "نعم، هذا الأمر، جاك وأنا وصاحبنا ماكوى هنا – ننوي أن نغسل القدْر"

ألقى العبارة التشبيهية بطاقة خاصة أليفة، وشجَّعه صوته، فتابع:

"في الحقيقة، يمكننا أن نعترف أننا معاً نشكل مجموعة جميلة من الأوغاد، بلا استثناء" وأضاف بمحبة فظة: "أقول كلنا، بلا استثناء"، ثم استدار إلى السيد باور وقال: "هيا اعترف الآن!"

قال السيد ماكوى: "وأنا أعترف"

قال السيد كننغهام: "إذن سنقوم بغسل القَدْر معاً".

ويبدو أن خاطراً قد طرأ له، فاستدار فجأة إلى المريض وقال:

"أتعرف يا توم، ماذا خطر لي للتو؟ يمكنك أن تنضم إلينا وسنكون كتلة لها أربع أيدي".

قال السيد باور: "فكرة جيدة، نحن الأربعة معاً".

صمت السيد كرنان. فالعرض لم يوح له إلا بالقليل من الأهمية، ولكن حين أدرك أن ثلة من الوساطات الروحية تنوي أن تهتم بأمره، فكر أن من حق كرامته عليه أن يبدي عناداً، فلم يشترك بأي طرف من المحادثة لوقت طويل، واكتفى بالإنصات، حاملاً سمة الخصومة الهادئة، بينما كان أصدقاؤه يناقشون أمر اليسوعيين.

قال، متدخلاً أخيراً: "أنا لا أرى سوءاً في اليسوعيين، إنهم جماعة مثقفة، وأعتقد أن نواياهم حسنة".

قال السيد كننغهام، بحماس: "إنهم أعظم جماعة في الكنيسة، ياتوم. وكبير اليسوعيين يأتي في الأهمية بعد البابا".

قال السيد ماكوى: "لاشك في هذا، إذا أردت عملاً يُنفَّذ على أكمل وجه ولا غبار عليه، الجأ إلى يسوعيّ. إنهم أولاد لهم نفوذ. سأحكي لكم حادثة حول ذلك ..."

قال السيد باور: "اليسوعيون باقة رائعة من الرجال".

قال السيد كننغهام: "إن أمر جماعة اليسوعيين غريب. كل عصبة أخرى في الكنيسة تضطر لإجراء إصلاحات من وقت لآخر، أما عصبة اليسوعيين فلم يطرأ عليها أي تغيير. إنها أبداً لا تتشتت"

سأل السيد ماكوى "أحقاً؟"

قال السيد كيننغهام "إنه حقيقة، إنه تاريخ موثوق"

قال السيد باور "أنظر إلى كنيستهم، أيضاً، أنظر إلى رعاياهم"

قال السيد ماكوى "اليسوعيون يخدمون الطبقات الراقية"

قال السيد باور "لاشك"

قال السيد كرنان "نعم، لهذا تراني أتعاطف معهم. إنهم مجموعة من أولئك الكهنة الدنيويين، الجهلة النفّاجين ..."

قال السيد كيننغهام "إنهم جميعاً طيبون. كل في حاله. إن كهنة ايرلندا يشرفون العالم كله"

قال السيد باور "آه، نعم"

قال السيد ماكوى "ليسوا كبعض الكهنة الآخرين في القارة الذين لا يستحقون حمل هذا اللقب"

قال السيد كرنان، وقد لان "لعلك على حق"

قال السيد كيننغهام "طبعاً أنا على حق. إنني لم أنخرط في العالم كل ذاك الوقت وأعاين أغلب جوانبه دون نقد الشخصيات"

جرع الرجال من الشراب مرة أخرى، كل منهم يقتدي بالآخر. وبدا السيد كرنان كأنه يزن شيئاً في عقله. لقد تأثّر. لطالما كَنّ احتراماً كبيراً للسيد كيننغهام باعتباره حكماً معتَبراً للشخصية وقارئاً لما في الوجوه. وطلب سماع التفاصيل الدقيقة.

قال السيد كيننغهام "أوه، إنها مجرد رياضة روحية، كما تعلم، سيدربنا عليها الأب بردن. إنها لأجل رجال الأعمال، في الحقيقة"

قال السيد باور: باقتناع "لن يثقل علينا، يا توم".

قال المريض: "الأب بردن؟ الأب بردن؟"

قال السيد كننغهام بعنف: "أوه، لا بد أنك تعرفه يا توم. هو رجل رائع مرح! رجل مجرِّب مثلنا".

"آه .. نعم. أظنني أعرفه: وجهه يميل للاحمرار؛ طويل".

"هو بعينه"

"قل لي، يا مارتن ... هل هو واعظ جيد؟"

"يعني، لا ... ليس تماماً موعظة، في الحقيقة. هي نوع من الحديث الودي، في الواقع يغلب عليه الحس السليم".

وتفكّر السيد كرنان ملياً، وقال السيد ماكوي:

"أما الأب توم بيرك فكان واعظاً حقاً!"

قال السيد كننغهام: "أوه، الأب توم بيرك، هذا ولد واعظ. هل سمعته مرة، يا توم؟"

قال المريض مغتاظاً: "يسألني إن كنت سمعته! طبعاً! سمعته ..."

قال السيد كننغهام "ومع ذلك يقال بأنه لم يكن لاهوتياً بكل معنى الكلمة".

قال السيد ماكوي: "أحقاً؟"

"أوه، طبعاً، ليس في الامر سوء في الحقيقة. كل ما في الأمر أنه أحياناً، كما يقال، لم يكن يعظ تماماً حسب الطريقة المعهودة".

قال السيد ماكوي: "آه ... لقد كان رجلاً ممتازاً"

تابع السيد كرنان: "سمعته ذات مرة. نسيت موضوع الحديث الآن. كنت مع كروفتون خلف الـ ... المؤخرة، كما تعلم ... تلك الـ ..."

قال السيد كننغهام: "الصحن".

"نعم، في الخلف قرب الباب. نسيت الآن ماذا ... أوه نعم، كانت تدور حول الباب، المرحوم. أتذكّرها تماماً. بشرفي كانت عظيمة،

بأسلوبها الخطابي. وصوته! يالله! أليس لديه صوت كان يسميه "سجين الفاتيكان"؟ أذكر كروفتون يقول لي حين خرجنا ..."

قال السيد باور: "لكن كروفتون أورانجمن Orangemen، أليس كذلك؟"

قال السيد كرنان: "طبعاً، وعضو مهذّب جداً أيضاً. ودخلنا حانة بتلر في شارع مور – يقيناً، لقد تأثّرت من كل قلبي، وحق كلام الله – وأذكر جيداً كل كلمة قالها. قال لي: "يا كرنان، نحن نتعبَّد على مذبحين مختلفين" قال لي: "لكن إيماننا واحد" وأذهلني بحسن تعبيره".

قال السيد باور: "هذا الكلام كله معاني. كنت ترى دائماً حشوداً من البروتستانت في الكنيسة التي يعظ فيها الأب توم".

قال السيد ماكوي: "ليس هناك فرق بيننا، إننا جميعاً نؤمن بـ..."

وتردد لحظة.

"... بالمخلّص. الفرق الوحيد أنهم لا يؤمنون بالبابا وأم الرب".

قال السيد كننغهام بهدوء ونبرة مؤثرة: "ولكن، طبعاً ديننا هو دين الحق، هو الإيمان العريق، الأصيل".

قال السيد كرنان بحرارة: "لاشك في هذا".

اقتربت السيدة كرنان من باب غرفة النوم وأعلنت:

"أتاك ضيف"

"منْ؟"

"السيد فوغارتي"

"أوه، تفضل! تفضل!"

وتقدَّم إلى النور وجهٌ شاحب بيضاوي، وقد تكرر تقوّسُ شاربه الأشقر المتدليّ في حاجبيه الأشقرين المعقودين فوق العينين المنذهلتين بشكل محبب. كان السيد فوغارتي سماناً متواضعاً. فشل عمله في بيت مرخّص في المدينة، لأن وضعه المالي أجبره على

الاقتصار في تعامله على مقطّرين ومخمّرين من الدرجة الثانية. وافتتح محلاً صغيراً في شارع غلاسنيفين وهناك، قال مُعزياً نفسه: سيكسبه سلوكه الحميد حظوة لدى ربات البيوت في المنطقة. كان يتصرف بكياسة خاصة، فيلاطف الأولاد الصغار ويتكلم بمنطق أنيق. ولم تكن تنقصه الثقافة.

السيد فوغارتي أحضر معه هدية، نصف وعاء من الويسكي الخاص. وسأل بأدب عن صحة السيد كرنان، ثم وضع هديته على الطاولة، وجلس مع الرفاق على قدم المساواة. استحسن السيد كرنان الهدية أكثر فأكثر، خاصة وأنه يعلم بوجود حساب صغير ثمن بعض البقاليات، لم يصفّ بينه وبين السيد فوغارتي، وقال:

"لايمكنني أن أشك بك، أيها العجوز. افتح هذا يا جاك، من فضلك".

من جديد نهض السيد باور ليقوم بالواجب. غسلت الكؤوس ووزّعت خمس حصص من الويسكي. هذا الأثر الجديد بث الحياة في الحديث. والسيد فوغارتي، الذي كان جالساً على مساحة صغيرة من الكرسي، اهتمّ بشكل خاص.

قال السيد كننغهام: "لقد كان البابا ليو الثالث عشر أحد النجوم الباهرة في هذا العصر. وكما تعلمون، كانت فكرته العظيمة هي اتحاد الكنيستين اللاتينية واليونانية. وجعل منها هدف حياته".

قال السيد باور: "طالما سمعت أنه كان أحد ألمع رجال أوروبا ذكاء. أقصد إلى جانب كونه بابا".

قال السيد كننغهام: "وهكذا كان، إن لم يكن ألمعهم قاطبة. وشعاره، كما تعلمون، كبابا كان *lux upon lux* نور على نور"

قال السيد فوغارتي بشوق: "لا، لا. أعتقد أنك أخطأت هنا. كان الشعار lux un tenebris، حسب ما أعتقد – نور في الظلام".

قال السيد ماكوي "أوه نعم، Tenebrae"

قال السيد كننغهام، مؤكداً: "اسمحوا لي، كان lux upon lux وشعار بيوس التاسع خليفته كان Crux upon Crux – أي، صليب على صليب – وهذا بيان للفرق القائم بين مكانتيهما".

وسمحوا بالاستنتاج. وتابع السيد كننغهام:

"البابا ليو، كما تعلمون، كان مثقفاً عظيماً وشاعراً".

قال السيد كننغهام: "نعم، وكان يكتب شعراً لاتينياً".

قال السيد فوغارتي: "حقاً؟"

تذوّق السيد ماكوي الويسكي برضى وهزّ رأسه بعزم قوي، وقال: "هذا ليس مُزاحاً، أوكد لك"

قال السيد باور، مقتدياً بالسيد ماكوي: "لم يعلّمونا ذلك حين ذهبنا إلى المدرسة الأسبوعية"

قال السيد كرنان بلهجة وعظيّة: "هناك الكثير من الرجال الجيدين ذهبوا إلى المدرسة الأسبوعية وهم يتأبطون حفنة من تراب. الأسلوب القديم هو الأفضل، كانت ثقافة شريفة واضحة. ليس فيها شيء من الهراء المعاصر ..."

قال السيد باور: "صحيح تماماً".

قال السيد فوغارتي: "وبلا زوائد".

نطق الكلمة ثم تابع الشرب بجدية.

قال السيد كننغهام: "أذكر أني قرأت أن إحدى قصائد البابا ليو كانت تدور حول اختراع التصوير الفوتوغرافي – باللاتينيه، طبعاً".

هتف السيد كرنان: "التصوير الفوتوغرافي!"

قال السيد كننغهام: "نعم".

وجرع بدوره من كأسه.

قال السيد ماكوي: "في الحقيقة، كما تعلمـــون، أليـس التصويـر الفوتوغرافي مثيراً للعجب حين نتأمل فيه؟"

قال السيد باور: "أوه، طبعاً، العقول العظيمة ترى أشياء خاصة".

قال السيد فوغارتي: "وكما يقول الشاعر: العقول العظيمة تقـترب كثيراً من الجنون".

وبدا أن السيد كرنان أصيب بارتباك ذهني. وحاول أن يبذل جـهداً ليتذكر ما يقوله اللاهوت البروتستانتي حول بعض النقاط الحساسـة. وأخيراً خاطب السيد كننغهام. قال:

"قل لي يا مارتن: ألم يكن بعض البابوات – طبعاً أنـا لا أقصـد صاحبنا البابا الحالي، أو سلفه، بل البابوات القدامى – ليسوا تماماً ... يعني ... أقرب للكمال؟"

وساد صمت. قال السيد كننغهام:

"أوه، طبعاً، كان بينهم جماعة سيئون ... لكن الأمر المذهل هـو مايلي: لم يكن واحد منهم، ولو أكبر سكير بينـهم، ولا أكـثرهم ... وحشية، حتى مائة بالمائة، ولا واحد منهم، يعظ ex Cathedra بكلمة أو معتقد مزيف. والآن، أليس هذا شيئاً رائعاً؟"

قال السيد كرنان: "هو كذلك".

قال السيد فوغارتي شارحاً: "نعم، لأنـه حيـن يتكلـم البابـا ex Cathedra لا يخطئ".

قال السيد كننغهام: "نعم".

"أوه، أنا أعرف صفة العصمة هذه في البابا. أذكـر أنـي كنـت أصغر سناً عندئذٍ ... أو لعله كان ...؟"

وسكت السيد فوغارتي، وتنـاول الزجاجـة ووزع قليـلاً علـى الآخرين. ولما وجد السيد ماكوي أنه لم يعد يوجد ما يكفي، ناشـدهم

محتجاً بأنه لم ينه حصته الأولى بعد. قبل الآخرون بتذمر. وشكّلت موسيقى انسكاب الويسكي الرقراقة في الكؤوس فاصلاً محبَّباً.

سأل السيد ماكوي: "ماذا كنت تقول يا توم؟"

قال السيد كننغهام: "العصمة البابوية كانت أعظم مشهد في تاريخ الكنيسة".

سأل السيد باور: "كيف ذلك يا مارتن؟"

مدَّ السيد كننغهام إصبعين من أصابعه الثخينة:

"في الواقع إنه في مجمع الكرادلة ورؤساء الأساقفة القدسي كان ثمة رجلان يعارضان بينما يوافق الباقون. ويكون التصويت السري إجماعياً فيما عدا هذين الاثنين. ولكن لا! الموافقة لا تتم!"

قال السيد ماكوي:"ها!"

"وكانا واحداً ألماني يدعى دولنغ... أو داولنغ.. أو –"

قال السيد باور ضاحكاً: "لم يكن ألمانياً، وهذا مؤكد تماماً".

لا بأس، هذا الكاردينال الألماني العظيم، مهما كان اسمه، كان أحدهما، والآخر كان يدعى جون ماكهيل".

هتف السيد كرنان: "ماذا؟ أهو جون أوف توام؟"

سأل السيد فوغارتي بارتياب: "الآن هل أنت متأكد من ذلك؟ ظننته أحد الإيطاليين أو الأمريكيين" وردد السيد كننغهام: "كان هو جون أوف توام".

وشرب واقتدى به الشباب الآخرون. ثم عاد إلى موضوعه.

"هكذا اجتمعوا معاً، كل الكرادلة والأساقفة من جميع أقطاب العالم وهذين الاثنين، يخوضون صراعاً عنيفاً، إلى أن وقف البابا نفسه وأعلن العصمة كمبدأ تعتنقه الكنيسة ex Cathedra. وفي نفس اللحظة

وقف جون ماكهيل، الذي كان يحاجي ضد القـــرار، وهتــف هادئـــاً بصوت كزئير الأسد "Credo".

قال السيد فوغارتي: "أعلن إيماني!"

قال السيد كننغهام: "Credo "، هكذا كشف عن الإيمان الذي كـــان يكنُّه. لقد رضخ لحظة تكلم البابا".

سأل السيد ماكويك: "وماذا عن دوالنغ؟"

"الكاردينال الألماني لم يرضخ، وغادر الكنيسة".

كانت كلمات السيد كننغهام قد رسمت لوحة متكلمة للكنيســة فــي أذهان المستمعين. وأذهلهم صوته العميق الأجش حين أعلـــن كلمـــة الإيمان والرضوخ. وحين دخلت السيدة كرنان الغرفة، وهي تجفـــف يديها، كان يخيم على الجميع الرهبة. ولم تزعج الصمت، بل مـــالت تتكئ على حاجز السرير عند القدمين.

قال السيد كرنان: "رأيت السيد ماكهيل ذات مرة، ولن أنسى ذلـــك أبداً ما حييت".

استدار لزوجته لتثبت كلامه:

"ألم أكن أقول لك ذلك دائماً؟"

هزّت السيدة كرنان رأسها.

"كان ذلك عند إزاحة الستار عن تمثال جون غراي. كان أدمونـــد جواير غراي يتحدث كلاماً أحمق، وهنا كان صاحبنا هذا، شاب شبيه بالسرطعان، ينظر إليه من تحت حاجبيه الكثّين".

عقد السيد كرنان حاجبيه، وأخفض رأسه كثور غـــاضب، وهـــو يلفح زوجته بنظراته النارية.

هتف، مستعيداً وجهه: "يا لله! لم أر في حياتي مثل نظرته على وجه رجل. كأنها تقول: لقد ثَّبتك جيداً، يا بني، لقد كانت عينه كعين صقر".

قال السيد باور: "لم يكن من آل غراي في جودته".

وساد صمت آخر. ثم استدار السيد باور إلى السيدة كرنان وقال بمرح رشيق:

"حسن، يا سيد كرنان، سنجعل من رجلك هنا رجلاً ورعاً تقياً ورومانياً كاثوليكياً يخاف الله".

وحرّك ذراعه محيطاً بالمجموعة كلها بلا استثناء.

"سنقوم جميعنا معاً بتدريبات روحية وسنعترف بآثامنا – ويعلم الله أننا بأمسّ الحاجة إلى ذلك".

قال السيد كرنان، مع ابتسامة عصبية صغيرة: "لا اعتراض لدي".

ورأت السيدة كرنان أنه من الحكمة إخفاء رضاها. فقال:

"أرثي الكاهن الذي سينصت إلى حكايتك".

وتغيرت تعابير السيد كرنان.

قال بفظاظة: "إذا لم تعجبه يمكنه أن... يفعل الشيء الآخر. سأقص عليه حكايتي الصغيرة المكربة. إنني لست ذاك الرجل السيء..."

وأسرع السيد كننغهام بالتدخل.

قال: "سنتبرأ جميعاً من الشيطان، معاً، لا ننسى أعماله وتبجحاته".

قال السيد فوغارتي، ضاحكاً وهو ينظر إلى الآخرين: "اذهب خلفي، أيها الشيطان!"

لم يقل السيد باور شيئاً. وقد شعر بتفوق عام تام. غير أن تعبير السرور شع على وجهه.

قال السيد كوننغهام: "كل ما علينا أن نعمله هو أن نقف حاملين شموعاً مشتعلة ونكرر قسمنا العمادي".

قال السيد ماكوي: "أوه، لا تنس الشمعة يا توم، مهما كنت تفعل".

قال السيد كرنان: "ماذا؟ أيجب أن أحضر شمعة؟"

قال السيد كوننغهام: "آه، أجل".

قال السيد كرنان متحمساً: "لا، اللعنة على كل شيء، إلى هنا وكفى. سأقوم بالعمل. سأقوم بالتمارين الروحية والاعتراف، و ... وكل شيء. ولكن ... لا شموع لا، اللعنة على كل شيء. وأنا أعترض على الشموع!"

وهزّ رأسه برصانة هزلية.

قالت زوجته: "اسمعوا هذا!"

قال السيد كرنان، وقد أدرك أنه ترك تأثيراً على جمهوره، واستمر يهز رأسه إلى الأمام والخلف: "أنا أعترض على مسألة المصباح السحري".

وضحك الجميع من كل قلوبهم.

قالت زوجته: "هاكم كاثوليكي رائع!"

ردد السيد كرنان بفظاظة: "لاشموع! خلص !"

كان جناح كنيسة اليسوعيين في شارع غاردنر قد امتلأ تقريباً، وكان الناس كل لحظة يدخلون من الباب الجانبي، يرشدهم أخ علماني، فيمشون على رؤوس أصابعهم على طول ممشى الكنيسة إلى أن يجدوا مجلساً ملائماً. وهؤلاء السادة يكونون حسني الملبس والهندام. ويسقط ضوء مصابيح الكنيسة على مجموع الثياب السوداء والياقات البيضاء، تخفّف من رتابتها هنا وهناك بذلات التويد، على أعمدة رخام أخضر مرقّش وعلى أقمشة الخيش الكئيبة. كان السادة

يجلسون أعلى المقاعد الطويلة، بعد أن يرفعوا بناطيلهم بحركة سريعة إلى أعلى الركبة بقليل. كانوا يضعون قبعاتهم في مكان آمن ويجلسون مستندين على ظهورهم بارتياح، ويحدقون بطريقة رسمية ببقعة الضوء الأحمر البعيدة المشعة أمام المذبح العالي.

على أحد المقاعد القريبة من المنبر جلس السيد كننغهام والسيد كرنان. وعلى المقعد الذي خلفه جلس السيد ماكوي وحده، وفي المقعد الذي خلفه جلس السيد باور والسيد فوغارتي. وكان السيد ماكوي قد حاول دون نجاح أن يجد مكاناً في المقعد مع الآخرين، وبعد أن جلست المجموعة على شكل خماسي حاول بلا نجاح أن يقوم بحركات مضحكة. ولما لم تلق استحساناً كفّ عنها. وبهدوء راح يعي الجو المزخرف، وبهدوء بدأ يستجيب للحافز الديني. وبهمسة لفت السيد كننغهام انتباه السيد كرنان إلى السيد هارفورد، المرابي، الذي جلس على مبعدة، وإلى السيد فاننغ وكيل التسجيل وصانع المحافظين في المدينة، الذي كان جالساً تحت المنبر مباشرة بجانب أحد أعضاء المجلس البلدي المنتخبين حديثاً. إلى اليمين جلس مايكل غريمس العجوز، صاحب ثلاث محلات للاسترهان وابن عم دان هوغان، الذي كان يتولى العمل في مكتب مدينة كلارك. إلى الأمام قليلاً جلس السيد هندريك، المراسل الأول لصحيفة فريمن جورنال، وأوكارول المسكين، صديق آل كرنان الحميم، الذي كان ذات يوم شخصية تجارية مرموقة. وشيئاً فشيئاً، حين بدأ يميز الوجوه الأليفة أخذ السيد كرنان يشعر بالارتياح أكثر. كانت قبعته، التي أصلحت زوجته من شأنها، ترتاح على ركبتيه. ومرة أو مرتين أنزل ثنية كمه بيد، بينما كان يحمل القبعة من حرفها بخفّة، ولكن بحزم، باليد الأخرى.

شوهدت قامة توحي بالقوة – اكتسى جزؤهـا الأعلـى بالمدرعـة البيضاء، وهي تكافح لترتقي المنبر. في الوقت نفسه اضطرب مجمـع المصلين، وأخرجوا مناديل وركعوا عليها بعناية، وتبعهم السيد كرنـان وساير التصرف العام. الآن انتصبت قامة الكاهن فوق المنبر، وقد بـلن ثلثا جذعه، الذي يُتوِّجه وجه أحمر قاني، وظهر واضح فوق الحاجز.

ركع الأب بردون، واستدار نحو بقعة الضوء الحمراء، وبعـد أن غطى وجهه بيديه، راح يصلي. بعد فترة أزاح يديـه عـن وجهـه ونهض. ونهض مجمع المصلين أيضاً وعادوا للجلوس على المقـاعد. أعاد السيد كرنان قبعته إلى موضعها الأصلي على ركبتيه، وأولـى الواعظ وجهاً منتبهاً. قلب الواعظ كل كم من الكمّيـن الفضفـاضين لمدرعته بحركة دقيقة كبيرة، وشمل ببطء صفوف الوجوه. ثم قال:

"لأن أولاد هذا العالم هم أحكم في نشأتهم من أولادِ النـور، لـذا اتخذوا لأنفسكم أصدقاء من منجم الخطيئة، حتى إذا متّم يسـتقبلونكم في منازل سرمدية".

دعم الأب بردون النص بتشديد رنّان. لقد كان واحداً من أصعب نصوص الكتاب المقدس تفسيراً، كما قال. إنـه نـص قـد يبـدو للمتفحص العابر متعارضاً والأخلاق النبيلة التي بشرَّ بـها يسـوع المسيح في مكان آخر. لكنه كما أخبر سامعيه، رأى أن النص ملائم خاصة لإرشاد تلك الفئة المنوط بها قيادة مسـتقبل العـالم، والتـي ترغب بتولي تلك المهمة بعيداً عن ملذات الحياة. إنه نص لرجـال الأعمال والمحترفين.

ويسوع المسيح بقدرته الإلهية على تفهم كل شـق فـي طبيعتنـا الإنسانية، أدرك أنه ليس كل الرجال مؤهلين للحياة الدينية، وأنه فـي آخر المطاف تضطر الأغلبية الساحقة للعيش في العالم، وإلى حد مـا،

لأجل العالم. وهو في هذه الجملة تعمَّد أن يهبهم كلمة نصوحاً، واضعاً أمامهم كأمثلة على الحياة الدينية عَبَدة شيطان المال أولئك أنفسهم الذين كانوا من بين الرجال أقلهم جزعاً في المسائل الدينية.

قال لسامعيه إنه أتى في تلك الأمسية ليس لسبب مروع أو متطرف، بل أتى باعتباره رجلاً مدنياً ليتحدث إلى إخوانه. أتى ليتحدث إلى رجال الأعمال، وسيتحدث إليهم بلغة الأعمال. وقال إنه بمثابة المحاسب الروحي لهم، وطلب من كل فرد من سامعيه أن يفتح كتابه، كتاب حياته الروحية، ليروا إن كانوا يتطابقون بدقة مع ضمائرهم.

إن يسوع المسيح لم يكن فارض مهام قاسياً. لقد فهم أخطاءنا الصغيرة، فهم ضعف طبيعتنا المسكينة الساقطة، فَهِمَ إغراءات هذه الحياة. لعله كانت لنا إغراءاتنا، وجميعنا يخضع لها بين حين وآخر. وقد يكون لنا أخطاؤنا، وجميعنا يقع فيها. لكنه، قال، يود أن يطلب شيئاً من سامعيه، وهو أن يكونوا مستقيمين شرفاء مع الله. فإذا كانت حساباتهم متطابقة من كل النواحي قالوا:

"حسن، إنني أؤكد صحة حساباتي. لقد وجدت كل شيء على مايرام"

ولكن إذا وجِدَت بعض التناقضات، كما قد يحدث، فيجب الإقرار بالحق، والإعلان بصراحة وكما يليق برجل:

"حسن، لقد راجعت حساباتي، ووجدت هنا خطأ وهناك خطأ. ولكن، بنعمة الله، سأصحح هذا وذاك، سأقوم حساباتي".

الموتى

كانت ليلي، ابنة الناظر، تسبق قدمها بلا مغالاة، فما إن تُدخل سيداً إلى غرفة الأدوات المنزلية الصغيرة الكامنة خلف المكتب في الطابق الأرضي وتساعده على خلع معطفه، حتى يقرقع جرس باب الصالة الحاد مرة أخرى وتضطر للعدو على طول الردهة العارية لتُدخِلَ ضيفاً آخر. ومن حسن حظها أنها لم تكن مسؤولة عن السيدات أيضاً. لكن الآنسة كيت والآنسة جوليا فكّرتا في ذلك، وحوّلتا غرفة الحمّام في الطابق العلوي إلى غرفة ملابس للسيدات. كانت الآنسة كيت والآنسة جوليا هناك تثرثران، وتضحكان وتثيران الجلبة، وتمشيان واحدة في إثر الأخرى حتى أعلى الدرج، وتلقيان نظرة إلى أسفل عبر الدرابزين، وتناديان على ليلي لتسألاها عمّن أتى.

كانت دائماً تعتبر قضية هامة جداً، حفلة رقص الآنستين موركان هذه. يؤمها كل من يعرفهما، من أفراد الأسرة، وأصدقاء العائلة الحميمين، وأعضاء كورس جوليا، وأي من تلامذة كيت الكبار نوعاً ما، بل حتى تلامذة ميري جين أيضاً. ولم يحدث أبداً أن فشلت. طوال سنين وسنين كانت تقام بأبهى شكل، حسب ما يذكر كل منهم، فمنذ ذلك الحين تركت كيت وجوليا البيت في ستوني باتر، بعد وفاة

أخيهما، بات، وأخذتا ميري جين، ابنة اخيهما الوحيدة لتعيش معــــهما في البيت المظلم الكئيب في جزيرة آشر، حيــث اســتأجرتا الطــابق العلوي منه من السيد فولهام، تــاجر الــذرة الــذي يشــغل الطــابق الأرضي. كانت طوال ثلاثين سنة سعيدة كأنها يوم واحــد. ومــيري جين التي كانت عندئذٍ فتاة صغيرة ترتدي ثياباً قصيرة، أضحــت الآن الدعامة الأساسية في عمل البيت، لأن لديها الأداة في شارع هادنغتن. لقد دخلت إلى الأكاديمية وصارت تقيم حفلة موسيقية للتلاميذ كل عــام في الغرفة العلوية من قاعات آنتيينت الموسيقية. وكان أغلب تلامذتها ينتمون لطبقة أحسن العائلات من مناطق كنغستاون ودالكـــي لايــن. وعمتاها أيضاً كانتا تقومان بما وسعهما، على كبر سنيهما. فرغــم أن شعر رأس جوليا كان يشتعل شيباً، كانت ما تزال تقوم بدور مغنيـــة السوبرانو في أوبرا "آدم وحواء"، ولما كانت كيت تواقة لتفعل مثلها، راحت تعطي دروساً في الموسيقى للمبتدئين على آلة البيانو المربعــة العتيقة الموجودة في الغرفة الخلفية. أما ليلي فكانت تقــوم لأجلــهما بأعمال البيت. ورغم بساطة حياتهما، كانتا تؤمنان بالاعتناء بالتغذية، بالأفضل في كل شيء: بلحمة خاصرة البقر الماسيّة، وبشاي الشــلنات الثلاثة وأفضل خمر الستوت المعبأ. لكن نادراً ما ارتكبت ليلي خطــأ في تنظيم الأشياء، لذا كنت تراها دائماً على وفاق مع سيداتها الثلاث. كنَّ كثيرات الجلبة، هذا كل شيء. أما الشيء الوحيد الذي مـــا كــنَّ ليحتملنه فهو الإِجابات الوقحة.

بالطبع كان لديهن سبب وجيه لجلبتهنَّ في تلك الأمســـية. ثــم إن الساعة قد تجاوزت العاشرة بكثير ولم يظـــهر غــابرييل وزوجتـــه. وأيضاً خشين كل الخشية أن يأتي فريدي مالينز وهو ثمل. وهـــن لا يرغبن على الإطلاق أن يراه أي من تلامذة ميري جين وهو علـــى

تلك الحال، وعندما يكون كذلك فما أصعب التعامل معه. فريدي مالينز دائماً يأتي متأخراً، لكنهن استغربن تأخر غابرييل. هذا ما كان يدفعهن للإطلال عبر الدرابزين ليسألن ليلي إن كان غابرييل وفريدي قد قدما.

قالت ليلي لغابرييل حين فتحت له الباب: "أوه، يا سيد كونروي، الآنسة كيت والآنسة جوليا ظنتا أنكما لن تأتيا. مساء الخير، سيدة كونروي".

قال غابرييل: "أنا أوافقهما في ظنهما، لكنهما نسيتا أن زوجتي تستغرق ثلاث ساعات لترتدي ثيابها".

ووقف على الممسحة، يكشط الثلج عن حذائه الواقي، بينما قادت ليلي زوجته إلى عتبة الدرج وهتفت:

"آنسة كيت، إليك السيدة كونروي".

أتت كيت وجوليان تهبطان الدرج المظلم معاً بخطواتهن القصيرة القلقة، وقبّلتا كلاهما زوجة غابرييل، وقالتا بأنها لا بد هالكة من التعب، وسألتاها هل غابريل معها؟

هتف غابرييل من الظلام: "ها أنا سليم كالبريد، يا عمة كيت! إصعدن أنتن، سألحق بكنّ".

تابع كشط قدميه بعنف بينما النسوة الثلاث يرتقين الدرج، ضاحكات، نحو غرفة الملابس. وكانت شراشيب خفيفة من الثلج قد استقرت كالقلنسوة على كتفيّ معطفه، وكغطاء لأصابع الأقدام على مقدم حذائه الواقي، وبينما كانت أزرار معطفه تنزلق مع صرير خلال الصقيع المتجمّد، تسرّب هواء بارد عطر من الخارج خلال التشققات والتضاعيف.

سألت ليلي "هل عادت تثلج يا سيد كونروي؟"

كانت قد سبقته إلى غرفة المؤن لتساعده في خلع معطفه. ابتسم غابرييل للمقاطع الثلاثة التي لفظت بها اسمه، وألقى نظرة عليها. كانت شابة، نحيلة، بشرتها شاحبة وشعرها بلون التبن. وقد جعلها الغاز المنبعث في غرفة المؤن تبدو أكثر شحوباً. كان غابرييل يعرفها مذ كانت طفلة تجلس على أدنى درجة وهي تداعب دمية رثة.

أجاب: "نعم، يا ليلي. وأعتقد أننا مقبلون على ليلة مثلجة".

رفع بصره إلى سقف غرفة المؤن الذي كان يهتز من عزم وطء الأقدام وجرّها على الأرض في الأعلى. أنصت برهة للبيانو ثم نظر إلى الفتاة، وكانت تطوي معطفه بعناية وتضعه عند طرف الرف.

قال بنبرة ودّية: "أخبريني، ليلي، هل مازلت تذهبين إلى المدرسة؟"

أجابت: "أوه، لا ياسيدي، لقد تركت المدرسة هذا العام وإلى الأبد".

قال غابرييل بمرح: "آه، إذن أعتقد أننا سنحضر عرسك في أحد تلك الأيام الجميلة مع عريسك، هه؟"

بادلته الصبية النظر عبر كتفيها وقالت بمرارة شديدة:

"شبان هذه الأيام لا يعرفون غير الثرثرة والنصب".

تلوّن غابرييل، وكأنه ارتكب خطأ، ودون أن ينظر إليها نزع حذاءه الواقي وراح ينفض بلفاعة وبحيوية على حذائه ذي الجلد اللمّاع.

كان شاباً متيناً يميل إلى الطول. تورُّد خديه يرتفع حتى يصل إلى جبينه، وهناك يتوزع على شكل بقع قليلة غير منتظمة ليصبح أحمر فاتحاً، وعلى وجهه الأجرد تومض بقلق النظارة الملمَّعة ذات الإطار الذهبي الحواف، والتي تحجب عينيه الرقيقتين القلقتين. شعره الأسود

الكثيف مفروق في الوسط ومسرَّح بانحناءة حادة خلف الأذنين حيث يتجعد قليلاً تحت الأخدود الذي خلّفته قبعته.

بعد أن اعاد اللمعان إلى حذائه نصب قامته وشدَّ سترته إلى أسفل بقوة أكبر على جسمه الممتلئ. ثم تناول مسرعاً قطعة نقدية من جيبه.

قال، مقحماً إياها في يديها: "آه، ياليلي لقد آن وقت عيد الميلاد، أليس كذلك. فقط ... هاك قليلاً من ...."

ومشى مسرعاً باتجاه الباب.

هتفت الفتاة، وهي تتبعه: "أوه، لا، يا سيدي! حقاً، ياسيدي، لن آخذها".

قال غابرييل وهو يكاد يعدو على الدرج ويلوّح بها بيده باستنكار: "إنه عيد الميلاد! عيد الميلاد!"

ولما رأت الفتاة أنه وصل آخر الدرج، هتفت خلفه:

"حسن، شكراً لك ياسيدي".

انتظر خارج قاعة الاستقبال ريثما تنتهي رقصة الفالس، وأصاخ السمع لحفيف أذيال الأثواب وهي تنسحب على الأرض، وإلى انتقال الأقدام. كان مايزال مضطرباً لرد الفتاة المفاجئ. لقد رمت عليه غماً حاول أن يطرده بترتيب أكمامه وانعطافة ربطة عنقه. ثم أخذ من جيب سترته ورقة صغيرة وألقى نظرة على النقاط الرئيسية لخطبته.

كانت متردداً بشأن الأبيات التي اقتطفها من روبرت براونن[2]، لأنه كان يخشى أن تكون أعلى من مستوى مستمعيه. إن مقاطع يعرفونها من شيكسبير أو من "الأنغام" melodies، هي أفضل. وذكّرته قرقعة أقدام أعقاب الرجال الخشنة وانتقال نعالهم أن مستواهم الثقافي يختلف عن مستواه. سيعرّض نفسه للسخرية إذا اقتطف لهم أبياتاً

شعرية لا يفهمونها. سيظنون أنه يستعرض ثقافته المتفوقة. سيفشل معهم كما سبق له أن فشل مع فتاة غرفة المؤن. لقد تلبَّس النبرة الخاطئة. إن خطبته كلها هي غلطة من بدايتها حتى النهاية. فشل ذريع.

عندئذٍ خرجت عمتاه وزوجته من غرفة ملابس السيدات. كانت عمتاه عجوزين ضئيلتين، بسيطتا الثياب. وكانت العمة جوليا هي الأطول بحوالي الإنش. شعرها المتدلي على قمتي أذنيها كان رمادياً، ووجهها الكبير المترهل أيضاً كان رمادياً، مع ظلال أشد سمرة. ورغم بنيتها الضخمة وانتصاب قامتها، فقد أضفت عليها عيناها البطيئتَا الحركة وشفتاها المفنرجتان مظهر امرأة لا تعرف أين هي، ولا إلى أين هي ذاهبة.

العمة كيت كانت أكثر حيوية. وجهها، الأكثر صحة من وجه أختها، كان ممتلئاً بالتجاعيد والتغضنات، كتفاحة حمراء ذابلة، وشعرها المجدول على نفس الطراز العتيق، لم يكن قد فقد نضجه وتورّده.

قبّلتا كلاهما غابرييل بصراحة. لقد كان ابن أختهما المفضَّل، ابن أختهما الكبرى الميتة، إلين، التي كانت متزوجة من ت.ج كونري الموظف في شكرة بورت أند دوكس الملاحية.

قالت العمة كيت: "أخبرتني غريتا أنكما لن تعودا إلى موكنستاون هذه الليلة، يا غابرييل".

قال غابرييل، ملتفتاً إلى زوجته: "لا، عانينا ما فيه الكفاية في العام الفائت، أليس كذلك؟ ألا تذكرين يا عمة كيت، الرشح الذي أصاب غريتا من جرّائه؟ ظلت نوافذ السيارة تقرقع طوال الوقت، والرياح الشرقية التي هبت علينا بعد أن اجتزنا مريون. كان شيئاً مرحاً. أصيبت غريتا بسببه برشح رهيب".

عبست العمة كيت بقسوة وهزّت رأسها لدى سماع كل كلمة.

قالت: "معك حق، يا غابرييل، كل الحق، لا يمكنك أن تكون شديد الحرص".

قال غابرييل: "أما صاحبتنا غريتا هنا فمستعدة للذهاب إلى البيت مشياً تحت الثلج إذا تركناها تفعل". ضحكت السيدة كونروي.

قالت "لاتنتبهي إليه، يا عمة كيت، إنه حقاً مزعج شنيع، ناهيك عما يسببه من ظلال خضراء لعينيّ توم ليلاً، إذ يحمله أعباء التمرين، ويجبر إيفا على أكل العصيدة. يا للطفلة المسكينة! وهي ببساطة تكره مجرد النظر إليها! .... أوه، لكنك لن تحزري أبداً ما يجعلني أرتدي الآن!"

انفجرت في نوبة من الضحك ونظرت إلى زوجها الذي كانت عيناه المتكبرتان السعيدتان تتجولان من ثوبها إلى وجهها فشعرها. وضحكت العمتان من كل قلبيهما أيضاً، لأن قلق غابرييل كان محط تنكيت دائم معهم.

قال السيدة كونروى "إنه الحذاء الواقي! هذا آخر صرعة. فكلما كان هناك رطوبة تحت قدمي يجب أن أرتدي الحذاء الواقي. حتى هذا المساء أرادني أن أرتديه، لكنني لم أفعل. الشيء القادم الذي سيشتريه لي سيكون بذلة غطس".

ضحك غابرييل بعصبية وربت على ربطة عنقه بتوكيد، بينما أصبحت العمة كيت ضعف حجمها تقريباً، لقد استمتعت بالنكتة من كل قلبها. وسرعان ما تلاشت الابتسامة عن وجه العمة جوليا وتوجهت عيناها الكئيبتان نحو وجه ابن أختها. وبعد صمت سألت:

"ما هو الحذاء الواقي، يا غابرييل؟"

هتفت أختها: "إنه الحذاء الواقي، يا جوليا! يا الله! ألا تعرفين مـــا هو الحذاء الواقي! إنك ترتدينه فوق ... فوق حذائك العـــادي، أليـــس صحيحاً يا غريتا؟"

قالت السيدة كونروي: "نعم، مصنوع من مطـــاط غوتابيرشـــا. كلانا يرتدي زوجاً منه الآن. يقول غابرييل إن كل إنسان يرتديـــه في القارة".

غمغمت العمة جوليا، هازة رأسها ببطء: "آه، في القارة"

عقد غابرييل مابين حاجبيه وقال، وكأنه غاضب قليلاً:

"لاشيء يثير العجب، لكن غريتا ترى الأمر مضحكاً جـداً لأنـــها تقول إن الكلمة تذكرها بعبارة "فرقة إنشاد".

قالت العمة كيت بلباقة رشيقة: "ولكن قل لي يا غـــابرييل، طبعـــاً تدبرتم أمر الغرفة وكانت غريتا تقول ...."

أجاب غابرييل: "أوه، أمر الغرفة مضمون، استأجرت واحدة فـــي غريشهام".

قالت العمة كيت: "تأكد من أنها الأفضل. والأولاد يـــا غريتـــا، لا أظنك قلقة عليهم؟"

قالت السيدة كونروي: "أوه، إنها مجرد ليلة واحدة. ثم أن بيســـي ستعتني بهم".

قالت العمة كيت من جديد: "لاشك في هذا، أية راحة في الحصول على فتاة مثلها، يمكن الاعتماد عليها. إليكم فتاتنا ليلي، لا أدري مـــاذا جرى لها مؤخراً، لم تعد كما كانت".

كاد غابرييل يسأل عمته بضع أسئلة حول هـــذه النقطـــة، لكنـــها انطلقت فجأة لتبحث عن أختها التي كانت تتجول على الـــدرج وتمـــد عنقها عبر الحاجز.

قالت في شبه غضب: "والآن، أسألكم أنا، إلى أين تذهب جوليـــا! جوليا! إلى أين أنت ذاهبة؟"

وجوليا، التي كانت قد وصلت إلى منتصف الدرج، عادت لتعلـــن بلطف: "هاقد أتى فريدي".

في الوقت نفسه دلَّ تصفيق الأيدي وآخر نغمة منمَّقة من عـــازف البيانو على أن لحن الفالس قد انتهى. وفُتح باب قاعة الاستقبال مـــن الداخل، وخرج بضع أزواج. وجَرَّت العمة كيـــت غـــابرييل جانبـــاً مسرعة وهمست في أذنه:

"أسرع يا غابرييل، وتصرَّف كشاب شهم، لترى إن كان واعيـــاً، ولا تدعه يصعد إن كان ثملاً. أنا متأكدة أنه ثمل، أنا واثقة".

قالت العمة كيت للسيدة كونروي: "من داعي الارتياح أن غـابرييل موجود. دائماً أشعر بهدوء البال حين حضوره ... جوليـــا، الآنســـة دالي والآنسة باور ترغبان بمشروب منعش. شكراً لمعزوفة الفـــالس الجميلة، يا آنسة دالي. لقد أمتعْتِنا".

توجه غابرييل إلى الدرج وأنصت عبر الدرابزين. سمع شـخصين يتحدثان في غرفة المؤن. ثم ميَّز ضحكة فريدي مالينز، وراح يـــهبط الدرج مثيراً ضجيجاً.

قال رجل ذو وجه طويل ذاو، بشارب قاس أشيب وبشرة داكنـــة، كان ماراً مع رفيقته:

"هل يمكننا أيضاً أن نحصل على بعض المشروب المنعـــش، يـــا آنسة موركان؟"

قالت العمة كيت بإيجاز: "جوليا، هاقد أتى السيد براون والآنســـة فرلونغ. ادخليهما يا جوليا، مع الآنسة دالي والآنسة باور".

قال السيد براون زاماً شفتيه حتى انتصب شعر شاربه ومبتسماً بكل تجاعيده:

"إنني رجل مخصص للسيدات. تعلمين يا آنسة موركان أن سبب ولعهن بي هو ... "

لم يكمل جملته، ولكن لما وجد أن العمة كيت لا توليه انتباهاً، قاد السيدات الثلاثة إلى الغرفة الخلفية. كان وسطُ الغرفة مشغولاً بمائدتين مربعتين موضوعتين طرفاً إلى طرف، عليها كانت العمة جوليا والمشرفة تركزان وتمسِّدان مفرشاً كبيراً. على النضد صُفَّت الصحون والصحف، الكؤوس وحزم السكاكين والأشواك والملاعق.

وقد استخدم البيانو المربع المغلق كنضد آخر لأجل الطعام والحلويات. وعلى نضد أصغر في إحدى الزوايا وقف شابان يشربان.

إلى هناك ذهب بحمولته، ودعاهن جميعاً، مازحاً، لشرب بنش حار، قوي وحلو من صنع السيدات. ولما قلن إنهن لا يتناولن أي شيء قوي، فتح ثلاث زجاجات ليمونادة لأجلهن. ثم طلب من أحد الشبان أن يتنحَّى جانباً، وأمسك بإناء المشروب وسكب لنفسه مقداراً كبيراً من الويسكي. نظر إليه الشبان باحترام، بينما هو يتذوق رشفة للتجريب.

قال باسماً: "ليعينيي الله، إنها أوامر الطبيب".

انفرج وجهه الذاوي عن ابتسامة عريضة، وضحكت ثلاث صبايا برنين موسيقيّ لعبارته المرحة، وهن يملن بأجسادهن إلى الأمام والخلف، باهتزازات عصبية من أكتافهن، وقالت إحداهن:

"أوه، كفاكَ يا سيد براون، أنا واثقة أن الطبيب لم يأمر بأي شيء من هذا القبيل".

تناول السيد براون رشفة أخرى من الويسكي وقال، في محاكاة جانبية:

"حسن، في الواقع، إنني أُشبه الشهيرة السيدة كاسيدي، التي ذكـــر أنها قالت: (والآن، يا ميري غريمس، إذا لم آخذها، اجعليني آخذهـا، لأني أشعر برغبة فيها)"

كان وجهه المتّقد قد مال إلى الأمام بحميميّة زائدة قليلاً، وانتحـل لكنة دبلنيّة سوقية جداً، حتى أن الصبايا بغريزة واحدة، استقبلن حديثه في صمت. سألت الآنسة فرلونغ، التي كانت واحدة من تلامذة مـيري جين، الآنسة دالي عن اسم الفالس الجميل الذي عزفته، ولمـا كـان السيد براون يجهل الجواب، أسرع بالالتفاف نحو الشابين اللذين كانـا أكثر تقديراً له.

دخلت إلى الصالة شابة متوردة الوجه، ترتدي ثوباً بنفسجياً، وهـي تصفّق بيديها بإثارة وتهتف:

"الرقصة الرباعية ! الرقصة الرباعية !"

خلفها مباشرة أتت العمة كيت هاتفة:

"نريد شابين وثلاث سيدات، يا ميري جين".

قالت ميري جين: "أوه، هاك السيد برغن والسـيد كريغـان، ياسـيد كريغان هل تسمح بمصاحبة الآنسة باور؟ يا آنسة فرلونغ، هل تسـمحين لي بانتقاء رفيق لك، هو السيد برغن. آه، هكذا يتم كل شيء الآن".

سألت العمة كيت: "ثلاث سيدات، يا ميري جين".

سأل الشابان السيدات إن كان يسعدهن مراقصتـهما، واسـتدارت ميري جين إلى الآنسة دالي:

"أوه، يا آنسة دالي، أنت حقاً طيبة جداً، بعد أن عزفت الرقصتيـن الأخيرتين، ولكننا هذه الليلة نفتقر حقاً إلى السيدات".

"لايهمني على الإطلاق، يا آنسة موركان"

"ولكن عندي مرافق لأجلك، هو السيد بارتل دارسي، مغني الأوبرا الأول، سأجعله يغني فيما بعد. كل دبلن مولعة به".

قالت العمة كيت: "صوت جميل، صوت جميل !"

ولما كان قد أعيد لحن المقدمة مرتين على البيانو لأجل المجموعة الأولى، فقد قادت ميري جين مجنديها من الغرفة، وحالما ذهبوا دخلت العمة جوليا الغرفة وراحت تتجول ببطء فيها، وهي تنظر خلفها باحثة عن شيء.

سألت العمة كيت بقلق: "ماذا بك يا جوليا؟ عمَّن تبحثين؟"

استدارت جوليا، التي كانت تحمل رتلاً من مناديل المائدة، إلى أختها وقالت، ببساطة، وكأن السؤال فاجأها:

"فقط أبحث عن فريدي مالينز، يا كيت، وغابرييل أيضاً".

والحقيقة لو أنها نظرت خلفها مباشرة لرأت غابرييل يقود فريدي مالينز على منبسط الدرج. كان هذا الأخير شاباً في حوالي الأربعين، بحجم غابرييل وبنيته، كتفاه رائعا الاستدارة. وجهه كثير اللحم وشاحب، لا يتورّد منه سوى كتلتيّ اللحم المتدليتين من أذنيه وجناحيّ أنفه. تقاسيمه قاسية، وأنفه كليل، وحاجبه محدّب ومتراجع، وشفتاه ممتلئتان وناتئتان. عيناه مثقلتا الجفنين، وتشعُّث شعره الخفيف جعله يبدو نعسان. كان يضحك من قلبه بنبرة صادحة على حكاية كان يحكيها لغابرييل على الدرج، وفي الوقت نفسه كان يحكّ براجم قبضة يده اليسرى إلى الأمام والخلف على عينه اليسرى.

قالت العمة جوليا: "مساء الخير، يا فريدي".

بادل فريدي مالينز الآنسة موركان تحية المساء بطريقة بدت مرتجلة بسبب أثر الإدمان في صوته، ولما رأى أن السيد براون

يكشّر وجهه من مجلسه، عبر القاعة على ساقين مرتعشتين وبدأ يعيد بنبرة منخفضة الحكايا التي كان ألقاها على مسمع غابرييل لتوه.

قالت العمة كيت لغابرييل: "ليس سيئاً كثيراً، أليس كذلك؟"

كان حاجبا غابرييل داكنين، لكنه رفعهما بسرعة وأجاب:

"آه، لا ، لا يكاد يبدو عليه".

قالت: "والآن، أليس شخصاً رهيباً! وأمه المسكينة أخذت منه عهداً في ليلة رأس السنة. ولكن هيا بنا يا غابرييل ندخل قاعة الجلوس".

قبل أن تترك الغرفة مع غابرييل أشارت إلى السيد براون بأن عبست وهزّت إبهامها أماماً وخلفاً كتحذير. أجاب السيد براون بهزّة من رأسه، وبعد أن ذهبت قالت لفريدي مالينز:

"والآن، يا تيدي، أنا ذاهبة لأملأ لك كأساً جيدة من الليمونادة لينشّطك".

لوّح فريدي مالينز الذي كان قد وصل إلى ذروة حكايته بيده في نفاذ صبر، لكن بما أنه كان أول من لفت انتباه فريدي مالينز إلى تشوُّش ملابسه، فقد ملأ له كأساً من الليمونادة وقدمه له. قبّلت يد فريدي مالينز الكأس آلياً، بما أن يده اليمنى كانت منشغلة آلياً في ترتيب ملابسه. وملأ السيد براون، الذي تجعَّد وجهه مرة أخرى بالمرح، كأساً من الويسكي لنفسه، بينما انفجر فريدي مالينز، قبل أن يصل إلى ذروة قصته، بنوبة ضحك عالية النبرة متأثرة بنزلة شعبية، وبعد أن وضع كأسه الفائض دون أن يتذوقه، بدأ يفرك براجم قبضة يده اليسرى أماماً وخلفاً على عينه اليسرى، مكرراً كلمات عبارته الأخيرة قدر ما تسمح له نوبة الضحك.

لم يحتمل غابرييل الاستماع إلى ميري جين وهي تعزف مقطوعتها الأكاديمية، الملآى بالممرات والسراديب الصعبة بالنسبة لجمع صالة الجلوس الصامت. لقد كان يحب الموسيقى، لكن

المقطوعة التي كانت تعزفها لم يجد فيها نَغَماً. وشكٌّ في أن يكون أي مستمع آخر قد وجد فيها أي تناغم، مع أنهم ناشدوا ميري جين أن تعزف لهم شيئاً.

بعد دقائق خرج أربعة شبان بهدوء من الباب: كل اثنين معاً، وكانوا قد أتوا من غرفة المشروبات المنعشة لدى سماع صوت البيانو. الوحيدان اللذان بدوا منسجمين مع الموسيقى كانا ميري جين نفسها - بيديها اللتين كانتا تجريان على طول المفاتيح أوترتفع عنها عند الوقفات كيدي عرّافة تنزل لعنة خاطفة - والعمة كيت الواقفة عند مرفقها لتقلب لها الصفحة.

عينا غابرييل اللتان أثارهما بريق الأرضية الملمَّعة بشمع العسل تحت الشمعدان الثقيل، مضتا إلى الجدار الذي يعلو البيانو، حيث علّقت لوحة لمشهد الشرفة من مسرحية روميو وجولييت، وإلى جانبها لوحة للأميرين الصريعين في البرج الذي صنعته العمة جوليا بالصوف الأحمر والأزرق والبني حين كانت فتاة. لعل المدرسة التي كُنَّ يتردّدن عليها وهن فتيات كانت تعلّمهن هذا النوع من الشغل مدة عام. وكانت أمه قد صنعت له سترة من التباريه كهدية في عيد ميلاده، رُسمت عليها رؤوس ثعالب، محددة بالساتان البني، ولها أزرار على شكل حبات توت مدوَّرة.

من الغريب أن أمه لم تكن تتمتع بأية موهبة موسيقية، مع أن العمة كيت كانت تسميها صاحبة المواهب في عائلة موركان. كانت هي وجوليا تبديان فخراً زائداً بأختهما الجادة القيِّمة. كانت صورة الأخت أمام مرآة الحائط. تمثلها تضع كتاباً مفتوحاً على ركبتيها وتشير إلى شيء فيه إلى كونستانتين الجالس عند قدميها، بثياب الحرب. كانت هي من اختار أسماء أبنائها، لأنها كانت شديدة

الحساسية تجاه احترام الحياة العائلية. شكراً لها لأن كونستانتين أصبح الراعي الأول لأبرشية بالبريغان، وشكراً لها لأن غابرييل نفسه نال شهادته من الجامعة الملكية. ومرَّ شبح أمام وجهه حين تذكر معارضتها العنيدة لزواجه. لاتزال تعتمل في ذاكرته بعض عباراتها القصيرة، قالت عن غريتا ذات مرة إنها فلاحة فاتنة، وهذا غير صحيح على الإطلاق. وغريتا هي من رعاها أثناء فترة مرضها الطويلة وهي في بيتهما في مونكستاون.

علم أن ميري جين لابد اقتربت من نهاية مقطوعتها، لأنها كانت تعيد عزف اللحن الافتتاحي بسلسلة من النغمات السريعة بعد كل فاصلة موسيقية، وبينما هو ينتظر النهاية هدأ السخط في قلبه. انتهت المقطوعة بارتعاشة من نغمات جوابيَّة عالية ونغمات أخرى ختامية عميقة منخفضة. استقبلت ميري جين باستحسان عظيم، فاحمرَّت واستعجلت في عزف موسيقاها، وهرعت خارجة من القاعة. التصفيق الأعنف أتى من الشبان الأربعة الواقفين عند الباب، والذين كانوا قد خرجوا إلى غرفة المشروبات المنعشة عند بداية العزف، لكنهم عادوا حين صمت صوت البيانو.

ابتدأت الرقصة، ووجد غابرييل نفسه مرافقاً للآنسة آيفورز. وكانت سيدة شابة مهذار متحررة المظهر، وجهها منمَّش وعيناها بنّيتان ناتئتان. لم تكن ترتدي صداراً منخفض الحافة، والبروش الكبير المثبَّت على ياقتها الأمامية يحمل رسماً وشعاراً أيرلنديان.

حين احتلا مكانيهما أسرعت بالقول:

"أنا مشتاقة للشجار معك".

قال غابرييل: "معي؟"

هزّت رأسها برصانة.

سأل غابرييل، مبتسماً لمظهرها الجدّي "ماالأمر؟"

سألت الآنسة إيفورز محدقة فيه: "من هو غ.ك؟"

تلوّن وجه غابرييل وأوشك أن يعقد جبينه، وكأنه لم يفهم، حين قالت بفظاظة:

"أوه، يا للصديق البريء! لقد اكتشفت أنك تكتب في صحيفة الديلي اكسبريس. والآن، ألست خجلاً من نفسك؟"

سأل غابرييل، طارفاً عينيه، وحاول أن يبتسم: "ولماذا أخجل من نفسي؟"

سألت الآنسة إيفورز بصراحة: "حسن، أنا خجلة منك لأنك تكتب لصحيفة كتلك. لم أكن أظن أنك بريتوني غربي 'West Brition'".

ظهر الارتباك على وجه غابرييل. صحيح أنه يكتب عموداً أدبياً كل يوم أربعاء في صحيفة الديلي اكسبريس، وهم يدفعون له عليه خمسة عشر شلناً، لكن هذا لم يجعله حقاً بريتونياً غربياً. والكتب التي وصلته ليراجعها كان يرحِّب بها أكثر من قيمة الشيك التافهة. كان يحب أن يتحسَّس الأغلفة وأن يقلِّب صفحات الكتب المطبوعة حديثاً. كل يوم تقريباً بعد انتهاء التدريس في الكلية كان معتاداً أن يتجول على الأرصفة يبغي بائعي الكتب المستعملة، يذهب إلى محل هيكي على طريق باتشلر، ومحل ديب أوماسي على رصيف أستون، أو إلى محل كلوهيسي في الشارع الفرعي. لم يعرف كيف يواجه اتهامها له. أراد أن يقول إن الأدب فوق السياسة. لكنهما كانا صديقين لسنين عديدة، ومستقبلاهما كانا متساوقين، أولاً في الجامعة ثم في مجال التدريس. لم يستطع المجازفة بتبادل عبارة فخمة واحدة معها. تابع

الطرف بعينيه وحاول أن يبتسم، وغمغم بضعف أنه لا يرى علاقة لمراجعة الكتب بالسياسة.

حين جاء دورهما ليعبرا[3] كان مايزال مرتبكاً وشارد الذهن. تناولت الآنسة إيفورز يده بسرعة بقبضة دافئة وقالت بنبرة وديّة ناعمة:

"طبعاً، أنا أمزح فقط. هيا، إننا نعبر الآن".

حين عادا للانضمام معاً من جديد تحدثت عن الجامعة، وشعر غابرييل بارتياح أكثر. كان أحد أصدقائهما قد عرض عليها مراجعته لقصائد براوننغ. وهكذا اكتشفت السر، لكن المراجعة أعجبتها. ثم قالت فجأة:

"أوه، سيد كونروي، ألا ترافقنا في نزهة إلى جزر آران هذا الصيف؟ سنبقى هناك شهراً كاملاً. سيكون الجو رائعاً هناك في الأطلسي. يجب أن تأتي. السيد كلانسي آت، والسيد كيلكيلي وكاتلين كيرني. ستقضي غريتا أيضاً وقتاً رائعاً لو أتت. إنها من كوناكت، أليس كذلك؟"

قال غابرييل باقتضاب: "أهلها من هناك".

قالت الآنسة ايفورز وقد وضعت يدها الدافئة بشوق على ذراعه: "ولكن ستأتي أنت، أليس كذلك؟"

قال غابرييل: "الحقيقة أنني خطّطت للذهاب إلى ..."

سألت الآنسة إيفورز: "تذهب إلى أين؟"

"في الواقع، تعلمين، أنا في كل عام أذهب للتجول بالدراجة مع بعض الرفاق لذا ..."

سألت الآنسة إيفورز: "ولكن إلى أين؟"

قال غابرييل بلا لباقة: "يعني، نذهب عادة إلى فرنسا أو بلجيكا أو ربما إلى ألمانيا".

قالت الآنسة إيفورز: "ولماذا تذهب إلى فرنسا وبلجيكا بدل أن تزور وطنك أنت؟"

قال غابرييل: "في الواقع، من ناحية لأكون على صلة باللغات الأخرى ومن ناحية ثانية للتغيير".

سألت الآنسة إيفورز: "ألا تكفيك لغتك الخاصة لتتعرَّف عليها – اللغة الإيرلندية؟"

قال غابرييل: "حسن، مادام الأمر قد وصل إلى هذا، فاعلمي أن الإيرلندية لست لغتي".

كان من حولهما قد التفتوا إليهما ليستمعوا للاستجواب. ألقى غابرييل نظرة إلى اليمين وأخرى إلى اليسار بعصبية، وحاول أن يحتفظ بمزاجه الطيب تحت ضغط المحنة التي كانت تجعل الاحمرار يغزو جبهته.

تابعت الآنسة إيفورز: "أليس لك أرض خاصة بك لتقوم بزيارتها، ولا تعرف عنها شيئاً، ولك قوم، وبلد تنتمي إليه؟"

فجأة أعطى غابرييل جوابه السريع: "أوه، فلأقل لك الحقيقة إذن، لقد سئمت بلدي، سئمته!"

سألت الآنسة إيفورز: "لماذا؟"

لم يجب غابرييل لأن ردّه السريع جعله يشعر بالغضب.

كررت الآنسة إيفورز: "لماذا؟"

كان عليهما أن يقوما بخطوة الزيارة4، وبما أنه لم يجبها، قالت الآنسة إيفورز بدفء:

"طبعاً، ليس لديك جواب".

حاول غابرييل أن يخفي ثورته بالمشاركة في الرقص بحماسة كبيرة. تجنَّب عينيها لأنه رأى تعبيراً نكداً على وجهها. ولكن حين

تقابلا في الحلقة الطويلة فوجئ بيد تضغط على يده بحـزم. نظـرت إليه من تحت رموشها لبرهة مازحة حتى ابتسم. ثم، حيـن أوشـكت الحلقة أن تلتئم مرة أخرى، رفعت نفسها علـى أطـراف أصابعـها وهمست في أذنه:

"بريتوني غربي!"

بعد انتهاء المجموعات ذهب غابرييل إلى أنأى ركن من القاعـة حيث جلست أم فريدي مالينز، وكانت امرأة عجوزاً ضخمة وواهنـة وبيضاء الشعر. في صوتها عطل خاص مثل صوت ابنها، وكـانت تتلعثم قليلاً. لقد قيل لها إن فريدي أتى وأنـه واع تقريبـاً. وسـألها غابرييل إن كانت قد قامت بزيارة جيدة. كانت تعيـش مـع ابنتـها المتزوجة في غلاسكو وهي تأتي إلى دبلن مرة كـل عـام. أجـابت برباطة جأش بأنها قامت بعبور جميل، وأن القبطـان كـان سـاهراً لمساعدتها. تحدثت أيضاً عن البيت الجميل الذي تملكه ابنتـها فـي غلاسكو، وعن كل أصدقائهم هناك. وبينما لسانها يتابع لغطه حـاول غابرييل أن يطرد من ذهنه كل ذكرى الحادثة البغيضة مـع الآنسـة إيفورز. لا شك أن الفتاة، أو المرأة، أو مهما كانت، كانت متحمسـة، ولكن ثمة وقت لكل شيء. وربما ماكان عليه أن يجيبها كمـا فعـل. ولكن ليس من حقها أن تسميه بريتونياً غربياً أمام النـاس، حتـى إن كان مزاحاً، لقد حاولت أن تهزأ به أمام الناس، أن تضايقه بأسـئلتها وتحدق به بعينيها الأرنبيتين.

رأى زوجته تشق طريقها نحوه خلال الأزواج الراقصين الفـالس. وحين وصلت إليه همست في أذنه:

"غابرييل، العمة كيت تريد أن تعرف إن كنت تريد أن تقطع الأوزة كالعادة. الآنسة دالي ستقطع لحم الخنزير وأنا سأتولى أمر الكعكة".

قال غابرييل: "لابأس".

"سترسل الصغار أولاً حالما ينتهي الفالس بحيث تفرغ المائدة لنا".

سأل غابرييل: "هل كنت ترقصين؟"

"طبعاً رقصت. ألم ترني؟ ماذاك الشجار الذي تبادلته مع الآنسة إيفورز؟"

"ليس شجاراً. لماذا؟ هل هي قالت ذلك؟"

"شيء من هذا القبيل. إنني أحاول أن أدفع السيد دراسي للغناء. إنه شديد الغرور، كما أظن".

قال غابرييل نكداً: "لم يكن شجاراً، فقد أرادت أن أرافقهم في رحلة إلى غرب أيرلندا وأنا رفضت".

صفقت زوجته بيديها بإثارة وقفزت قفزة صغيرة. وهتفت: "أوه، إذهب يا غابرييل، إنني أموت شوقاً لرؤية غالواي مرة أخرى".

قال غابرييل ببرود: "اذهبي أنت إن أردت".

نظرت إليه لبرهة، ثم التفتتْ إلى السيدة مالينز وقالت:

"إليك زوجاً رائعاً، يا سيدة مالينز".

وبينما هي تشق طريق عودتها بحذر عبر القاعة، تقدمت السيدة مالينز من غابرييل لتقول له، دون أن تشير إلى تدخّلها، أنه توجد أماكن جميلة في اسكتلندا ومشاهد أجمل. فصهرها يأخذهم كل عام إلى البحيرات وهم يذهبون لصيد السمك. وصهرها صياد سمك ممتاز. وذات مرة أمسك سمكة جميلة كبيرة وطبخها لهم المسؤول في الفندق.

لم يكد غابرييل يسمع شيئاً مما قالت. والآن وقد اقـــترب موعــد العشاء بدأ يفكر مرة أخرى بخطبته وبالاستشهاد الأدبي. وحيــن رأى فريدي مالينز يقترب عبر القاعة ليرى أمه، تخلـــى غــابرييل عــن الكرسي لأجله، وتراجع إلى فتحة النافذة. كانت القاعـــة قــد خلــت تقريباً. ومن الغرفة الخلفية أتته قرقعة الصحون والسكاكين. والذيـــن بقوا في قاعةالجلوس بدوا تعبين من الرقص وأخذوا يتحادثون بــهدوء في مجموعات صغيرة. وربتت أصابع غابرييل الدافئة على الزجـــاج البارد للنافذة. كم يبدو الجو بارداً في الخارج! ما أمتع المشـــي فـــي الخارج وحيداً، أولاً على طول ضفة النهر ومن ثم خــــلال الحديقــة العامة! سيكون الثلج مستقراً على أغصان الأشجار ويشـــكل غطـــاء براقاً على قمة نصب ولينغتن. كم سيكون ذلك أشد إمتاعاً مـــن جــو مائدة العشاء!

راجع رؤوس أقلام خطبته: حسن الضيافة الإيرلنديـــة، ذكريـــات حزينة، النِعَمْ الثلاث، باريس، الاستشهاد من شعر براوننـــغ. كـــرر لنفسه عبارة كانٍ قد كتبها في مراجعته: "إن المرء ليشعر أنه يســـتمع إلى موسيقى تعذب الفكر"، وكانت الآنســـة إيفــورز قــد امتدحــت المراجعة. هل كانت صادقة؟ هل لها حقاً حياة خاصـــة بـــها خلــف مظهرها الدعائي؟ لم يحدث أن تبادلا مشاعر العداء قبل هذه الليلـــة. لقد أثار أعصابه تفكيره في أنها ستكون على مائدة العشاء، تنظر إليــه وهو يتكلم بعينيها الانتقاديتين الممتحنتين. لعلها لن تأســف إذا رأتــه يفشل في إلقاء خطبته. وخطرت على باله فكرة، ونفحته بالشـــجاعة. إنه سيقول، مشيراً إلى العمة كيت والعمة جوليا:

"سيداتي سادتي، لعل للجيل الذي ينمحق الآن بيننا أخطاءه، ولكــن بالنسبة لي، فإنني أراه يتحليّ ببعض صفـــات الضيافـــة والبشاشـــة

والإنسانية، التي يفتقر إليها الجيل الجديد، الجدّي جداً والمفرط الثقافة الذي يتنامى من حولنا" رائع جداً: هذه واحدة للآنسة إيفورز. وما همّه إن كانت عمتاه مجرد جاهلتين عجوزين؟

جذبت انتباهه غمغمة في الغرفة. كان السيد براون يقترب من الباب، مرافقاً بشهامة العمة جوليا التي مالت على ذراعه، مبتسمة مُنكّسة الرأس، وصاحبها إلى البيانو قصف غير منتظم من التصفيق. ومن ثم، بعد أن جلست ميري جين على المقعد، واستدارت العمة جوليا نصف استدارة، وقد كفت عن الابتسام، توزّع صوتها بالعدل على أطراف القاعة، ثم خَفَتَ تدريجياً. ولاحظ غابرييل التوطئة. كانت أغنية قديمة تغنيها العمة جوليا – "متبرّجة لأجل العرس". وشدّ صوتها القوي الصافي النبرة، وبروح عظيمة، النغمات التي تزخرف الجو. ورغم أنها كانت تغني بسرعة كبيرة، لم تخطئ أدق النغمات الجميلة. كانت متابعةُ الصوت، دون النظر إلى وجه المغنّية، تغني الشعور بإثارة التحليق السريع المحكم ومشاركته. صفق غابرييل بصوت عال مع الآخرين جميعاً لدى انتهاء الأغنية، وانتقل التصفيق الحاد من مائدة العشاء غير المرئية. كان أداءً أصيلاً حقاً، حتى أن توردا قليلاً جاهدَ ليظهر على وجه العمة جوليا حين مالت لتعيد كتاب الموسيقى الجلدي القديم الذي يحمل على غلافه الحروف الأولى لاسمها إلى مكانه على حامل النوتة. وكان فريدي مالينز، الذي أنصتَ ورأسه مستقر على أحد جنبيه ليستمع بشكل أفضل، ما يزال يصفق بعد أن توقف الجميع، وفي الوقت نفسه كان يتحدث بحيوية إلى أمه التي راحت تومئ برأسها ببطء ورصانة دلالة الإذعان. أخيراً، حين لم يعد بوسعه التصفيق أكثر، وقف فجأة وهرع يقطع الصالة متجهاً إلى العمة جوليا التي أمسك بيدها وحملها بكلتا يديه، وهو يهزها حين تخونه الكلمات أو يغلبه خلل صوته.

قال: "كنت أخبر أمي للتو بأني لم أسمعك في حياتي تغنين بمثل هــذه الجودة، أبداً. لا، لم أسمع صوتك من قبل بمثل روعته هــذه الأمســية. والآن هل تصدقين هذا الآن؟ إنها الحقيقة. بشرفي هي الحقيقة. لم أســمع صوتك بهذه النضارة والــ ... والصفاء والنضارة، أبداً".

ابتسمت العمة جوليا ابتسامة عريضة، وغمغمت بشــيء حــول الإطراءات وهي تُحرِّر يدها من قبضته. ومــدَّ الســيد بــراون يــده المفتوحة نحوها وقال لمن حوله بمظهر رجل الاستعراض وهو يقــدِّم معجزة للنظارة:

"الآنسة جوليا موركان، اكتشافي الأخير!"

كان يضحك من كل قلبه حين التفت إليه فريدي مالينز وقال:

"حسن، يا براون، إن كنتَ جاداً فبوسعك أن تنجز اكتشافاً أســوأ. كل ما بوسعي قوله هو أنني لم أسمعها تغني بنصف جودة هذه المــرة قبل أن آتي إلى هنا. وهذه هي الحقيقة الخالصة".

قال السيد براون: "ولا أنا. أعتقد أن صوتها قد تحسَّن كثيراً".

هزّت العمة جوليا كتفيها وقالت بفخر خنوع:

"قبل ثلاثين عاماً لم يكن صوتي رديئاً كبقية الأصوات".

وشدّدت العمة كيت قائلة: "طالما قلت لجوليا أنها مرميَّــة مهملــة وسط تلك الجوقة. لكنها لم تسمع كلامي".

استدارت كأنما لتناشد الحس السليم لدى الآخرين، لتواجه به طفــلاً عنيداً، بينما حدَّقت العمة جوليا أمامها، وعبثت ابتسامة غامضة مــن الذكريات على وجهها.

تابعت العمة كيت: "لا، لم تكن تسمع الكلام أو تتعظ من أي كــان، كانت تكتفي بالكدّ في تلك الجوقة ليل نهار، منــذ الســاعة السادســة صباحاً، حتى في صباح عيد الميلاد! وكله مقابل ماذا؟"

سألت ميري جين، وهي تدور حول نفسها على مقعد البيانو وتبتسم:

"حسن، أليس هذا إكراماً للّه، يا عمتي كيت؟"

استدارت العمة كيت بعنف إلى ابنة أختها وقالت:

"أنا أعرف ما هو إكرام الله، يا ميري جين، ولكنني أعتقد أنه لا يشرّف البابا أبداً أن تُطرَدْ النسوة من الجوقات التي كدحن طوال حياتهن فيها، ليضعن الأولاد التافهين على رؤوسهن. أعتقد أن البابا يفعل ذلك لصالح الكنيسة. لكنه ليس عدلاً، ياميري جين، وليس حقاً".

كانت قد اندمجت في الانفعال، وكان يمكن أن تتابع دفاعها عن أختها، فهو موضوع مغضب بالنسبة لها، لكن ميري جين، حين رأت أن كل الراقصين عادوا، تدخّلت بمسالمة:

"والآن، عمة كيت، إنك تسبّبين فضيحة للسيد براون الذي ينتمي للمعتقد الآخر".

استدارت العمة كيت إلى السيد براون الذي كان يكشّر لأجل هذا التلميح إلى مذهبه، وقالت على عجل:

"أوه، إنني لا أناقش البابا في مسألة الحق، فما أنا سوى عجوز حمقاء، ولا أتجرّأ على فعل هذا. ولكنّ هناك شيئاً شائعاً يومياً كالتهذيب والعرفان بالجميل. لو كنت مكان جوليا لقلت هذا للأب هيلي في وجهه مباشرة ..."

قالت ميري جين: "إلى جانب هذا، يا عمة كيت، فإننا جائعون حقاً، وحين نكون جميعاً جائعين نصبح جميعاً ميالين للشجار".

أضاف السيد براون: "وحين نكون عطشانين أيضاً نكون ميالين للنزاع".

قالت ميري جين: "لذا فالأفضل لنا أن نتوجه لنتناول العشاء، ونكمل نقاشنا فيما بعد".

على المصطبة خارج قاعة الجلوس وجد غابرييل زوجته وميري جين وهما تحاولان إقناع الآنسة إيفورز بالبقاء حتى العشاء. لكن الآنسة إيفورز التي كانت قد اعتمرت قبعتها، وأوشكت أن تزرر معطفها، رفضت البقاء. فهي لا تشعر بأي جوع على الإطلاق، ثم إنها تجاوزت الوقت الذي حدَّدته لبقائها.

قالت السيدة كونروي: "ولكن ابقي فقط عشر دقائق يا مولي، إنها لن تؤخرك".

وقالت ميري جين: "لكي تلتقطي أنفاسك بعد كل ذاك الرقص".

قالت الآنسة إيفورز: "لا أستطيع حقاً".

قالت ميري جين يائسة: "يبدو أنك لم تستمتعي بوقتك أبداً".

قالت الآنسة إيفورز: "بل استمتعت كثيراً جداً، أؤكد لكما، ولكن يجب أن تتركاني أرحل الآن".

سألت السيدة كونروي: "ولكن كيف ستعودين إلى البيت؟"

"أوه، إنه لا يبعد إلا خطوتين عن رصيف الميناء".

تردَّد غابرييل قليلاً قبل أن قال:

"إذا سمحت لي يا آنسة إيفورز، سأرافقك إلى البيت إذا كنت مضطرة للذهاب".

لكن الآنسة إيفورز انفلتت من بين أيديهما.

هتفت: "لا أريد سماع هذا، إكراماً لله، ادخلوا لتتناولوا عشاءكم ولا تأبهوا بي. إنني قادرة تماماً على العناية بنفسي".

قالت السيدة كونروى بصراحة: "حسن، أنت الفتاة المضحكة يا مولي".

هتفت الآنسة إيفورز، مع ضحكة، وهي تقفز هابطة الدرج.

حدّقت ميري جين بها وهي تبتعد، وقد اجتاح وجهها تعبير حائر حزين، بينما مالت السيدة كونروي على الدرابزين لتنصت لانغلاق باب القاعة. وسأل غابرييل نفسه هل هو السبب في رحيلها العاجل؟ لكن مزاجها لم يبد متعكّراً. لقد رحلت وهي تضحك. وحدّق في فراغ بيت السلم.

في الحال أتت العمة كيت بخطواتها القصيرة المثقلة خارجة من غرفة العشاء، تكاد تلوي يديها يأساً.

هتفت: "أين غابرييل؟ أين غابرييل بحق السماء. الجميع ينتظرون في الداخل، ثمة مرحلة تنتظر الإنجار، ولا يوجد من يقطّع الأوزة!"

هتف غابرييل، بحيوية مفاجئة: "ها أنا، يا عمة كيت، جاهز لتقطيع سرب من الأوز، إذا لزم الأمر".

على طرف من المائدة استقرت أوزة سمراء سمينة، وفي الطرف الآخر، على سرير من الورق المزيّت المنثور بفروع البقدونس، استلقى خنزير كبير، وقد سلخ جلده الخارجي وتُبّل بطبقة من فُتات الخبز، وأحيطت ذقنه بشراشيب ورقية أنيقة، وإلى جانبه وضعت قطعة لحم بقر متبّلة. بين هذين الطرفين المتنافسين امتدَّت صفوف متوازية من الأصناف الجانبية: كنيستان صغيرتان من الهلام، واحدة حمراء وأخرى صفراء، وصحن ضحل مملوء بكتل من المهلبية والمربى الحمراء، وصحن كبير أخضر اللون على شكل ورقة نبات له حامل على شكل سويق، استقرت فيه أكوام الزبيب القرمزي واللوز المقشور، مع صحن مرافق وُضع فيه مستطيل متماسك من تين سميرنا، وصحن من القستر تعلوه جوزة الطيب مقضّبة، وطاس صغير مملوء بالشوكولاة والحلوى الملفوفة بورق الذهب والفضة، وإناء زجاجي انتصبت فيه بعض سويقات الكرفس الطويلة. في وسط

المائدة وقف وعاءان ثخينان عتيقا الطراز من الزجاج المقصـــــوص، كحارسين لحامل الفاكهة يدعمـــــان هرمـــاً مـــن البرتقـــال والتفـــاح الأميركي، واحد يحوي شراب البورت والآخر شراب الشيري القــلتم. وعلى البيانو المربَّع المغلق استقرّت البودنغ في صحن كبير أصفـــــر تنتظر دورها، وخلفها ثلاث زجاجات ضخمة من شــــراب الســتوت والجعة والمياه المعدنية، صُفَّت وفق ألوان أثوابها، الاثنتان الأوليـــان سوداوان، عليهما رقعة بنيَّة وأخرى حمراء، وثالثة وهي أصغرهـــــا بيضاء، ذات أُطُر خضراء مستعرضة.

اتخذ غابرييل مجلسه بجرأة على رأس المائدة، وبعد أن تفحَّـــــص حد السكين. غرز شوكته بعـــــزم فـــي الأوزة. الآن صـــار يشـــعر بالارتياح التام لأنه قاطع خبير. لا شيء يضاهي لديه أن يجد نفســـــه على رأس مائدة مزدحمة بالأطايب.

سأل: "ماذا أرسل لك يا آنسة فرلونغ؟ أجناحاً ام شريحةً من الصدر؟"

"فقط شريحة صغيرة من الصدر".

"والآنسة هيغينز، ماذا لكِ؟"

"أوه، أي شيء مهما كان، يا سيد كونروي".

وبينما كان غابرييل والآنسة دالي يتبادلان صحـــاف لحـــم الأوزة وصحاف لحم الخنزير ولحم البقر المتبّل، كانت ليلي تنتقل من ضيـف إلى ضيف حاملة صحناً من البطاطا المســـــحوقة ناعمـــاً والســـاخنة ملفوف بمنديل أبيض. كانت هذه هي فكرة ميري جين، وهي أيضـــــاً التي اقترحت صلصة التفاح إلى جانب الأوزة، لكن العمة كيت قـــالت إن أوزة مشوية عادية بلا أي صلصلة تفاح كانت دائماً كافية بالنســبة لها، وإنها تأمل أن لا تأكل ما هو أسوأ. أشرفت ميري جيـــن علـــى تلامذتها، وتأكدت من أنهم حصلوا على أفضل الشــــرائح، وفتحـــت

العمة كيت والعمة جوليا زجاجات الستوت والجعة، ونقلتاها من فوق البيانو عبر الصالة لتوزَّع على الرجال، وأعطتا زجاجات المياه المعدنية للسيدات. كان هناك قدر كبير من الفوضى والضحك والضجيج، وضجيجُ إصدار الأوامر والأوامر المقابلة، وقرقعة السكاكين والشوك، وفلّين القناني وسداداتها. بدأ غابرييل يقطّع الفوج الثاني من الحصص بعد أن أنهى الدورة الأولى دون أن يخدم نفسه. واحتج الجميع بصوت عال حتى حسم الأمر بتناول جرعة طويلة من الستوت، لأنه وجد مهمة التقطيع مثيرة للحماس. استقرت ميري جين بهدوء لتتناول عشاءها، لكن العمة كيت والعمة جوليا كانتا ماتزالان تتجولان بخطواتهما القصيرة القلقة حول المائدة، تمشي الواحدة في أعقاب الأخرى، تعترض كل منهما طريق الأخرى وتتبادلان الأوامر اللامبالية. رجاهما السيد براون أن تجلسا وتتناولا عشاءهما، وكذا فعل غابرييل، لكنهما قالتا إنه مايزال هناك متّسع من الوقت، حتى أن فريدي مالينز نهض، أخيراً، وأمسك بالعمة كيت وأسقطها مرة واحدة على كرسيها وسط ضحك عام.

بعد أن نال كل نصيبه قال غابرييل، مبتسماً:

"والآن، إذا أراد أي منكم مزيداً مما يسمّيه السوقة بالحشوة فليعلن هو أو هي رغبته".

ودعته جوقة من الأصوات للبدء بتناول عشاءه، وتقدّمت ليلي بثلاث حبات بطاطا كانت قد استبقتها له.

قال غابرييل بودّ، وهو يتناول جرعة أولية أخرى: "حسن، تلطّفوا وانسوا وجودي، سيداتي وسادتي، لبضع دقائق".

جلس إلى عشائه، ولم يشترك بأي طرف من الحديث الذي رافق ليلي وهي تأخذ الصحاف عن الطاولة. كان موضوع المحادثة فرقة

الأوبرا التي كانت تقدم عروضها عندئذٍ في المسرح الملكي. أطـــرى السيد بارتل دارسي، مغني التينـــور، الشـــاب ذا البشـــرة السـمراء والشارب الأنيق، أيمّا إطراء، الصوت النسائي الرنّان فـــي الفرقـــة، غير أن الآنسة فرلونغ رأت أن أسلوبها في الأداء كان سوقياً. وقـــال فريدي مالينز إن هناك شيخ قبيلة زنجياً يغني في الجزء الثاني مـــن العرض الإيمائي المرح، كان من أروع الأصوات الرجاليـــة التـــي سمعها في حياته.

ووجَّه سؤاله إلى السيد بارتل دارسي عبر المائدة: "هل سمعته؟"

أجاب السيد بارتل دارسي بلا مبالاة: "لا".

شرح فريدي مالينزك: "لأنني مشتاق الآن لأسمع رأيك به. أعتقد أن له صوتاً فخماً".

قال السيد براون بألفة للجالسين علـــى المـــائدة: "إن تيـــدي هـــو الشخص اللازم لمعرفة الأشياء الجيدة".

سأل فريدي مالينز بحدّة: "ولماذا لا يحق له أن يملك صوتاً؟ فقـــط لأنه أسود؟"

لم يجب أحد على هذا السؤال. ووجّهت ميري جين الجالسين إلـــى الحديث الأصلي حول الأوبرا. إن أحد تلامذتها قد أدّى لـــها صـــوت القرار لأوبرا "مينون"5. قالت: طبعاً لم يكن جيداً جداً، غير أنه جعلـــها تفكر بالمسكينة جورجينا برنز. وعاد السيد برلون إلى الماضي حتـــى عهد الفرق الإيطالية القديمة التي كانت تأتي إلى دبلن، مثل تييتجـــنز6، والمادى مورزكا[5]، وكامبانيني[6]، وتربيبلي[7]، وغيوليني[8]، ورافيلـــي، وأورامبورو. قال: كانت أيام، حين كان الغناء غناء يسمع في دبلن.

وحكى أيضاً كيف كان الرواق العلوي في المسرح الملكي القديـــم يزدحم حتى آخره في كل ليلة، وكيف أن مغنياً إيطالياً أعـــاد غنـــاء

"دعوني أسقط كما يليق بجندي" خمس مرات، وفي كل مـــرة كـــان يؤدي بمقام سي العالي، وكيف كان شبان الأروقــــة يحلّــون وثـــاق الأحصنة في غمرة حماستهم مـــن عربـــة مغنيـــة أولـــى عظيمـــة، ويجرّونها بأنفسهم خلال الشوارع حتى فندقـــــها. وســـأل، لمـــاذا لا يعودون أبداً إلى أداء الأوبرات القديمة العظيمة الآن، مثل دينـــوار[9]، ولوكريشيا بورجيا[10]؟ لأنهم لا يستطيعون الحصول على الأصـــوات الجديرة بغنائها: هذا هو السبب.

سأل السيد بارتل دارسي: "آه، حسن، أظن أن هناك من المغنّيـــن المجيدين اليوم كما كان من قبل".

سأل السيد براون بتحدّ: "أين هم؟"

قال السيد بارتل دارسي بدفء: "في لندن، وبـــاريس، وميلانـــو. مثلاً، أنا أظن أن كاروزو[11] مجيد تماماً، إن لم يكن أفضل مـــن كـــل من ذكرت".

قال السيد براون: "ربما، لكنني أقول إني أشك بهذا بقوة".

قالت ميري جين: "أوه، إنني أهبُ أي شيء لأسمع كاروزو يغني".

قالت العمة كيت التي كانت تمصمص عظمة: "بالنسبة لـــي لـــم يكن هناك سوى صوت رجالي واحد. أقصد به يمتعنـــي. لكنـــي لا أظن أن أحداً منكم سمع به".

سأل السيد بارتل دارسي بأدب: "من هو، يا آنسة موركان؟"

قالت العمة كيت: "كان اسمه باركنسون. سمعته حين كان فـــي عزّه، وأظن أنه كان عندئذٍ صاحب أنقى صـــوت رجـــالي وُهِـــبَ بحنجرة رجل".

قال السيد بارتل دارسي: "غريب، لم أسمع باسمه أبداً".

قال السيد براون: "نعم، نعم، الآنسة موركان على حق. أذكر أنـــي سمعت بباركنسون القديم، لكنه كان قبلي بكثير".

قالت العمة كيت بحماسة: "كان صوتاً انكليزيـــاً، ريّانـــاً، حلـــواً، صافياً، جميلاً".

وبما أن غابرييل كان قد انتهى، فقد حملت كعكة البودنغ الكبـــيرة إلى المائدة. ومن جديد عادت قرقعة الشوك والملاعق. كانت زوجـــة غابرييل تأخذ ملاعق مملوءة بالبودنغ وتوزّع الصحاف على المـــائدة. وقبل أن توضع كانت ميري جين تتناولها، وتكمل ملأها بهلام الفريز أو البرتقال أو بالزبيب والمربى. كانت البودنغ من صنع العمة جوليا، وقد تلقت الإطراءات بسببها من كل ناحية. وهـــي نفســـها قـــالت إن سُمرتها كافية تماماً.

قال السيد براون: "حسن، آمل، يا آنسة موركان، أن أكون أســـمرَ بما يرضيك، لأني، كما تعلمين، كليّ أسمر[12]".

كل الرجال، ما عدا غابرييل، أكلوا من البودنغ على سبيل تملُّـــق العمة جوليا. ولما كان غابرييل لا يأكل الحلويات تركوا له الكرفـــس. وفريدي مالينز أيضاً أخذ سويقة من الكرفس وأكلها مع البودنغ، فقـــد قيل إن الكرفس مادة أساسية للدم، وكان عندئـــذٍ خاضعـــاً لتعليمـــات الطبيب. وقالت السيدة مالينز، التي ظلت صامتة طوال فترة العشـــاء، إن ابنها ذاهب إلى جبل ميليري في غضون أسبوع أو نحوه. ثم أخـــذ الحاضرون يتكلمون عن جبل ميليري Mount Melleray، عن الـــهواء المنشّط هناك، وعن حسن ضيافة الرهبان وكيف أنهم لا يطلبون بنساً واحداً من ضيوفهم.

سأل السيد براون غير مصدِّق: "هل تقصـــدون أن تقولـــوا إن المرء يمكنه أن يذهب إلى هناك ويبيت وكأنه في فندق، وأن يقتات من ثمار الأرض، ومن ثم يرحل دون أن يدفع أي شيء؟"

قالت ميري جين: "أوه، أغلب الناس يتبرَّعون بهبة للدير لـدى رحيلهم".

قال السيد براون بنزاهة: "أتمنى لو أن لدينا مؤسسة مثل هذه في كنسيتنا".

لقد ذهل حين سمع أن الرهبان لا يتكلمون أبداً، وأنهم يستيقظون في الثانية صباحاً وينامون في توابيتهم. وسأل لماذا يفعلون ذلك.

قالت العمة كيت بحزم: "إنه نظام الرهبنة".

سأل السيد براون: "نعم، ولكن لم؟"

كرّرت العمة كيت بأن النظام هكذا، وهذا كل شيء. ولم يبد أن السيد براون قد فهم. وشرح له فريدي مالينز، قدر استطاعته، أن الرهبان يحاولون التكفير عن الآثام التي ارتكبها كل الآثمون في العالم الخارجي. ولم يكن الجواب شديد الوضوح لأن السيد براون كشرَّ وقال:

"تعجبني هذه الفكرة كثيراً، ولكن أما كان سرير برفَّاص خاص يفي بالغرض كالتابوت؟"

قالت ميري جين: "غرض التابوت هو أن يذكّرهم بمثواهم الأخير".

ولما تطوّر الموضوع حتى الكآبة خيَّم الصمت على المائدة، وخلاله سمعوا السيدة مالينز تقول لجارها في نبرة خفيضة غير مميّزة:

"إنهم رجال صالحون، أولئك الرهبان، وورعون جداً".

الزبيب واللوز والتين والتفاح والبرتقال والشوكولاة والحلوى وُزِّعت الآن على الجالسين حول المائدة. ودعت العمة جوليا كل الضيوف لشرب البورت أو الشيري. في أول الأمر رفض السيد بارتل دارسي أن يتناول أياً منهما، لكن أحد جيرانه لكزه وهمس له بشيء، على الأثر سمح بملء كأسه. وبالتدريج حين اكتمل ملء

الكؤوس كلها توقف الحديث، وتبع ذلك صمت، لـم يكسره سوى غرغرة النبيذ وتحريك الكراسي. ونظرت الآنسات موركان، الثلاث، إلى مفرش المائدة. وسعل أحدهم مرة أو مرتين، ثم أخذ بعض السادة ينقرون على الطاولة برفق كدعوة لسواد الصمت. ساد الصمت، ودفع غابرييل كرسيه إلى الخلف ونهض واقفاً.

وسرعان ما تصاعد وقع النقر على سبيل التشجيع، ومن ثم توقف. أمال غابرييل أصابعه العشر المرتعشة على مفرش المائدة وابتسم بعصبية للمجموعة. حين قابله صف من الوجوه المضطربة رفع عينيه إلى الشمعدان. كان البيانو يصدر لحن الفالس، وتناهى إلى سمعه حفيف الأثواب وهي تنسحب على أرض قاعة الجلوس. ربما كان الناس واقفون على رصيف الميناء تحت الثلج في الخارج، يحدّقون في النوافذ المضاءة ويستمعون لموسيقى الفالس. هناك الهواء نقي. وعلى مسافة تمتد الحديقة العامة حيث الأشجار المثقلة بالثلج. تمثال وليغنتن يعتمر قبعة متلألئة من الثلج، ويومض جهة الغرب عبر حقل الخمسين أكر الأبيض. وبدأ يقول:

"سيداتي وسادتي:

لقد خطر لي في هذه الأمسية، كما في سنوات سابقة، أن أقوم بعمل ممتع، غير أنه عمل أخشى أن قدارتي المتواضعة كمتكلم غير كافية لأدائه".

قال السيد براون: "لا، لا!"

"ولكن، مهما يكن من أمر، لا يسعني إلا أن أسألكم هذه الليلة أن تتفهّموا رغبتي في أداء هذه المهمة، وأن تولوني انتباهكم لحظات، بينما أحاول أن أعبر لكم بالكلمات عن مشاعري بهذه المناسبة".

"سيداتي سادتي، ليست المرة الأولى التي نجتمع فيها معاً تحت هذا السقف الكريم، حول هذه المائدة العارمة. إنها ليست المرة الأولى التي نكون فيها المتلقّين – أو لعلّنا، من الأفضل أن أقول، ضحايا – حسن ضيافة سيدات فاضلات معيّنات".

ورسم بذراعه دائرة في الهواء وتوقف. وضحك الجميع أو ابتسموا للعمّة كيت والعمة جوليا وميري جين اللواتي تلونّ من السرور، وتابع غابرييل بجراءة أكبر:

"ينتابني شعور قوي كل عام بأنه ليس لبلدنا تقاليد تشرفه جداً، وعليه أن يحافظ بغيرة على حسن ضيافته. وهو تقليد فريد حسب تجاربي (وزياراتي إلى الخارج ليست قليلة) بين البلدان الحديثة. قد يقول البعض إنها عيب، وجدير بنا أن لا نفخر بها. ولكن برغم هذه الهبة الممنوحة لنا فهي، في رأيي، عيب فخم، عيب أن أعتقد أنه سيلقى طويلاً بيننا الرعاية والتشجيع. ثمة أمر واحد، على الأقل، أنا متأكد منه:

طالما أن هذا السقف يؤوي السيدات الفاضلات آنفات الذكر – وأتمنى من كل قلبي أن يدوم هذا سنوات طويلة طويلة – فإن تقليد حسن الضيافة الإيرلندية الكريمة دافئة القلب الأصيلة، التي سلَّمها لنا آباؤنا، والتي علينا بدورنا أن ننقلها إلى لاحقينا، ماتزال حية بيننا".

وجرت بين حضور المائدة غمغمة قلبية من الموافقة. وتذكَّر غابرييل فجأة أن الآنسة إيفورز ليست موجودة، وأنها كانت قد رحلت نكدة، وقال بلهجة الواثق من نفسه:

"سيداتي سادتي،

إن جيلاً جديداً ينمو بيننا، جيل تحرِّكه أفكار جديدة ومبادئ جديدة. إنه جاد ومتحمس بالنسبة لهذه الأفكار الجديدة، وحماسته،

حتى حين تُوجَّه بشكل خاطئ، تكون، كما أعتقـــد، علـــى الأغلـــب حقيقية. لكننا نعيش في عصر شـــكوكيّ وأيضـــاً، إذا ســـمحتم لـــي باستخدام عبارة، يعذّبه الفكر، وأحياناً أخشى أن هذا الجيـــل الجديـــد، المثقف أو المفرط الثقافة، سيفتقر لخصال الإنسانية، وحسن الضيافـــة، والفكاهة اللطيفة تلك التي تخص أياماً خلت. حين سمعت هذه الليلـــة أسماء أولئك المغنين العظام السالفين خيِّل إليّ، ويجب أن أعـــترف، أننا نعيش في عصر أقل رحابة، تلك الأيام يمكن أن نســـمّيها أيامـــاً رحبة، فإذا كانت قد اندثرت إلى عالم الغيب فدعونـــا نـــأمل، علـــى الأقل، أننا سنظل في اجتماعات كهذه نتحدث عنـــها بفخـــر وحـــب، سنظل نرعى في قلوبنا ذكرى أولئك العظام الموتى الراحلين الذيـــن لن يدع العالم ذكرهم يموت".

قال السيد براون بصوت عال: "اسمعوا ! اسمعوا !"

تابع غابرييل، وقد انخفض صوته إلى انثناءات ألطف: "ومع ذلك، تعود دائماً في تجمعات كهذه أفكار حزينة إلى أذهاننا. أفكـــار مـــن الماضي، عن الشباب، والتغيرات، عن وجوه غابت ونفتقدها في هـــذه الأمسية. إن سبيلنا في الحياة منثورة بالعديد من الذكريـــات الحزينـــة كهذه. ولو كنا نطيل الاكتئاب حولها لما وجدنا الشجاعة لمتابعة عملنا بين الأحياء. إن لدينا جميعاً واجبات حية وانفعالات حيـــة تطالبنـــا، تطالبنا بحق، بالقيام بمحاولاتنا الحثيثة.

"لذا، لن أتوقف كثيراً عند الماضي. لن أترك أياً من الأخلاقيـــات الكئيبة تتدخل بيننا هنا هذه الليلة. ها نحن هنـــا مجتمعـــون لبعـــض الوقت بعيداً عن هياج وجنون روتين الحياة اليومية. إننا نجتمع هنـــا كأصدقاء، في ظل روح الصحبة الطيبة، كزملاء، وأيضاً، إلى حـــد

ما، في ظل روح الزمالة Camaraderie الحقيقة، وكضيـوف للـ — ماذا أسمّيهن؟ — نِعَم عالم دبلن الموسيقى الثلاث".

ضجَّت المائدة بعاصفة من التصفيق والضحك لهذه الإشارة. وسألت العمة جوليا كلاً من جيرانها بدوره ليخبرها عما قاله غابرييل، ولكن دون فائدة.

قالت ميري جين: "يقول أننا النِعَم الثلاث، يا عمة جوليا".

لم تفهم العمة جوليا، بل اكتفت برفع بصرها، مبتسمة، إلى غابرييل، الذي تابع على نفس المنوال:

"سيداتي سادتي،

لن أحاول أن أقوم هذا المساء بالدور الذي أدّاه باريس[13] في واقعة أخرى. لن أحاول أن أميِّز بينهن. فستكون المحاولة مثيرة للحسد، وهي تتجاوز طاقاتي المتواضعة، لأنني حين أنظر إليهن على التوالي، سواء إلى مضيفتنا الرئيسية نفسها، التي باتت طيبة قلبها، قلبها المفعم بالطيبة، مثالاً يحتذى لكل من يعرفها، أو أختها، التي يبدو أن الله حباها الشباب الدائم، والتي لا بد أن غناءها قد أدهشنا وأثار وحينا جميعاً هذا المساء، وأخيراً وليس آخراً، حين أتأمل مضيفتنا الصغرى، الموهوبة، المرحة، المجتهدة في عملها، وأفضل بنات الأخت، أعترف، أيها السيدات والسادة، أنني لا أعرف إلى مَنْ منهن أمنح الجائزة".

ألقى غابريل نظرة على عمّتيه، ولما رأى الابتسامة الكبيرة على وجه العمة جوليا، والدموع التي تترقرق في عينيّ العمة كيت، عجَّل بالاقتراب من الخاتمة، فرفع كأس البورت بشهامة، بينما لمس كل واحد من المجموعة كأسه متوقعاً، وقال بصوت جهوري:

"فلنشرب نخب الثلاث معاً. لنشرب في صحّتهن، وثرائهن، وعمرهن المديد، وسعادتهن ورخائهن، ولندعُ الله أن يطيل في

أعمارهن ليحافظن على مكانتهن التي نلنها بأنفسهن والجديرة بـــالفخر في عملهن المهني"

وجال ببصره في الصالة، وقال:

"ألم تنزل غريتا بعد؟"

قالت العمة كيت: "إنها تحضِّر أغراضها، يا غابرييل".

سأل غابرييل: "من يعزف هناك؟"

"لاأحد. كلهم ذهبوا".

قالت ميري جين: "أوه كلا يا عمة كيت، فالسيد بـــارتل دارســـي والآنسة أوكاليغان لم يذهبا بعد".

قال غابرييل: "على أية حال هناك من يعبث بالبيانو".

ألقت ميري جين نظرة على غابريل والسيد بروان وقالت مـــع ارتعاشة:

"أشعر بالبرد كلما نظرت إليكما أيها السيدان وأنتما ملفَّعان هكـــذا، لا أتمنى أن أواجه رحلتكما إلى البيت في مثل هذه الساعة".

قال السيد بروان بعنف: "لا أحب شيئاً آخر في هذه الدقيقة أكـــثر من نزهة مشي جميلة متهادية في الريف أو قيـــادة ســـيارة بســـرعة مزودة بقوة رشيقة بين أعمدة تشغيلها".

قالت العمة جوليا بحزن: "كان لدينا حصان جيـــد جـــداً وعربـــة بعجلتين في المنزل".

قالت ميري حين، ضاحكة: "جوني الذي لا ينسى".

وضحكت العمة كيت وغابرييل أيضاً.

سأل السيد براون: "ولكن، أية روعة كانت في جوني؟"

شرح غابرييل: "لقد وجدنا، المرحوم المغفور له باتريك موركان، الذي كان يعرف في سنواته الأخيرة باسم الجنتلمان العجوز، يعمل غالي غراء".

قالت العمة كيت، ضاحكة: "آه منك يا غابرييل، لقد كانت لديه مطحنة نشاء".

قال غابرييل: "حسن، غراء أم نشاء، كان لدى الجنتلمان العجوز حصان اسمه جوني. وكان جوني يعمل في مطحنة الجنتلمان العجوز، فيدور ويدور ليشغّل المطحنة. حتى الآن كل شيء حسن، ولكن الآن يأتي الجزء المأساوي من قصة جوني. فذات يوم جميل رغب الجنتلمان العجوز في أن يتجول على متن حصانه الممتاز في الحديقة العامة كمن يستعرض جنده".

قالت العمة كيت بنبرة مشفقة: "رحم الله روحه".

قال غابرييل: "آمين، إذن، كما قلت، أعدَّ الجنتلمان العجوز جوني، واعتمر أفضل قبعة عالية لديه، ووضع أفضل ياقة، وامتطاه خارجاً بخطو فخم من منزله العريق الكائن قرب باك لين، كما أظن".

ضحك الجميع، حتى السيدة مالينز، لمظهر وسلوك غابرييل، وقالت العمة كيت:

"آه منك يا غابرييل، إنه لم يكن يقطن في باك لين حقاً. المطحنة فقط كانت هناك".

تابع غابرييل: "من مثوى أجداده خرج بجوني، واستمر كل شيء على أجمل مايكون إلى أن وقع بصر جوني على تمثال الملك بيلي King Billy، ولعله وقع في هوى الحصان الذي جلس عليه الملك بيلي، أو أنه ظن أنه عاد إلى المطحنة ثانية، على أية حال راح يدور ويدور حول التمثال".

وأخذ غابرييل يخطو على شكل دائرة حول القاعة بحذائه الواقي وسط ضحك الآخرين.

قال غابرييل: "وراح يدور ويدور، والجنتلمان العجوز، الذي كان جنتلماناً عجوزاً مملوءاً بالغرور، يغلي سخطاً. (تابع، ياسيد! ماذا تقصد، ياسيد؟ جوني! جوني! ياله من تصرُّف شاذ! لا أستطيع فهم الحصان!)"

قصفُ الضحك الذي تبع تمثيل غابرييل للحادثة قطعه قرع مجلجل على باب القاعة. هرعت ميري جين لتفتحه وتُدخِل فريدي مالينز. كان فريدي مالينز، بقبعته المنزاحة إلى الخلف من رأسه وكتفيه المحدودبين، ينفث البخار بعد أن قام بنزهاته.

قال: "تمكنت من الحصول على عربة واحدة فقط".

قال غابرييل: "أوه، سنجد واحدة أخرى على رصيف الميناء".

قالت العمة كيت: "نعم، يجب أن لا نترك السيدة مالينز واقفة في التيار".

ساعد السيدة مالينز ابنها والسيد براون على نزول الدرج الأمامي، وبعد عدة مناورات، رفعاها لتلج العربة. وصعد فريدي مالينز بجهد خلفها، وقضى وقتاً طويلاً ليجعلها تستقر في مجلسها، وكان السيد براون ينفحه بالنصيحة. وأخيراً استقرت بشكل مريح، ودعا فريدي مالينز السيد براون للدخول إلى العربة. رتّب السائق البطانية على ركبتيه، ومال ليقرأ العنوان. ازدادت الفوضى وراح كل من فريدي مالينز والسيد براون يوجّه السائق بمعلومات مختلفة، وقد أخرج كل منهما رأسه من نافذة العربة. وكانت الصعوبة هي أين يجب إنزال السيد براون على الطريق، وساعدت العمة كيت، والعمة جوليا وميري جين في النقاش وهنَّ واقفات على الدرج الخارجي

بتوجيهات مختلطة ومتضادة وفيض من الضحك. أما فريدي مالينز فكان يضحك دون أي كلام. كان يبرز ويدخل رأسه من النافذة كل لحظة معرِّضاً قبعته لخطر عظيم، ليخبر أمه بتطوُّر النقاش، إلى أن صرخ السيد براون أخيراً في وجه السائق مما أربكه، متجاوزاً ضحك الجميع:

"هل تعرف كلية الثالوث المقدس؟"

قال السائق: "نعم ياسيدي".

قال السيد براون: "إذن انطلق إلى بوابة كلية الثالوث المقدس، وبعدها سنخبرك إلى أين تذهب. أتفهم الآن؟"

قال السائق: "نعم يا سيدي".

"طِرْ كالعصفور إلى كلية الثالوث المقدس".

قال السائق "حاضر ياسيدي".

ساط الحصان وقرقعت العربة منطلقة على طول رصيف الميناء وسط جوقة من الضحك والتوديعات.

لم يكن غابرييل قد وقف عند الباب مع الآخرين. كان يقف في جزء مظلم من القاعة يحدِّق في أعلى بيت السلّم. وكانت ثمة امرأة تقف عند نهاية المصطبة الأولى، أيضاً في الظل. لم يتمكن من رؤية وجهها، لكنه رأى خطوط تنورتها ذات ألوان الطين والقرنفل السلموني التي جعلها الظل تبدو سوداء وبيضاء. إنها زوجته. كانت تميل على الدرابزين، تنصت إلى شيء ما. دهش غابرييل لسكونها، واستنفر أذنه للإنصات أيضاً. لكنه لم يسمع سوى ضجيج الضحك والجدال القائم على الدرج الخارجي، وأنغام قليلة تعزف على البيانو، وقليل من الكلمات يغنّيها صوت رجالي.

وقف ساكناً وسط كآبة الصالة، يحاول أن يلتقط اللحن الذي كان يغنّيه الصوت وهو يحدّق في زوجته. كان في وقفتها جمال وغموض، كأنها رمز لشيء ما. وسأل نفسه إلامَ ترمز امرأة تقف على الدرج في الظل، تنصت إلى موسيقى نائية. لو كان رساماً لرسمها في هذه الوقفة. كان لباد القبعة الأزرق يبرز لون شعرها البرونزي وسط الظلام، وخطوط تنورتها السوداء تبرز الخطوط البيضاء. لو كان رساماً لسمّى اللوحة "موسيقى مسائية".

أغلق باب الصالة، ودخلت العمة كيت، والعمة جوليا وميري جين الصالة، ومازلن يضحكن.

قالت ميري جين: "حسن، أليس فريدي مالينز فظيعاً؟ إنه فظيع حقاً".

لم يفه غابرييل بشيء، بل أشار إلى أعلى الدرج باتجاه مكان وقوف زوجته. والآن بعد أن أغلق باب الصالة صار صوت البيانو يسمع بوضوح أكثر. مدَّ غابرييل لهم يده ليصمتوا. بدت الأغنية ذات صبغة إيرلندية قديمة، وقد بدا المغني غير متأكد من كلماته وصوته معاً. والصوت، الذي اكتسب نبرة حزينة بفعل المسافة وخشونة صوت المغني، أضاء قليلاً إيقاع اللحن ذا الكلمات التي تعبِّر عن الأسى:

"أوه، المطر يهطل على خصلات شعري المثقلة
والندى يبلّل بشرتي،
وحبيبي يتمدّد بارداً ..."

هتفت ميري جين: "أوه، إنه بارتل دارسي يغني بينما كان يمتنع عن الغناء طوال الأمسية. أوه، سأجعله يغني أغنية قبل أن يذهب".

ألحّت العمة كيت: "أوه، افعلي يا ميري جين".

شقت ميري جين طريقها بين الآخرين وركضت تصعد الدرج، وقبل أن تصل إليه توقف الغناء وانغلق البيانو على عجل.

هتفت: "أوه، خسارة! هل سينزل يا غريتا؟"

سمع غابرييل رد زوجته بالإيجاب ورآها تنزل إليهم. وإلى الخلف منها ببضع درجات كان السيد بارتل دارسي والآنسة أوكالاغان.

قالت ميري جين: "أوه، ياسيد دارسي. إنه لبخل محض منك أن تصمت فجأة في وقت كنا جميعاً ننصت إليك بانتشاء".

قالت الآنسة أوكالاغان: "لقد كنت ألحُّ عليه طوال الأمسية، والسيدة كونروي أيضاً، وكان يقول لنا بأنه مصاب ببرد رهيب وأنه لا يستطيع الغناء".

قالت العمة كيت: "أوه، ياسيدي دارسي، هذه أكذوبة كبيرة تقال في حقك".

قال السيد دارسي بخشونة: "ألا ترون أن صوتي خشن كصوت غراب؟"

وولج غرفة المؤن على عجل وارتدى معطفه، ولم يجد الآخرون ما يقولونه وقد فوجئوا بكلامه الفظ. عقدت العمة كيت ما بين حاجبيها وأشارت إلى الآخرين أن ينسوا الموضوع. ووقف السيد دارسي يلفع رقبته بعناية وهو عابس.

بعد صمت، قالت العمة جوليا: "الجو هو السبب".

قالت العمة كيت مباشرة: "نعم، الكل مصاب بالبرد، الجميع".

قالت ميري جين: "يقال لم يهطل عندنا ثلج كهذا منذ ثلاثين سنة، وقرأت هذا الصباح في الصحف أن الثلج سيهطل فوق إيرلندا كلها".

قالت العمة جوليا بحزن: "أنا أحب مرأى الثلج".

قالت الآنسة كالاغان: "وأنا أيضاً، أظن أن عيد الميلاد لا يكـون عيد ميلاد بحق إلا إذا غطى الثلج الأرض".

قالت العمة كيت باسمة: "لكن المسكين السيد دارسي لا يحب الثلج".

قَدِمَ السيد دارسي من غرفة المؤن، ملفَّع كله، ومحزَّم، وأخـبرهم بنبرة ندم تاريخ حياة برده. وأعطاه كل منهم نصيحة مبديـاً شـفقته العظمى وحثّه ليولي منتهى الانتباه حنجرته من هواء الليل.

راقب غابرييل زوجته، التي تشارك في الحديث. وكـانت تقـف مباشرة تحت نافذة الباب المرحية المُغبَّرة، ولهب الغاز يضيء لـون البرونز الفاحم في شعرها، الذي رآها تجففه قرب النار قبلها ببضعـة أيام. كانت في نفس وقفتها، وبدت غير واعية للحديث الدائر حولـها. أخيراً استدارت نحوهم ورأى غابرييل أن خديها متوردان وأن عينيها تشعان بالبريق. واجتاحت موجة مفاجئة من الفرح قلبه وفاضت.

قالت: "ياسيد دارسي، ما اسم تلك الأغنية التي كنتَ تغني؟"

قال السيد دارسي: "اسمها (حسناء أوغريم) لكنـي لـم أتذكرهـا تماماً. لماذا؟ هل تعرفينها؟"

ردّدت: "(الحسناء أوغريم) لم يخطر لي اسمها على بال".

قالت ميري جين: " لحن جميل جداً، يؤسفني أن صوتك لم يكـن على مايرام هذا المساء".

"والآن، عمت مساءً يا عمة كيت، وشكراً جزيلاً. عمتِ مساءً يـا عمة جوليا".

"أوه، عمت مساءً يا غريتا، إنني لا أراك".

"عمتَ مساءً يا سيد دارسي. عمتِ مساءً يا آنسة كالاغان".

"عمتِ مساءً يا آنسة موركان".

"عمتم مساءً، مرة أخرى".

"عمتم مساءً جميعاً. توصلوا بالسلامة".

"عمتم مساءً، عمتم مساءً".

كان الصباح لا يزال معتماً، وغمر البيوت والنهر ضوء أصفر باهت، وبدا كأن السماء تهبط. كانت الأرض تحت الأقدام موحلة، ولا تغطي سوى شرائط وبقع من الثلج الأسطحَ وحواجزَ رصيف الميناء ومناطق الدرابزين. كانت المصابيح ماتزال تتوهج حمراء في الجو الأضبّ، وعلى الضفة الأخرى للنهر نهض قصر البلاطات الأربع مهدداً في وجه السماء المثقلة.

كانت تمشي متقدمة عليه مع السيد بارتل دارسي، وقد دسَّت حذاءها الملفوف بحزمة بنيّة تحت ذراعيها، ورفعت بيديها ثوبها لتقيه من الوحل. لم يعد في وقفتها جمال، لكن عيني غابرييل كانتا لا تزالان تبرقان بالسعادة. وجرى الدم طافراً في عروقه، وانطلقت الأفكار تعربد في رأسه، فخورة، فرحة، رقيقة وشجاعة.

كانت تتقدّمه في المشي بخفَّة رشيقة، وانتصاب قامتها شديد حتى أنه ودَّ لو يركض خلفها دون أن يثير صوتاً، ويمسك بها من كتفيها ويتفوَّه بكلام أحمق رقيق في أذنها.

لقد بدت له من الهشاشة حداً جعله يشتاق لحمايتها من شيء ما، ومن ثم ليختلي بها. وومضت في ذاكرته لحظات من حياتهما معاً كالنجوم، مرة يبحثان عن عصافير تزقزق في شجيرة لبلاب، ونسيج ستارة مشمس يخفق على طول الأرضية، ولم يكن يرغب في الأكل من فرط السعادة. ومرة كانا واقفين على الرصيف المزدحم وكان يدس بطاقة داخل كف قفازاها الدافئ. ومرة كان يقف معها في البرد، ينظران من خلال نافذة ذات قضبان إلى رجل يصنع زجاجات داخل

فرنٍ هادر. كان البرد شديداً. وكان وجهها العَطِر وسط البرد قريباً جداً من وجهه، وفجأة هتف إلى رجل الفرن:

"هل النار حارة، ياسيدي؟"

لكن الرجل لم يسمعه بسبب ضجيج الفرن. وكان ذلك أفضل؛ وإلا لكانت إجابته فظة.

طفرت من قلبه موجة أكثر رقة، وراحت تشق طريقاً بدفق دافئ على طول الشرايين. كنار النجوم اللطيفة تفجَّرت لحظات من حياتهما معاً، ما عرفها ولا سيعرفها أحد، وأضاءت ذاكرته. ودَّ لو يذكِّرها بتلك اللحظات، لو يجعلها تنسى سنوات عيشهما الراكدة، وتتذكر فقط أوقات النشوة. لقد شعر أن السنين لم تخمد روحه أو روحها، ولا أولادهما ولا كتابته، ولا واجباتها المنزلية لا شيء يخمد كل نار روحيهما اللطيفة.

في رسالة كان قد كتبها لها في ذلك الحين قال: "لماذا تبدو لي مثل هذه الكلمات شديدة البلادة والبرودة؟ هل لأنه لا توجد كلمة هي من الرقة لتكون اسمك؟"

جاءت إليه هذه الكلمات التي كان قد كتبها قبل سنين كموسيقى آتية من الماضي. اشتاق أن ينفرد بها. بعد أن يذهب الآخرون، حين سيصل هو وهي إلى غرفتهما في الفندق، عندئذٍ سيكونان وحدهما معاً. سوف يناديها برقة:

"غريتا!"

ربما لن تسمعه على الفور، وهي تخلع ملابسها. ثم سيُلفِت انتباهها شيء في صوته. ستلتفت وتنظر إليه ...

عند زاوية شارع واينتافرن قابلا عربة. كان سعيداً بضجيجها المقرقع لأنه أنقذه من فتح حديث. كانت تنظر من النافذة وبدت تعبة.

ولم يَفُه الآخرون إلا ببعض كلمات، مشيرين إلى بناية أو شارع. وعدا الحصان في طريقه ضجِراً تحت سماء الصباح المعتمة، جاراً صندوقه القديم المزعزع خلفه، وها هو غابرييل معها مرة أخرى داخل عربة، يعدوان للّحاق بالقارب، يعدوان للّحاق بشهر عسلهما.

حين عبرت العربة جسر أوكنل قالت الآنسة كالاغان:

"يقال إنك لا تعبر جسر أوكنل دون أن ترى حصاناً أبيض".

قال غابرييل: "هذه المرة أرى رجلاً أبيض".

سأل السيد بارتل: "أين؟"

أشار غابرييل إلى التمثال الذي تستقر عليه بقع من الثلج. ثم أومأ بحركة مألوفة إليه ولوَّح بيده.

قال بمرح: "أسعدتَ مساءً يا دان".

حين اقتربت العربة من الفندق قفز غابرييل خارجاً ودفع للسائق، رغم احتجاج السيد بارتل دارسي، وأعطى الرجل شلناً فوق أجرته. حيَّاه الرجل وقال:

"أتمنى لك رأس سنة مزدهر، ياسيدي".

قال غابرييل بمودّة: "تمنياتي لك أيضاً".

مالت قليلاً على ذراعه لبرهة لدى خروجهما من العربة، وحين وقفت على طرف الرصيف لتتمنى مساءً سعيداً للآخرين. كان اتكاؤها خفيفاً على ذراعه، خفيفاً كما كان حين راقصته قبل بضع ساعات. وشعر بالفخر والسعادة عندئذٍ، إنه سعيد لأنها تخصه، وفخور بحسنها وواجباتها الزوجية. أما الآن، بعد عودة الكثير من الذكريات إلى تلألؤها، فإن أول لمسة لجسدها الموسيقي الغريب المعطر، بثّت فيه دفقة شبق حادة. وتحت غطاء صمتها ضغط ذراعها أقرب إلى جنبه، وحين كانا واقفين عند باب الفندق، أحس

بأنهما قد هربا من حياتهما وواجباتهما، هربا من البيت والأصدقاء، هربا معاً بقلبين متمردين إلى مغامرة جديدة.

في الصالة كان رجل عجوز يغفو في كرسي هائل ذي غطاء. أشعل شمعة في المكتب وتقدمها على الدرج، وتبعته بصمت، وأقدامهما تغوص مع ضربات مكتومة ناعمة على الدرج المكسو بالسجاد السميك. صعدت الدرج خلف البواب، ورأسها محني عند الصعود، وكتفاها الضعيفان كأنما ينوءان بحمل، وأطراف ثوبها تلتفّ بحزم حولها. كان يودّ لو يطوّق وركيها بذراعيه ويبقيها بلا حركة. كانت ذراعاه ترتعشان رغبة لضمها، ولم يكبح رغبة جسده الرعناء إلى ضغط أظافره على راحتي كفّيه.

وقف البواب على الدرج ليثّبت شمعته ذات الميازيب الذائبة. وقفا بدورهما على الدرج إلى الأسفل منه. في الصمت استطاع غابرييل أن يسمع سقوط الشمع الذائب على الصحفة ووجيب قلبه على أضلاعه.

قادهما البواب على طول الرواق ثم فتح باباً، ثم ركّز شمعته المزعزعة على طاولة زينة وسألهما عن الساعة التي يريدان أن ينادي عليهما فيها في الصباح.

قال غابرييل: "الثامنة".

أشار البواب إلى مفتاح النور الكهربائي وبدأ يتمتم باعتذار، لكن غابرييل قاطعه: "لانريد أي ضوء. يكفي ما يأتينا من نور الشارع، وأنا أرى" أضاف غابرييل، مشيراً إلى الشمعة "أن تأخذ هذا الشيء الأنيق، كما يفعل الرجل الطيب".

حمل البواب شمعته مرة أخرى، ولكن ببطء، لأنه فوجئ بتلك الفكرة الجديدة. ثم غمغم بتحية المساء وخرج. وأوصد غابرييل الباب.

امتدّ مستطيل طويل من نور مصباح الشارع الشاحب، عبر إحدى النوافذ إلى أرض الغرفة. رمى غابرييل معطفه وقبعته على مقعد وعبر الغرفة نحو النافذة. أطل على الشارع آملاً أن تهدىء هذه الحركة من غلواء مشاعره. ثم استدار ومال على دولاب من الأدراج وقد أدار ظهره للنور. كانت قد خلعت قبعتها وثوبها ووقفت أمام مرآة كبيرة متدلّية، وهي تفك أزراراً عند وسطها. صمت غابرييل لحظات، يراقبها، ثم قال:

"غريتا!"

استدارت عن المرآة ببطء ومشت على طول مستطيل النور باتجاهه. بدا وجهها شديد الجدّية وتعباً، حتى أن الكلمات لم تخرج من شفتي غابرييل. لا، لم يحن الوقت بعد.

قال "تبدين تعبة".

أجابت: "نعم قليلاً"

"لا أظنك مريضة أو متوعكة؟"

"لا، بل تعبة لا أكثر".

تابعت سيرها إلى النافذة ووقفت هناك، تنظر إلى الخارج. انتظر غابرييل مرة أخرى ثم قال على عجل، خشية أن يغلبه الحياء:

"على فكرة يا غريتا!"

"ماذا؟"

قال على عجل: "أتعرفين ذاك الفتى المسكين مالينز؟"

"نعم، مابه؟"

تابع غابرييل بنبرة صوت زائفة: "هذا المسكين، إنه شاب مهذب، رغم ذلك أعاد لي الجنيه الذي كنت أقرضته إياه، ولم أتوقعه منه حقاً. من المؤسف أنه لا يريد أن يبتعد عن ذاك الرجل براسون، لأنه، حقاً، ليس شاباً سيئاً".

الآن صار يرتجف من الانزعاج. لماذا تبدو بذاك الشرود؟ لم يكن يعرف كيف يبدأ. هل هي أيضاً منزعجة لأمر ما؟ ليتها فقط تلتفت إليه أو تقترب منه بملء إرادتها! سيكون من الوحشية نيلها وهي هكذا. لا، عليه أولاً أن يرى بعض التوقّد في عينيها. لقد كان مشتاقاً للسيطرة على مزاجها الغريب.

سألته، بعد صمت: "متى أقرضته الجنيه؟"

كبح غابرييل نفسه من أن ينفجر في نوبة ألفاظ وحشية يصف بها مالينز السكير وجنيهه. ودّ لو يبكي لأجلها من كل قلبه، لو يسحق جسدها على جسده، أن يسيطر عليها. لكنه قال:

"أوه، في عيد الميلاد، حين افتتح مخزن بيع بطاقات عيد الميلاد ذاك في شارع هنري".

كانت حمى الغضب والرغبة من الشدة بحيث لم يسمعها وهي تبتعد عن النافذة وتقترب منه. وقفت أمامه لبرهة، وهي تنظر إليه نظرة غريبة. ثم إذا بها ترفع نفسها على رؤوس أصابعها فجأة وتريح يديها برفق على كتفيه، وتقبله.

قالت: "أنت إنسان كريم جداً، يا غابرييل".

ارتجف غابرييل من البهجة من قبلتها المفاجئة وعبارتها الظريفة، فوضع يده على شعرها وبدأ يمسّده إلى الخلف، لا يكاد يمسّه بأصابعه. لقد جعله الغسل جميلاً براقاً. كان قلبه يفيض بالسعادة. فحالما فكر في رغبته أتت إليه بملء إرادتها. لعل أفكارها كانت تتساوق مع أفكاره. لعلها شعرت برغبته الرعناء، وأخيراً استولى على مزاج الاستسلام. والآن قد رضخت له بسهولة شديدة، فإنه يعجب لماذا يشعر بكل هذا الحياء.

وقف، يضم رأسها بين يديه. ثم، بعد أن زلق إحدى ذارعيه بسرعة حول جسمها وقرّبها منه، قال برقّة:

"غريتا، حبيبتي، بمَ تفكرين؟"

لم تجب ولا هي استسلمت كلّياً لذراعه. عاد يقول برقة:

"قولي لي ما الأمر، غريتا. أظن أنني أعرف ما الأمر. هل أعرف؟"

لم تجب فوراً. ثم قالت مع نوبة بكاء:

"أوه، إنني أفكر بتلك الأغنية (حسناء أوغريم)".

انفلتت منه وركضت إلى السرير، ورمت بذاعيها على حاجز السرير، ودفنت رأسها. وقف غابرييل جامداً مذهولاً لبرهة ثم تبعها. حين مرَّ من أمام المرآة المتأرجحة لمح نفسه بطوله الكامل، بصدر قميصه العريض الممتلئ تماماً، والوجه الذي طالما حيَّره تعبيره حين يراه، ونظارته اللامعة ذات الإطار الذهبي. توقف على بضع خطوات منها وقال:

"ما خطب الأغنية؟ لماذا جعلتك تبكين؟"

رفعت رأسها عن ذراعيها وجففَّت عينيها بظاهر يدها كالطفل. وجرى صوته بنبرة أرق من تلك التي أرادها.

سألها: "لماذا يا غريتا؟"

"أفكر بشخص كان قبل زمن بعيد يغني تلك الأغنية".

سأل غابرييل مبتسماً: "ومن كان ذاك الشخص القديم؟"

قالت: "شخص كنت أعرفه في غالواي حين كنت أعيش مع جدتي".

اختفت الابتسامة عن وجه غابرييل، وبدأ غضب كليل يتجمَّع من جديد في خلفية رأسه، وبدأ لظى شهوته الفاتر يتقد غيظاً في عروقه.

سألها ساخراً: "شخص كنت تحبينه؟"

أجابت: "كان فتى تعرّفت إليه، اسمه مايكل فيوري. كان يغني تلك الأغنية (حسناء أوغريم). كان رقيقاً جداً".

صمت غابرييل. لم يُرد أن تظن أنه مهتم بهذا الولد الرقيق.

قالت بعد برهة: "أكاد أراه بوضوح. يـــالتينك العينيــن: عينـــان كبيراتان سوداوان! وأي تعبير فيهما- يا له من تعبير!"

قال غابرييل: "أوه، إذن أنت تحبينه؟".

قالت: "كنت أخرج للتمشي معه، حين كنت في غالواي".

ولمعت فكرة في ذهن غابرييل.

قال ببرود: "لعل هذا هو السبب الذي جعلك ترغبين بالذهاب إلـــى غالواي مع تلك الفتاة إيفورز؟"

نظرت إليه وسألته مندهشة:

"ولمَ؟"

عيناها جعلتا غابرييل يشعر بأنه أخرق. فهز كتفيه وقال:

"كيف لي أن أعرف؟ لتريه، ربما".

أشاحت بوجها عنه بصمت نحو النافذة على طول مستطيل النور.

وأخيراً قالت: "إنه ميت. مات حين كان فقط في الســابع عشـــرة. أليس شيئاً مريعاً أن يموت المرء شاباً هكذا؟"

سأل غابرييل، ساخراً أيضاً: "ماذا كان يعمل؟"

قالت: "كان يعمل في مصنع للغاز"

شعر غابرييل بالمهانة لفشل ســـخريته. وبســـبب نـــهوض هـــذا الشخص من بين الموتى، ذاك الفتى العامل في مصنع الغــــاز. فـــي الوقت الذي كان فيه مملوءاً بذكريات حياتهما السرية معـــاً، مملــوءاً بالعذوبة والمتعة والرغبة، كانت هي تقارنه في ذهنها بآخر. وأغـــار عليه وعي مخجل بشخصه. رأى نفسه شخصاً مثيراً للسخرية، يعمــل صبيّاً لعمّتيه، عاطفياً حَسنَ النيّة، عصبياً، يخطب أمـــام ســوقيين، ويحوّل شهواته البهلوانية إلى أفكار نظرية، إنه الأبله التافـــه الــذي لمحه في المرآة. أدار ظهره غريزياً أكثر نحو النور خشية أن تـــرى إمارة العار الذي كان يلهب جبينه.

حاول أن يحتفظ بنبرة الإستجواب البارد، لكن صوته حين تكلَّم كان متصنعاً ولا مبالياً.

قال: "أظنك كنت تحبين هذا المدعو مايكل فيوري، يا غريتا".

قالت: "كنت في أحسن حال معه".

كان صوتها مبطَّناً حزيناً. ولما صار غابرييل الآن يشعر بعبث محاولة توجيهها إلى حيث خطَّط، راح يداعب إحدى يديها وقال، بحزن أيضاً:

"وما الذي سبَّب موته المبكِّر، غريتا؟ أكان السل؟"

أجابت: "أظنه مات بسببي".

استحوذ على غابرييل رعب مبهم لهذا الجواب، وكأنما، في الساعة التي امتلأ فيها بأمل النصر، كان هناك كيان دقيق حقود يهاجمه، يحشد قواه ضده في عالمه الغامض. لكنه تخلَّص منه بجهد من العقل وتابع مداعبته ليدها. لم يعد إلى استجوابها، لأنه شعر أنها تفضي إليه من تلقاء ذاتها. كانت يدها دافئة رطبة. لم تستجب للَمسته، غير أنه تابع مداعبتها تماماً كما داعب أول رسالة وصلته مِنها ذات صباح ربيعي.

قالت: "كان ذلك في الشتاء، في حوالي بداية الشتاء وكنت أنوي مغادرة منزل جدتي للالتحاق بالدير. كان مريضاً في ذلك الوقت في مسكنه في غالواي وممنوع عليه الخروج. وأُبلغ ذووه في أوترار. وقيل بأن صحته كانت في انحدار، أو ما شابه. لم أعلم بالضبط كيف كان".

صمتت لبرهة وتنهدّت.

قالت: "مسكين، كان شديد الشغف بي. كان فتى رقيقاً مرهفاً. كنا نخرج معاً، نتمشى كما تعلم يا غابرييل، كما كنا نفعل في الريف. كان ينوي الذهاب لدراسة الغناء لولا حالته الصحية. كان له صوت رائع جداً، مايكل فيوري المسكين".

سأل غابرييل: "حسن، ثم ماذا؟"

"ثم حين آن وقت مغادرتي غالواي لآتي إلى الدير كانت حالته قد ازدادت سوءاً، ولم يسمحوا لي برؤيته، لذا كتبت له رسالة أقول فيها إني ذاهبة إلى دبلن وسأعود في الصيف، وإني آمل أن أجده في حال أفضل عندئذٍ".

صمتت للحظة لتتحكم بصوتها، ثم تابعت:

"ثم في الليلة السابقة ليوم رحيلي، كنت في بيت جدتي في جزيرة ننز، أحزم أمتعتي، وسمعت حصاة ترمى على نافذتي. كانت النافذة شديدة الرطوبة بحيث تعذَرت الرؤية، لذا هرعت أنزل الدرج كما أنا، وتسلَّلت من الباب الخلفي إلى الحديقة، هناك وجدت الفتى المسكين في نهاية الحديقة، يرتجف".

سأل غابرييل: "ألم تطلبي منه أن يعود من حيث أتى؟"

"توسَّلت إليه أن يذهب إلى البيت على الفور. قلت له بأنه سيلقى حتفه بوقوفه تحت المطر. لكنه قال إنه لايريد أن يعيش. أكاد أرى عينيه واضحتين تماماً! كان وقفاً عند نهاية السور قرب الشجرة".

سأل غابرييل: "هل توجه إلى البيت؟"

"نعم، ذهب إلى البيت. وحين مضى على وجودي في الدير أسبوع مات، ودفن في أوترارد، مسقط رأس ذويه. آه، يالذاك اليوم الذي سمعت فيه أنه، أنه مات!"

سكتت، وقد خنقها النشيج، ولما غلبها الانفعال رمت بوجهها على السرير وهي تنشج في اللحاف. أمسكِ غابرييل بيدها لفترة أخرى، متردداً، ثم، وبدافع من خجله من تدخُله على حزنها، تركها تسقط برفق ومشى بهدوء إلى النافذة.

وسرعان ما نامت.

نظر غابرييل لحظات بلا امتعاض، وهو يميل على مرفقه، إلى شعرها المشوَّش وفمها نصف المفتوح، منصتاً إلى تنفسها العميق. إذن فقد كانت في حياتها تلك القصة العاطفية: رجل يموت إكراماً لها. بات لا يكاد يؤلمه الآن أن يعرف مدى تفاهة الدور الذي لعبه هو، زوجها، في حياتها. راقبها وهي نائمة، كأنهما لم يعيشا معاً أبداً كزوج وزوجة. استراحت عيناه طويلاً على وجهها وشعرها. وبينما هو يتخيَّل كيف كانت يجب أن تكون عندئذ، وقت كانت في عز جمالها الأول، احتلَّت روحه شفقة وديّة عليها. لم يرغب في أن يقول حتى لنفسه إن وجهها لم يعد جميلاً، بل إنه كان يعلم أنه لم يعد الوجه الذي من أجله تحدَّى مايكل فيوري الموت.

لعلها لم تخبره بكل القصة. تحرَّكت عيناه نحو الكرسي الذي رمت عليه بعض ملابسها. رباط سترة الصدر يتدلّى على الأرض. إحدى فردتيّ الحذاء تقف قائمة، وقد انخفض جزؤها الأعلى الرخو؛ واستقرت رفيقتها على جنبها. وتعجَّب من فوران عواطفه قبلها بساعة. من أين انبثق كل هذا؟ من عشاء عمته، من خطبته البلهاء، من الرقص وشرب الخمر، والمرح الذي أشاعه تبادل تحية المساء في الصالة، ومتعة المشي على طول النهر تحت الثلج. مسكينة العمة جوليا! هي أيضاً ستغدو قريباً ظلاً إلى جانب ظل باتريك موريكان وحصانه. لقد لمح تلك النظرة المرهقة على وجهها لبرهة حين كانت تغني "متبرجة لأجل العرس". لعله قريباً سيجلس في غرفة الجلوس تلك نفسها، ببذلة سوداء، وقبعته الحريرية السوداء على ركبتيه. وستكون الستائر مسدلة والعمة كيت جالسة إلى جانبه، تبكي وتتمخط وتخبره كيف ماتت جوليا. وسوف يفتش في ذهنه عن بعض الكلمات ليواسيها، فلا يجد سوى كلمات سقيمة لا نفع فيها. نعم، نعم: سيحدث هذا قريباً جداً.

أشاع جو الغرفة البرودة في كتفيه. فتمـدد علـى طولـه تحـت الملاءات بحذر، واستلقى إلى جانب زوجتـه. واحـداً بعـد آخـر، سيصبحون كلهم ظلالاً. ومن الأفضل الانتقال إلى ذلك العالم الآخـر. وسط عنفوان انفعال ما، على أن يذوي الإنسان ويتلاشى فـي كآبـة الشيخوخة. فكّر كيف أن هذه التي تستلقي إلى جانبه قد أوصدت قلبها طوال سنوات عديدة على تلك الصورة لعينيّ حبيبها حين قال لها إنـه لا يريد أن يعيش.

فاضت عينا غابرييل بدمع غزير. لم يشعر في حياته بمثل هذا حيـال أية امرأة، لكنه علم أن هذا الشعور لا بد أن يكون حباً. تجمّعت الدمـوع بكثافة أكثر في عينيه، وتخيّل وسط الظلام الجزئي أنه رأى شكل شـاب صغير يقف تحت شجرة تقطر. ثمة أشكال أخرى تحيط به. كانت روحـه قد اقتربت من تلك المنطقة التي تسكنها جمهرة واسعة من الموتى. كـان يعي، لكنه لم يفهم، وجودهم المعاند الخفاق. كيانه نفسه كان يتلاشى إلـى عالم باهت غير محسوس. أما العالم الصلب نفسه، الذي نشأ وعاش فيـه أولئك الموتى، فكان ينكمش ويتضاءل.

بضع ربتات خفيفة على الزجاج جعلته يلتفت نحو النـافذة. هـاقد عادت تثلج من جديد. راقب وهو ناعس نتف الثلج، الفضية القاتمـة، تسقط بانحراف على ضوء المصباح. لقد حان أوانه كي ينطلق فـي رحلته نحو الغرب. نعم، كانت الصحف محقّة. الثلـج يغطـي كـل الأراضي الإيرلندية. إنه يسقط على كل جزء من السـهل الأوسـط المظلم، على الهضاب الجرداء، يسقط بلطف على مستنقع ألن، وبعيداً نحو الغرب، يسقط برفق داخل أمواج نهر شانون المظلم المتمـرّدة. كان يسقط على كل جزء من فناء الكنيسـة الموحـش القـائم علـى الهضبة التي يستلقي فيها مايكل فيوري ميتاً. إنه يتراكم كثيفـاً علـى الصلبان المعقوفة وشواهد القبور، على حراب البوابـات الصغـيرة، على الأشواك العارية. وتخدّرت روحه وهو ينصت إلى الثلج يتسـاقط

بوهن على كل الكون، ويسقط بوهن على الأحياء والموتى، كحلـــول نهايتهم الأخيرة.

الهوامش:

(1) أوبرا "آدم وحواء" من تأليف الموسيقي الألماني جوهان تايله (1646-1724) ويبـــدو أنها أبرز أوبرا له.

(2) روبرت براوننغ (1812-1889) شاعر إنكليزي فيكتوري، تـــزوج مـــن الشـــاعرة إليزابيث براوننغ (1806-1861) وكانت هي في الواقع أفضل منه في شاعريتها.

(3) العبور هو إحدى مراحل الرقصة التي يؤدون.

(4) مرة أخرى "خطوة الزيارة" هي إحدى خطوات الرقصة التي يؤدونها.

(5) "مينيون": أوبرا كتبها أمبريزو توماس (1811-1896) الفرنســـي، وقدمـــها عـــام (1866).

(6) تييتجنز (1831-1877): مغنية سوبرانو هنغارية.

(7) المادي مورزكا (1836-1889): مغنية أوبرا كرواتية.

(8) كليوفونته كامبانيني (1860-1919): قائد فرقة موسيقية، إيطالي قضى معظم حياتـــه المهنية في أميركا.

(9) زيليا تربيللي (1838-1892): سوبرانو فرنسية.

(10) كارلو ماريا غيوليني: قائد أوركسترا إيطالي.

(11) دينورا "أو اعتذار بلويرمل" أوبرا من تأليف مايربير.

(12) لوكريشيا بورجيا: أوبرا من تأليف دونيزيتي (1833).

(13) كاروزو: من أشهر مغني الأوبرا في هذا القرن (1873-1921).

(14) يقصد أن معنى إسمه (Bruwn) هو أسمر.

(15) المقصود هنا ما جاء في الأساطير اليونانية حول باريس الذي طلبت منه الآلهة أن يختار بين هيرا أو أفروديت أو أثنا ليقدّم لها جائزة الجمال، فاختار أفروديت لأنها دلّته على أجمـل امرأة في العالم لتكون له زوجة، فإذا بها هيلين زوجة مينيلاوس، فاختطفـــها وتســـبب في نشوب حرب طروادة المعروفة.

الفهرس

من إصدارتنا

- فلسفة الأسطورة ـ الكسي لوسيف
- أوهام ما بعد الحداثة ـ تيري ايجلتون
- نقد الخطاب النهضوي المعاصر ـ تركي الربيعو
- الدولة والنهضة والحداثة ـ محمد جمال باروت
- أقواس في الحياة الثقافية ـ نبيل سليمان
- أطياف العرش ـ نبيل سليمان
- الإسلام الخوارجي ـ أحمد معيطة
- ممكنات النص ـ صلاح صالح
- جاك المؤمن بالقدر – ديدرو
- النائم ـ جورج بيريك
- الاقتصاد في دول العالم القديم ـ عبد الله الحلو
- سيرة الله ـ جاك مايلز

من إصدارتنا

- فلسفة الأسطورة ـ الكسي لوسيف
- أوهام ما بعد الحداثة ـ تيري ايجلتون
- نقد الخطاب النهضوي المعاصر ـ تركي الربيعو
- الدولة والنهضة والحداثة ـ محمد جمال باروت
- أقواس في الحياة الثقافية ـ نبيل سليمان
- أطياف العرش ـ نبيل سليمان
- الإسلام الخوارجي ـ أحمد معيطة
- ممكنات النص ـ صلاح صالح
- جاك المؤمن بالقدر ـ ديدرو
- النائم ـ جورج بيريك
- الاقتصاد في دول العالم القديم ـ عبد الله الحلو
- سيرة الله ـ جاك مايلز

تصميم الغلاف : ناظم حمدان

لوحة الغلاف : ناصر جليلي

دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع
سوريا - اللاذقية - ص.ب 1018 هاتف 422339